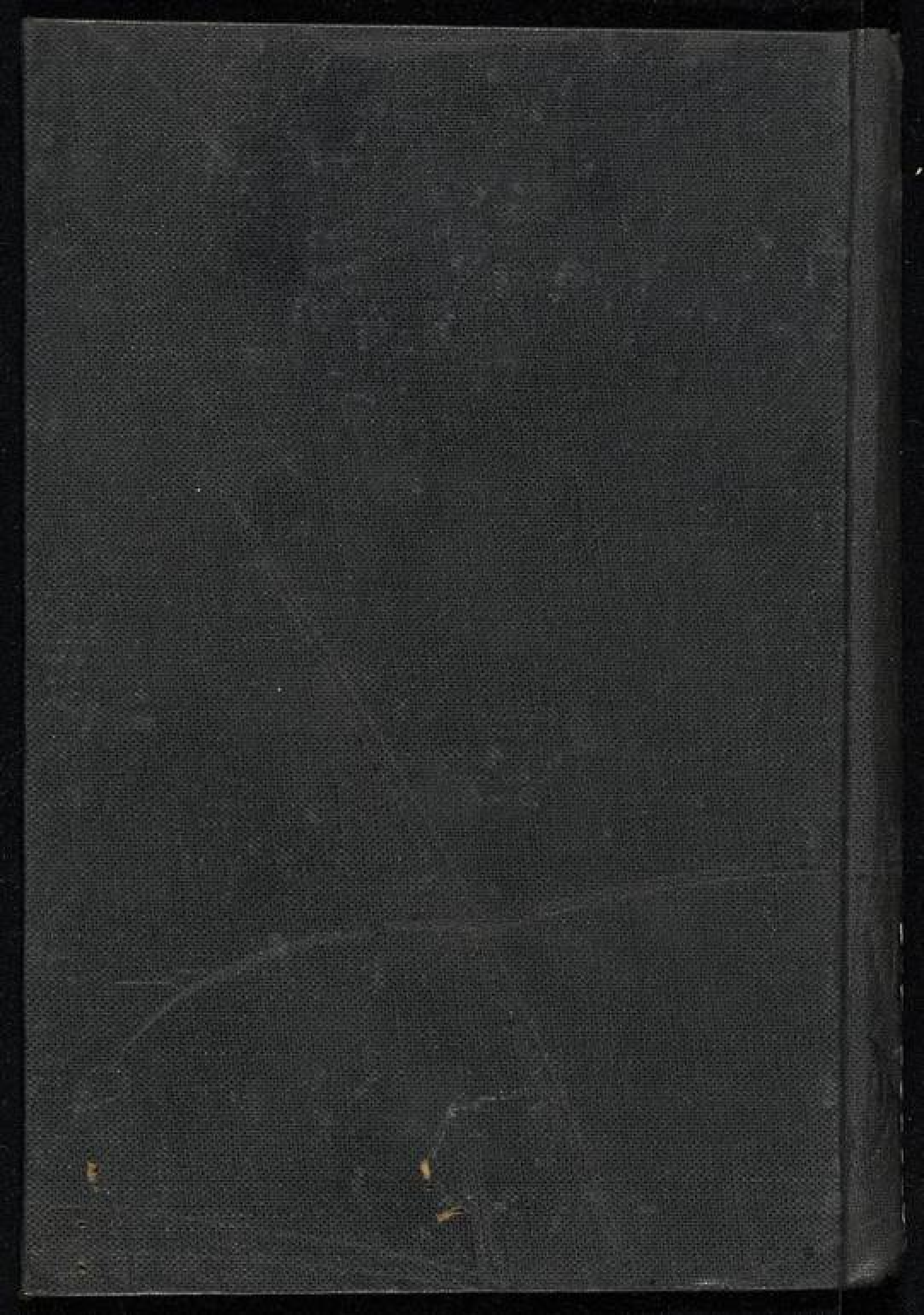
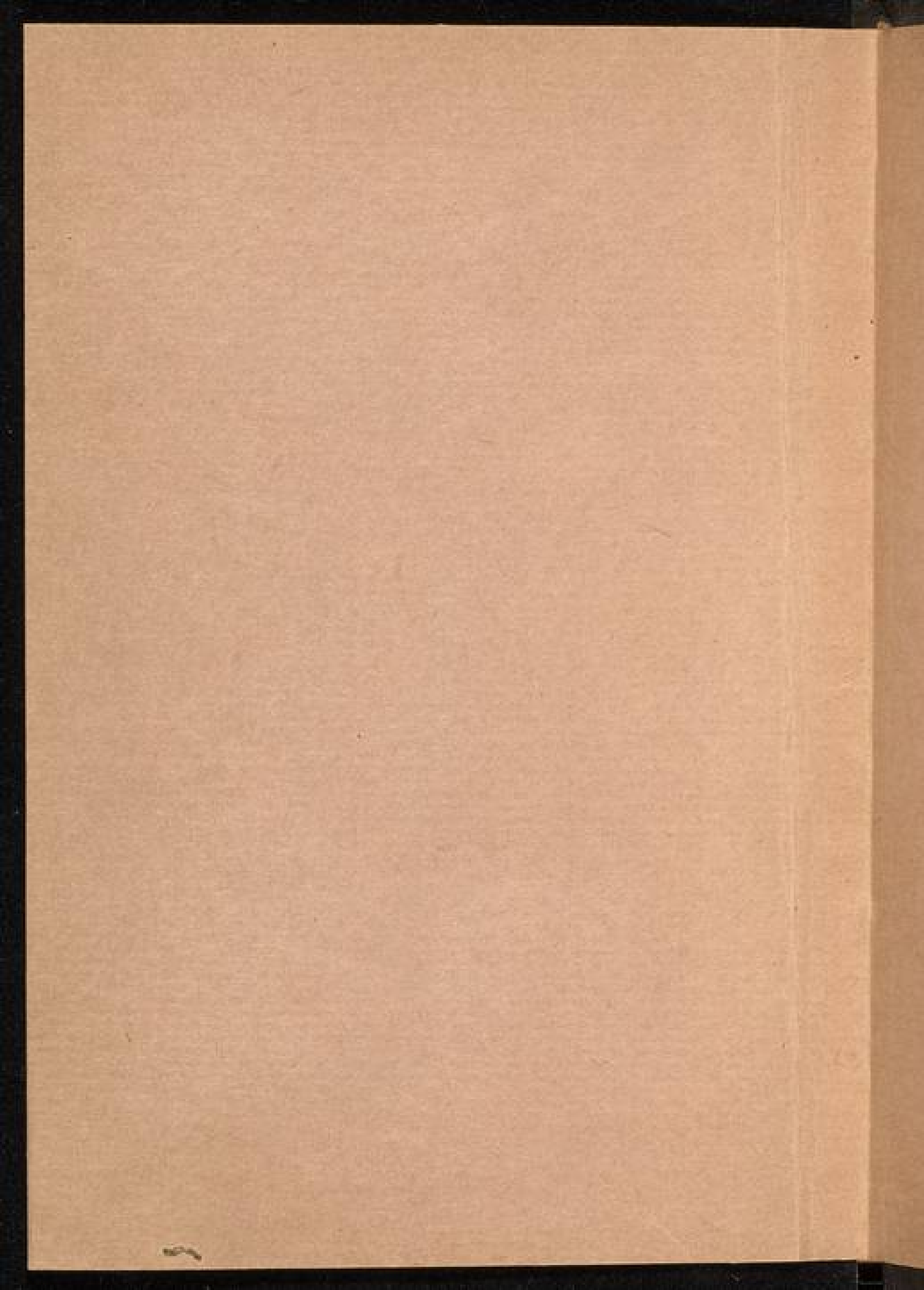
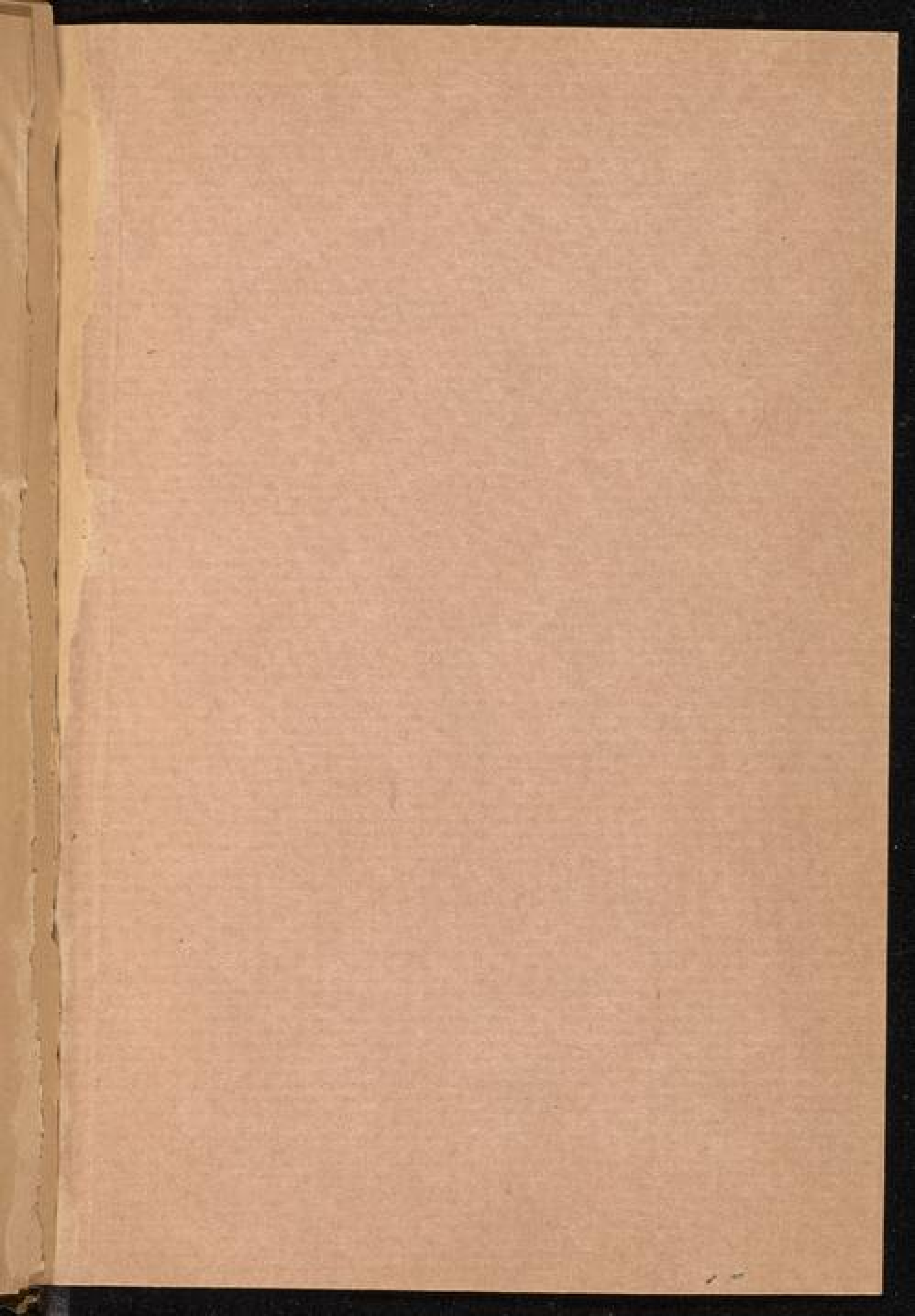






الدكتور ابراهيم جمعة

جامعة الأسكندرية

والنقل عنها وتأثر العقل العربى بعلومها



القاهرة ١٩٤٤

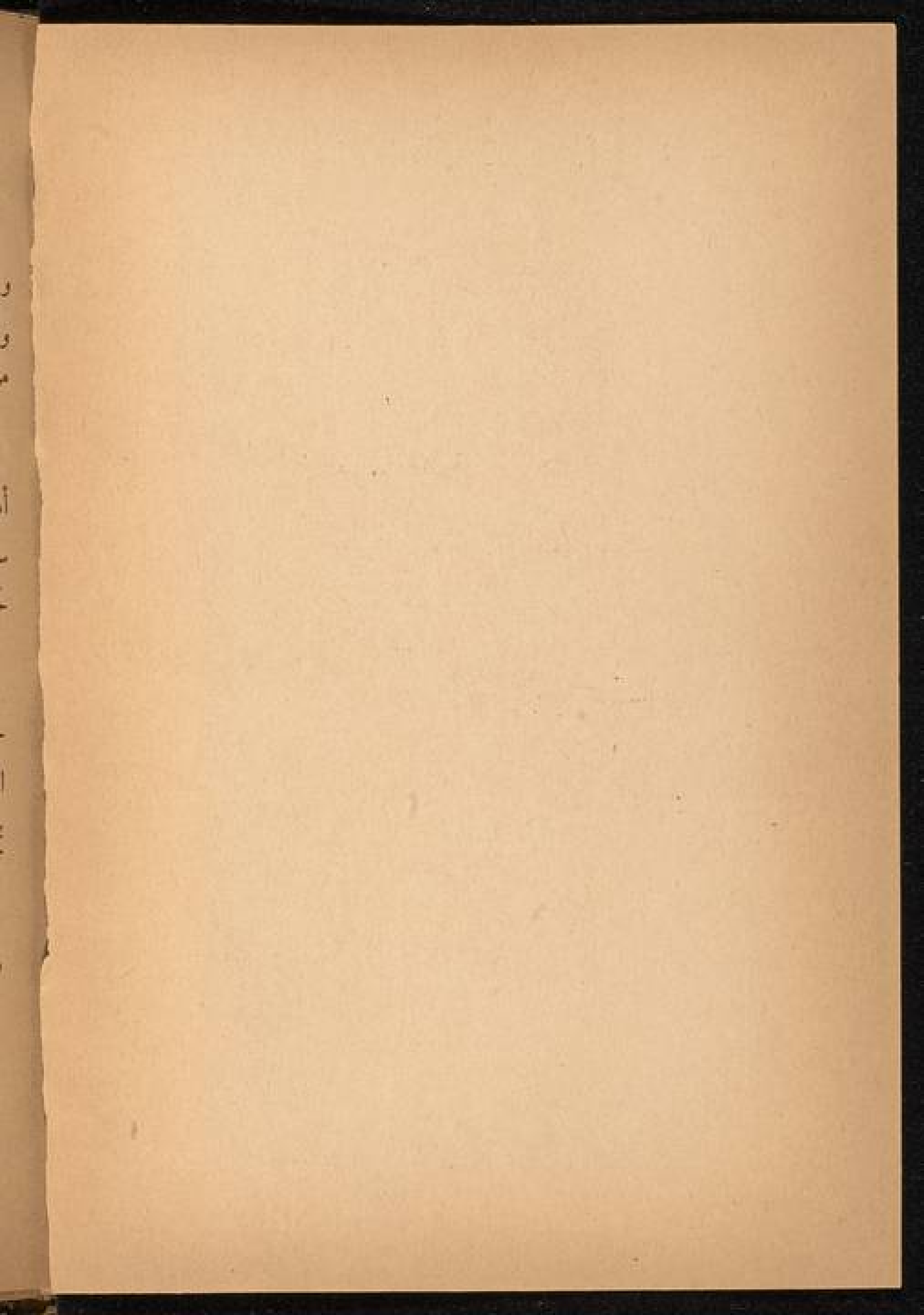
مطبعة كوستاتسوماس وشركاه

الى المدينة الخالدة

مدينة الفاروس والمتحف والمكتبة

مدينة الهداية والعلم والمعرفة

إلى الاسكندرية



تمهيد

المتحف الاسكندرى كجامعة

ظلت «أثينا» كعبة الفنون، ومستقر الثقافة زمنا طويلا قبل الميلاد وبعده، وبقيت مدارسها عامرة بالعلم والفلسفة حتى عام ٥٢٩ للميلاد، وقدّر بهذا لعاصمة اليونان أن تحمل لواء العلم فى العالم القديم اكثر من عشرة قرون .

* * *

وكان الأغارقة منذ زمن بعيد قبل ظهور «الاسكندر» ، قد أدركوا بلاد الشرق الأدنى مشتغلين بالتجارة ، أو منخرطين فى سلك جيوشه جنوداً مرتزقة ، أو مضطلعين ببعض الوظائف فى حكوماته ، أو حذاقا للفنون يمارسونها فى أنحائه مأجورين عليها .

* * *

وما أن سطع نجم مقدونيا ، وغزا «الاسكندر» بلاد الشرق القريب ، حتى أزمع الملك الفتى أن يحقق فيها تلك السياسة التى رسمها لتحضيرها ونشر الثقافة اليونانية بين ربوعها ، غير أن الملك الطموح عاجلته المنية قبل أن يجنى الثمرة التى بذر بذورها قوية مأمولة النماء فى أرض الهلال الخصيب.

* * *

وأنتج الغزو المقدونى نتائجه المرتجاة فى نواحى السياسة ، والعلم والأعراف واللغة والفنون — فتأثرت مواطن الحضارات القديمة تأثراً محسوساً بالنظم الهلينية، وبثقافة اليونان وعاداتهم وفنونهم، ولغتهم. ولم يضعف من شأن هذه المؤثرات ويحد من اطرادها ، إلا موت الملك الفتى ، وانقسام ملكه بين قواده .

وانعطف تيار الثقافة رغم ذلك نحو مصر ، وهدأ فيها واستكن فى

«الاسكندرية» — المدينة التى أسسها الاسكندر على حافة أرض الفراعنة، لتكون عاصمة لملكه المنشود ، ومستقراً للثقافة التى حمل لواءها فى البلاد المغزوة .

° ° °

وقدر لبطليموس ، صديق الاسكندر ، وأحد قواده العظام ، أن يحكم مصر مستقلا بها على نحو ما كان يحكمها الفراعنة . ولقد كان القائد الذى انتهت اليه مقاليد الأمور فى مصر ، مشبعاً مثل سيده بآراء «أرسطو» — لا يقل رغبة وحماساً عن الأسكندر فى بث الروح الهلينية والثقافة الاغريقية فى البلاد التى آلت مقاليدها اليه .

° ° °

وقد كان بطليموس ، فوق ما اتصف به من المقدرة الحربية ، عقلا راجحاً وفكراً منظماً ، يحب البحث العلمى ، كلفاً بآراء الفلاسفة اليونان، محباً للتاريخ ، مصنفاً فيه . ويعتبر «بطليموس الأول» المعروف باسم «بطليموس سوتر» أول مقرر لنظام «المنح العلمية» تشجيعاً للعلماء على البحث والانتاج . وهو متأثر فى هذا بما كان يراه من سيده الاسكندر ، من مد أستاذه «أرسطو» بالمال اللازم لموالاة أبحاثه وجهوده العلمية .

° ° °

لهذا أنشأ بطليموس الأول فى الأسكندرية ، بعد أن خلا من شواغل الحرب والسياسة ، مؤسسة علمية ، وهبها لآلهة الشعر (Muses) أطلق عليها مؤسسوها من اليونان اسم «الموسيون» Μουσεῖον بمعنى «المتحف» ، ومنه اشتق اسم «الميوزيوم» Museum و «الميوزيه» Museé ، بمعنى دار التحف أو دار الحكمة .(١)

(١) فى كلمة muse الانجليزية معانى التأمل والدراسة الصامتة وإعمال الفراغ

وهكذا كان المتحف الاسكندرى « أكاديمية » تشبه الأكاديميات الأثينية، زودها بطليموس الأول بنفر من خيرة الأساتذة اليونان، يذكر « بلوتارخ » أنه استدعاهم من بلادهم، وحبب إليهم الأقامة فى عاصمة ملكه، وقربهم منه. وبمعونة مستشاره « ديمتريوس الفاليرى » (١) استطاع « سوتر » أن ينشىء « الاكاديمية » الاسكندرية، وان يزودها بمكتبة كبرى.

* * *

وقد كان حرص « سوتر » على جعل الاسكندرية كعبة العلوم والفنون، لايقل عن حرصه على تركيز تجارة البحر الابيض المتوسط فيها — فمنذ أوائل القرن الثالث قبل الميلاد، أنشئت بالاسكندرية « أكاديمية » علمية أشبه شىء بالمحفل، يجتمع فيه العلماء يتجادلون ويتناظرون فى أروقته، وفى المكتبة الملحقة به، يشهد جدلهم، ويستمع اليه، العاهل الذى أسس الاكاديمية، ونفر من خاصة القوم، أغرم بالدراسة والبحث والمناظرة. ويذهب المؤرخ الألمانى « كليل » Klippel إلى أن المؤسسة العلمية التى قامت بالاسكندرية فى الحلقات الاولى من القرن الثالث قبل الميلاد، ليست فى جملتها وتفاصيلها إلا صورة من « الاكاديمية » الآثينية.

* * *

ويعتبر « سترابو » المكتبة التى أنشأها « ديمتريوس الفاليرى » لبطليموس الاول فى الاسكندرية، محاكاة ناجحة لمكتبة « أرسطو » اليونانية التى كانت تقوم على مقربة من « الليسيوم ». وعلى نحو ماجمع

(١) نسبة إلى فاليرون إحدى مدن اليونان الساحلية

«سوتر» لمؤسسته العلمية نخبة من علماء العصر وأدبائه وفلاسفته، كذلك استطاع أن يجمع لمكتبته الكبرى أثمن المخطوطات اليونانية وأندرها .

☼ ☼ ☼

ولم يعد ثمة شك ، بعد أن محصت آراء المؤرخين ، أن المؤسس الحقيقى للأكاديمية الاسكندرية والمكتبة الكبرى التى ألحقت بها ، هو «بطليموس الاول» ، وأن الفضل الأوفى فى انشائهما معا يرجع إلى الفيلسوف اليونانى « ديمتريوس فاليرون » الذى استدعاه بطليموس الاول من أثينا ، واتخذه مستشارا ثقافيا .

ويميل بعض المؤرخين المحدثين من أمثال «بطلر» Butler «وبرستد» Breasted « ومايرز » Myres إلى اعتبار « المتحف » الاسكندرى جامعة ، مالبثت أن أصبح لها مع الزمن كل عتاد الجامعات ونظامها وروحها واتجاها ، ومن ثم لانرى مايحول دون اطلاق كلمة« جامعة الاسكندرية » على المؤسسة العلمية التى أنشأها بطليموس الاول فى عاصمة ملكه ، والتى سماها مؤسسوها من اليونان باسم «الموسيون» ، وعرفها الانجليز والالمان باسم «الميوزيوم» ، واعتاد الفرنسيون أن يذكروها فى مؤلفاتهم باسم «مدرسة الاسكندرية» L'école d'Alexandrie والتى يطلق عليها أحيانا اسم «الاكاديمية» Académie ، لشدة شبهها بالاكاديمية الاثينية .

☼ ☼ ☼

كان «المتحف الاسكندى» فى حقيقة الامر جامعة ، تتكون من أروقة للدراسة وقاعات للبحث والمناظرة ، فضلا عن المكتبة الكبرى ، والحدائق

والحظائر الملحقة بالأبنية ، والمرصد المتاخم لهما . وكانت الحدائق والحظائر تحتوى الكثير من نماذج النبات والحيوان التى أفادت دراسة العلوم الطبيعية ودراسة الطب بالجامعة أعظم الفائدة وأجلها .

° ° °

وقدر للمتحف الاسكندى والمكتبة الملحقة به أن يبلغا أعظم شأن لهما فى عهد بطليموس الثانى (فيلادلف) ، ومن ثم وقع بعض المؤرخين فى الخطأ ، فذهب « يوزيب » Eusebius (٢٦٥/٣٤٠م) ومن نحا نحوه من المؤرخين ، إلى اعتباره المؤسس له ، وهو رأى لا نلبث أن نرجع إلى ما كتب « پلوتارخ » حتى نتبين خطأه .

° ° °

وتكاد تجمع المراجع التاريخية على أن مكان هذه المؤسسة العلمية والمكتبة الملحقة بها ، كان فى حى البروكيوم Brochium ، الحى الملكى فى المدينة ، على مقربة من قصور البطالمة ، والظاهر أنه كانت بالمتحف أروقة لسكن العلماء ، وليس ذلك عجيبا على كل حال ، فقد قيل أن ملوك البطالمة كانوا لشدة ميلهم إلى العلماء ، وتقريبهم لهم ، يسكنونهم معهم فى قصورهم الخاصة .

° ° °

واضطربت هذه المؤسسة العلمية بين القوة والضعف ، وكان ذلك مرهونا بقوة البطالمة أو ضعفهم من الوجهة السياسية . وهوت هويا شديدا عند ما زلت أقدام البطالمة ، وارتموا فى أحضان السياسة الرومانية ، منذ عهد بطليموس السابع (١٤٥/١١٦ ق.م.) . والحق أن فترة ازدهارها لم تطل كثيرا .

ويكاد يعين عصر بطليموس الخامس (٢٠٣/١٨١ ق.م) ، الحد الفاصل بين عصر القوة وعصر الضعف فيها ، كما يكاد يعين غزو «يوليوس قيصر» لمصر ، وتبعية البلاد للرومان (منذ ٤٨ ق . م) ، عصر انتقال العلم الاسكندرى من طوره اليونانى البحت ، إلى طوره اليونانى الرومانى .

* * *

أما أنتاج هذه المؤسسة فى عصورها المختلفة ، وأما نظامها وتطورها وعلماؤها وأبحاثهم ، فى الرياضـــة والفلك وعلوم الطبيعة والنبات والحيوان والطب والتشريح والجغرافيا وقواعد اللغة ونقد الآداب والخطابة والفلسفة وغير ذلك ، فأن القارىء يجد بعضه مطويا بين دفتى البحث ــ على النحو الذى قدر لجهد مؤلفه أن يصل اليه .

* * *

والحق أن فضل الاسكندرية على الحركة العلمية الانسانية واضح لا يجحد ، ويصعب أن يوفى الانسان هذه المدينة حقها من الناحية العلمية ، أو أن يلم إلماما تاما بنظام الجامعة التى نشأت فيها ، أو بالانتاج العلمى الذى صدر عنها ، لتقادم العهد على تلك الآثار العلمية ، وكثرة ما انتاب المدينة من العواصف السياسية والاضطرابات الدينية ــ ومهما يكن من الأمر ، فقد خلصت لنا طائفة من المعلومات ، أثبتناها فخورين معجبين بما كان لمدينتنا العظيمة من فضل على العلم الانسانى .

* * *

ومن أسف أن تؤدى أحداث الزمن ، كحريق الاسكندرية عند حصار قيصر لها سنة ٤٨ ق.م ، واصطدام المسيحية بالوثنية فى القرون الأولى بعد الميلاد ، ونزاعها معها ، ذلك النزاع الذى انتهى بتدمير معبد «السرابيوم» فى القرن الرابع الميلادى ، وانتصار المسيحية

على الوثنية انتصارا حاسما بهذا التدمير ، إلى زعزعة الحياة العلمية ، والقضاء عليها فى كثير من الأحيان. فلما أن تسنت لها الحياة ، الفينة بعد الفينة ، وسط ذلك الاضطراب الدينى ، ظهرت آثار أدبية وعلمية ، صدرت عن المدينة فى أوقات متباعدة ، وبدرجات متفاوتة بين قوة الانتاج وضعفه ، وتسمت هذه الحركات المتقطعة باسم « مدارس الاسكندرية » فى عصور ضعف الجامعة وانحلالها ، وزوال عتادها القديم ، بتدمير « السرابيوم » .

° ° °

وكانت أشهر المدارس التى صادفها انتجاع العرب للاسكندرية غداة الفتح، حوالى منتصف القرن السابع الميلادى ، مدرسة «طبية» أفاد منها السريان والعرب فائدة كبرى ، ونقل العرب فيما نقلوا عن الاسكندرية «فلسفة الاسكندرانيين» أو فلسفة «الشيخ اليونانى» أفلوطين ، كما نقلوا الجغرافية ، والفلك ، والكيمياء ، والرياضة ، وغيرها مما يرى مفصلا بعض التفصيل بين دفتى الكتاب .

° ° °

وأتيح للعرب بهذا النقل أن يكونوا حفظة على الثروة العلمية اليونانية ، وحلقة اتصال بين القديم والحديث . ونحن لا نجهل مدى ما أفادت أوربا من علوم الأقدمين ، بطريق العرب فى أسبانيا والشرق الأدنى . إذ بفضلهم عمرت دور الكتب فى كل مكان بنفائس المخطوطات القديمة ، وأتيح للأوربيين النقل عنها فى الوقت المناسب إلى اللغة اللاتينية أول الأمر ، ثم إلى غيرها من اللغات الأوربية بعد ذلك .

القاهرة فى سبتمبر ١٩٤٤ **المؤلف**

القسم الأول

الجامعة

الباب الأول

الحضارة الهلينية فى الاسكندرية(١)

وتأسيس المتحف الاسكندرى

الفصل الأول

حلم كبير يتحقق

استدعى « فليب » ملك مقدونية « أرسطو » ، المعلم الاول ، ليكون أستاذاً لابنه ووارث ملكه « الاسكندر » . وكان الاسكندر حينئذ لم يجاوز عامه الثالث عشر ، فرشف الامير الصغير من هذا المنهل الصافى ، وأحب من بين مالقن أغانى « هومر » وغيره من رواة الاعمال المجيدة لابطال اليونان القدماء .

---

(١) « الهلينية » نسبة الى « هلن » Hellen احدى قبائل « تساليا » من مقاطعات بلاد اليونان . كان زعيمها يدعى (هلن) ، عاش فى القرن السادس قبل الميلاد — ولم يلبث لشهرته أن عم استعمال اسمه ، حتى أصبح علماً على جميع الأغريق ، فالهلينيون على ذلك هم الأغريق ؛ والحضارة الهلينية هى الحضارة الأغريقية . « والهلينزم » اصلاح غامض . ويقصد به عندما يطلق ، جميع مظاهر الثقافة الأغريقية من عهد الاسكندر حتى نهاية العصر التاريخى القديم فى أوربا .

ومنذ بداية القرن السادس ق.م . كانت « الثقافة الهلينية » قد أخذت تقوى وتغزو الحضارات القديمة التى قبل بعضها حضارة الهلينيين ، وقاوم بعضها الآخر (كما حدث فى مصر وبلاد النهرين) ، وكان تأثيرها قويا ظاهرا بصفة خاصة فى الشعوب غير المتحضرة التى كانت تسكن فيما بين أسبانيا وبلاد القوقاز .

وسرت روح « الهلينزم » هذه فى جميع المدن التى خضعت للأغريق خضوعا سياسيا =

وشغف الفتى بروائع الادب اليونانى ، وغزت أعمال الابطال قلبه ، وأشعلت خياله ، وبعثت فيه روحاً وخلقاً يمتان إلى البطولة بأقوى الاسباب ، ذلك أنه ولد ليكون بطلا — لا كأبطال الاقاصيص ، خلقهم الرواة من كتاب اليونان وشعرائهم خلقاً فكرياً لا وجود له فى عالم الحقيقة ، وإنما ولد — ليكون بطلا حقاً . خلف أباه على عرش مقدونيا ولم يجاوز العشرين من عمره (٣٣٦ ق . م) ، وورث فيما ورث من مشاكل أبيه عداء المدن اليونانية المناهضة لمقدونيا وعداء الفرس فى وقت معا ، وما زال بالمدن اليونانية حتى أهلك « طيبة » ، لم يدع منها قائماً غير بيت الشاعر « پندار » . وأرغم بقية المدن على الاعتراف بزعامته ، إلا « اسپرطة » العنيدة المكابرة ، فقد ظلت بعيدة عن محالفته أو مهادنته .

٭٭٭

وبهذا أمن الاسكندر جانب اليونانيين ، وأصبح بطل الهلينيين غير منازع ، اللهم إلا من اسپرطة ، وكانت بما وهبها الله من طبيعة جبلية ، وما نشأ عليه أبناؤها من خشونة فى العيش ، وغلظة فى الطباع ، تتخذ لنفسها بين مدن اليونان طابعاً خاصاً . وانصرف الاسكندر بعد ذلك يعد العدة لمنازلة الفرس ، وأمدته المدن اليونانية بفصائل

= وجاوزت هذه بتأثيرها القوى إلى جهات أخرى فى القرن الخامس قبل الميلاد وبلغت « الثقافة الهلينية » أكبر شأن لها فى أثر غزوات الاسكندر المقدونى . وأدركت بفضل فتوحاته مصر وبلاد النهرين وإيران والهند ، وتركت فى هذه الجهات آثاراً واضحة .

من الجنود ، انضمت إلى جيشه المقدونى ، فتكونت من جموعهم جبهة قوية ، تشتعل حماسة للقضية الهلينية ضد الفرس .

وخرج الاسكندر فى جيشه الكبير إلى آسيا الصغرى، فبلغ سهول «طروادة»، وعسكرت جنوده حيث عسكر أبطال الأقاصيص الهومرية من قبل ، كان الاسكندر قد ضرع إلى الآلهة فى معبد «أثنا» أن ينصروا قضيته على الفرس الذين اغتصبوا قديماً مدن آسيا الصغرى من اليونان .

والتقى الاسكندر بالفرس فى موقعة « غرانيق » ، على النهر المسمى بهذا الاسم فى آسيا الصغرى ، وأبلى بنفسه فى الموقعة بلاء حسناً ، وانتهت المعركة بفوز عظيم للأغريق على الفرس ، واسترد مدن آسيا الصغرى من أيدى هؤلاء واحدة فواحدة ، وخلصها جميعاً من النير الفارسى .

٭٭٭

وكانت للاسكندر آمال لم تكن لأبيه ، فقد كان يطمع فى أقصاء الفرس عن آسيا الصغرى ، ويطمع فوق ذلك فى غزوهم فى بلادهم ، وفى جعل بلادهم هذه جزءاً من أمبراطورية أغريقية واسعة النطاق تضم آسيا الصغرى وفينيقية ومصر وبلاد فارس حتى تخوم الهند ، وأن يجعل فوق ذلك كله من البحر الأبيض المتوسط «بحيرة أغريقية».

ولم يكن الاسكندر ليشك مطلقاً فى امكان تحقيق هـــذا الحلم الكبير ، لأن نفسه كانت أكبر . وقد حمل فيما حمل من الامانى العذاب ، أن يجعل العالم الجديد الذى اعتزم فتحه وتكوينه «هلينياً» فى نظمه وصبغته وثقافته .

وسقطت موانىء فينيقية الواحدة بعد الاخرى فى يد الاسكندر، وانفسح الطريق إلى مصر ، وكانت فى أواخر خضوعها للحكم الفارسى من الضعف بحيث لم يكلف فتحها الاسكندر عناء يذكر ، فأسلمت القياد بعد فينيقية للفاتح الجديد ، وأصبح البحر الابيض الشرقى فى قبضته . وباستيلاء الاسكندر على سواحل فينيقية ، انقطعت الصلة بين الاسطول الفارسى فى البحر الابيض ، والاملاك الفارسية فى الداخل ، فكان ذلك بمثابة هزيمة ثانية للفرس ، بعد هزيمتهم النكراء فى موقعة غرانيق .

وعاد الاسكندر أدراجه من مصر إلى حيث يمكنه أن يقضى القضاء المبرم على الدولة الفارسية ، فيمم شطر آسيا يبغى لقاء العدو، وسار حتى انتهى إلى خرائب «نينوى» ، حيث وقعت واقعة «إربل» الفاصلة ، وفيها هزم الفرس هزيمة منكرة ، نتيجة جهلهم الفاضح بما كان قد وصل اليه المقدونيون من التقدم فى فنون الحرب . وفر فى أعقاب الموقعة « دارا » ملك الفرس ، وقتل وهو يولى الأدبار بيد بعض الخونة من أتباعه .

وهكذا انكشف الطريق إلى بلاد فارس ذاتها ، فغزا الاسكندر الفرس فى صميم بلادهم ، وأحرق عرش عاهل الفرس انتقاماً لما كان قد اقترفه هؤلاء من حرق مدينة «ميليطيا» اليونانية فى آسيا الصغرى ، ومعابد «الاكروپول» فى أثينا . ولم يكن الاسكندر يقصد بهذا سوى اعلان مقدرته على الانتقام من العدو، فلم يكد يرى النيران يدب دبيبها فى ملك الاكاسرة ، حتى أمر بوقف الحريق، قبل أن تستفحل خسائره.

وبلغ الاسكندر بعد ذلك حدود الهند ، وعاد أدراجه إلى بابل التى كان قد اعتزم جعلها مركزاً متوسطاً للأشراف على امبراطوريته المترامية الاطراف . وحمل الأسكندر إلى البلاد المفتوحة روحاً وثقافة يونانيتين ، وأنشأ المدن على النمط الاغريقى حيثما استقر ، وأطلق عليها اسمه الكبير . ومن هنا وجد الفن الاغريقى سبيله إلى آسيا الفارسية ، ودرج منها إلى الهند والصين ، فترك آثاراً له ماتزال ملحوظة فى فنون تلك البلاد حتى الوقت الحاضر .

***

اقترنت فتوح الاسكندر بفكرة معنوية إلى جانب فكرة الفتح المادية . ذلك أنه قصد فيما قصد إلى نشر العلم اليونانى وبث روحه فى البحث ، فأرسل وهو بمصر حملة إلى أعالى النيل تتعرف أسباب زيادته كل عام ، وبعث بأخرى إلى سواحل بحر « الخزر » لتبنى أسطولا تجوس به خلاله ، وتكشف الاجزاء الشمالية منه . وساعده على تحقيق الاغراض العلمية ذلك العدد الوفير من علماء النبات الذين استصحبهم معه من بلاد الأغريق ، وبمعونة هؤلاء ، أرسل الاسكندر مجموعة ثمينة من أنواع النبات التى صادفها علماء هذه الحملة إلى استاذه « أرسطو » الذى كان يعلم فى الأكاديمية الأثينية إذ ذاك .

وقد كانت خطة الاسكندر فى جعل العالم الجديد الذى فتحه « أغريقيا » ، واضحة كل الوضوح ، ولم يدخر وسعاً فى العمل على تحقيق هذه الغاية ، فصاهر الأسرة الفارسية الحاكمة ، وحمل ضباط جيشه على الزواج من فارسيات ، وأوجد بهذا نسلا جديداً

دان بدين الاسكندر ، وهو دين حضارة جديدة ، مزجت بين العنصرين اليونانى والشرقى . وقد كان فى ذلك أكبر تحقيق لأحلام الملك الشاب ، بعد رغبته الملحة فى الانتقام من الفرس ، وتكوين امبراطورية واسعة على أنقاض ملكهم العتيد .

° ° °

وتم للاسكندر ما أراد من قضاء على عزة الفرس باستيلائه على « سوسه » عاصمة دارا ، وانتهى اليه أمر الدولة التى طالما دوخت الأغريق . واستقر به الرأى آخر الأمر أن يتزل مدينة « بابل » السامية ، فيجعل منها مقراً لحكم البلاد المفتوحة ، بسبب توسط موقعها بين آسيا الصغرى وهضبة ايران ومصر . ولعله رأى أنها لهذا التوسط نفسه ، قد تصلح مكاناً لادماج الغرب الأغريق بالشرق ، وتكوين الحضارة الجديدة التى شغلت باله ، تلك الحضارة التى أساسها وقوامها العنصر الهلينى — لأنه كان يؤمن الايمان الوثيق بتفوق الحضارة الهلينية على ما عداها من الحضارات المعاصرة لها .

ولما فرغ الاسكندر من أمر الفرس ، عاد فوجه همه نحو الغرب ، يريد هذه المرة أن يطوق البحر الأبيض الغربى بسيادته .

° ° °

ويقال أنه قد داخل الاسكندر ، بعد تلك الانتصارات الحاسمة التى أحرزها فى كل مكان ، شىء غير قليل من الغرور والنزعة « الأوتوقراطية » المقرونة بفكرة الحق الالهى المقدس . وكانت نظرية « الحق الالهى » معروفة فى الشرق ، وفى مصر خاصة ، منذ كان الملوك فيها آلهة هبطت إلى الأرض ، ثم أبناء للآلهة فيما بعد ، كما كانت النظرية معروفة

فى بلاد الاغريق ذاتها — فما ارتفع شأن أغريقى إلى مثل ما ارتفع اليه شأن الاسكندر الأكبر ، إلا وأصبح بين قومه فى عداد الآلهة .

وما كاد الاسكندر ، بعد أن أحرز انتصاراته الباهرة ، يلتفت إلى الغرب ، لينجز فيه مثلما انجز فى الشرق ، حتى تكشفت له مؤامرة خبيثة ، دبرها له صفوة من أصدقائه الذين أكل الحقد قلوبهم ، بسبب ما كان يتأجج فى نفوسهم من نيران الغيرة ، لأن العاهل العظيم لم تكن أطماعه لتقف عند حد ، ولأن شخصه علا فى نظرهم ، وبلغ من السمو والتدانى من مرتبة الآلهة حداً لا يطاق ! ولكن الاسكندر لم يتردد لحظة فى القضاء على المتآمرين ، ومنهم أعز أصدقائه وأخلصهم «كليتس» الذى انقذ حياته فى موقعة «غرانيق» ، حين كان قاب قوسين أو أدنى من الموت . وقضى فى أثر كليتس «هيفستيون» ، أقرب أصدقاء الاسكندر إلى نفسه ، فحزن عليه حزناً أثر فى بناء جسمه فأضناه .

وبينما الاسكندر يتأهب لاخضاع شبه الجزيرة العربية ، ليتفرغ بعد ذلك لانجاز مشروعه الكبير فى الغرب ، عاجلته المنية فى بابل عام ٣٢٣ ق . م . ، فى سن الثالثة والثلاثين .

***

حقق الاسكندر الأكبر للاغريق تفوقاً سياسياً عظيماً ، وكان موته حادثاً تاريخياً كبير الأثر فى عالم السياسة فى ذلك الوقت ، إذ قدر للعالم الجديد الذى كونه أن تتقطع أوصاله ، كما كان فى الوقت نفسه حادثاً تاريخياً سيء الأثر فى عالم المدنية ، حيث لم يقدر للفكرة الجليلة التى ملأت نفس الرجل أن تتحقق على النحو الذى أراده لها ،

ـ وهى فكرة ادماج الشرق بالغرب عن طريق روحى .

° ° °

وتنازع قواد الاسكندر بعد موته « فى بابل » تنازعا لم يمكن معه لأحدهم أن يتم مشروع الرجل العظيم، لأنهم كانوا جميعا دونه مقدرة على الاضطلاع بمثل أعبائه الجسيمة ، وانتهى نزاعهم إلى النتيجة المحتومة ـ إلى تقسيم ملكه ، وكانت مصر من نصيب «بطليموس» أحد قواد الاسكندر المهرة .

° ° °

واستقل «بطليموس» بمصر ، وكون بها أسرة أغريقية الأصل ، « تمصرت » تدريجا ، وحكمت مصر على غرار حكم الفراعنة ، وتمتعت بكثير مما كان لهؤلاء من بأس وسلطان .

ووجد بطليموس الأول بادىء الأمر ضرورة إلى الاستعانة بحامية اغريقية ، وابتنى لدولته الناشئة أسطولا فى البحر المتوسط ، وحكم مصر من الاسكندرية ، المدينة التى أسسها الاسكندر عام ٣٣٢ قبل الميلاد .

° ° °

وليس يعنينا هنا كثيراً أن نتابع كيف حكم البطالمة هذه البلاد حكما سياسيا، بقدر ما يعنينا أن نتابع كيف كان لذلك الوجود السياسى الذى أحدثه غزو الاسكندر فى مصر أثره على وجوه المدنية والثقافة ، وكيف نهضت الاسكندرية ، مدينتنا العظيمة ، بأعباء العلم والثقافة حينا من الدهر ، أدت فيه رسالتها أمينة مخلصة للعلم والمدنية .

الفصــــل الثانى

خطة الاسكندر

الحضارة الهلينية والحضارة المصرية - حكم الامبراطورية الجديدة من مصر - إنشاء الاسكندرية - لم تكن للتجارة أول الأمر - تأثير إنشائها على كانوب والفرما - هل كان لانشائها تأثير ما على أهمية صور ؟ - الاسكندر وأغريق نقراطس - متى أصبح للمدينة شأنها التجارى - التعــاون المصرى الأغريقى وأثره فى نمو المدينة - البطالمة وإعلاء شأن المدينة .

كان الاسكندر مشبعا بالروح الاغريقية ، شغوفا بها فى كل مظهر من مظاهرها ، فقد أحب منذ كان فتى أساطير الاغريق وأدابهم ، ومجّد أبطال « هلاّ » وود لو كان بطلا مثلهم ، ودرس آدابهم وعلومهم على خير أستاذ جاد به الزمن — على أرسطو ، المعلم الاول. وتغلغلت فى نفسه عقيدة لم ير إلى الحيدة عنها من سبيل، تلك العقيدة هى تفوق المدنية الاغريقية على ما سواها من المدنيات المعاصرة لها . ولازمته هذه العقيدة يافعا ، فكان لها فى نفسه تشكل خاص ، دفعه إلى الرغبة فى نشر المدنية الاغريقية فى البلاد التى قدر له أن يغزوها . وقد كان هذا العمل الخطير ملازما لكل فتوحاته الحربية ، فأنى استقر به المقام ، أسس حكومة على النمط اليونانى ، وأطلق العلماء المرافقين له يدرسون ويبحثون ، ويضيفون إلى حقائق العلم إضافات جديدة . وكان يبغى أن يجعل « بابل » مقرا لحكم مملكته ، إلا أن توسعه فى الفتح ناحية الغرب ، وميله إلى مد فتوحه

غربا حتى سواحل المحيط الأطلسى ، جعله يعدل عن حكم الدولة من بابل ، ولذا فقد رأى أن يحكمها من « مصر » ذات الحضارة القديمة .

ولم يكن بد حين تصطدم حضارة بحضارة ، من أن تنهزم واحدة أمام الأخرى . والمعروف أن المصريين رحبوا بالاسكندر خلاصا من طغيان الحكم الفارسى ، الذى ضاقوا به ذرعا ، وودوا لو ارتفع عنهم نيره ، وتنسموا نسيم الحرية على يد فاتح آخر يكون أقرب إلى نفوسهم ، أو أقل ظلما . ذلك ما حدا بهم — رغم ما امتاز به المصريون القدماء من كراهية للأجنبي وحكمه ، إلى الترحيب بالاسكندر .

* * *

على أنه لم يكن من الهين إخضاع الشعب المصرى ، فان كانت المقادير قد جرت بخضوعه لقاهر ، فليس معنى ذلك أنه استسلم ورضى ، وذلك راجع إلى ما بثته فى نفوسهم الديانة المصرية القديمة التى تدعو إلى مجد تالد ، ليس من شأنه قبول الذل والاستسلام .

ولم يكن لفاتح أن ينتصر إلا إذا استلان رجال الدين ، وهم عنصر عنيد صعب القياد ، وسنرى ماذا فعل الاسكندر برجال الدين .

* * *

وكان الجيش المصرى يتكون ابان الفتح المقدونى من عنصرين : عنصر وطنى ، وعنصر مرتزق . وكانت العداوة بين هذين العنصرين مستحكمة الأواصر : وبلغ الحقد منتهاه بينهما فى زمن الفتح ، حين رغب الوطنيون فى حماية الملك ، وشددوا فى حراسة قصره . أما

سواد الناس ، فلم يكن لهم من مطمع أكثر من رغبتهم فى التحرر من السخرة ، والتمتع ببعض الحرية التى كانوا قد سلبوها طوال الحكم الفارسى .

ذلك اجمال ظاهر الدلالة على أن الوطنية المصرية لم تقبل الخضوع للفاتح الجديد ، إلا خلاصا من ظلم الفرس ، واستسلاما مؤقتا لظروف العالم السياسية التى غير «الاسكندر الأكبر» من معالمها وبدل بفتوحاته العظيمة .

حقق الاسكندر من سيادته على الفرس ما مكنت له قوته الحربية القاهرة ، ودانت له بلاد ما بين النهرين ، واتجه بعد ذلك غربا يريد أن يبسط سلطانه على مصر وما يليها من سواحل القارة الافريقية الشمالية، وغزا فى طريقه إلى الغرب المدن السورية، فسقطت الواحدة تلو الأخرى ، وكان قد استولى فيما استولى وهو سائر لفتح مصر على «صور» سيدة «الليفانت» بعد أن صمد لها طويلا ، لأنها كانت منيعة التحصين برا وبحرا ، ولا غرو فقد كان أسطولها الضخم يحميها من ناحية البحر ويبث فيها الحماس والثقة بمناعة مركزها . ولكن سرعان ما انقلب الحماس فتورا ، ودب الفزع فى نفوس الصوريين، فأسلموا المدينة للفاتح الظافر .

وبهذا التسليم انعقد لواء السيادة البحرية للاسكندر ، فتابع سيره ، سيد البر والبحر معا إلى غزة ، فمصر .

وفى مصر لم يلق الفاتح عناء يذكر ، واستقبله رجال الدين على أبواب

الفرما «بلوزيوم»، ورافقوه إلى «منف»، حيث أظهر عطفه الشديد على الديانة المصرية وقدم القرابين للعجل «أبيس» وغيره من آلهة المصريين فى حفل موسيقى اغريقى المظهر.

وفتح الكهنة صدورهم للاسكندر، أما اليهود فدلوه على موارد المال، وكان فى أشد الحاجة اليه بعد جهاده الطويل.

وكان الاسكندر قد صادق اليهود، واتخذهم عوناله مذ كان مايزال فى فلسطين، وذلك لسعة خبرتهم بالعالم، بسبب كثرة تجوالهم فيه، وهم الذين دلوه على معالم الطريق بين فلسطين ومصر؛ ومعظم الظن أنهم قاموا بدور السفارة بينه وبين المصريين، وهم الذين أدخلوا فى روع المصريين أن الاسكندر لا يقصد بهم سوءا، وانما هو موالهم ومصاحب، يعطف العطف كله على من لا يعصى له أمرا.

ولما أصبح له أمر البلاد، نصب عليها حاكمين، أحدهما يحكم مصر العليا والثانى يحكم الدلتا، وأقام حول شخصه حرسا من الأغارقة، وقرب اليه صفوة منهم، أخصهم «كليومنيس» الذى يقال أنه نصح للاسكندر ببناء الاسكندرية.

⁂

وهادن الاسكندر كهنة منف، وأظهر خضوعه وولاءه للاله (آمون)، وارتحل الى واحة «سيوه»، وكانت قد سبقته اليها كتيبة من الجند، أرسلها كهنة آمون لتكون فى استقباله هناك.

وسلك الاسكندر إلى سيوه طريق الشمال، ومر فى سيره اليها «بنقراطس» فى غرب الدلتا، وكانت بها جالية اغريقية على رأسها

« كليومنيس » ، وقد نصبه الاسكندر على مالية البلاد ثقة به ، واعتزازا بأبناء جلدته .

ويذكر « چستين » أن كليومنيس هذا كان أحد مهندسي الاسكندرية ، اشترك مع زميله « دينوقراتيس » في تخطيط المدينة ووضع أساسها بعد أن أشار على العاهل الكبير باتخاذ مدينة جديدة .

وقد صارح الاسكندر أهل « نقراطس » من الاغريق بخطته التي اعتزمها ، فأعلن لهم أنه سوف يجعل ملكه هليني الصبغة ، ولم يتوان منذ أعلن عزمه هذا عن العمل على تنفيذه ، فخطط المدينة العظيمة ، ومنحها اسمه الضخم ، وخلع عليها كل ما من شأنه أن يركز فيها الحضارة الهلينية ، ويجعل منها مقرا لحكم الامبراطورية بعد تمام إنشائها .

وربما سأل سائل لمَ لمْ يجعل الاسكندر « نقراطس » الاغريقية الصبغة نواة لمشروعه الكبير ؟ والجواب على ذلك سهل هين ، فقد وجدها الاسكندر على حال من التداعي والعزلة ، جعله يحجم عن التفكير فيها . أضف إلى ذلك أنه وجد الاتصال بينها وبين العاصمة الجديدة التي آثر إنشاءها سهلا بطريق الماء ، حيث كان هناك طريق مائي يصل ما بينها وبين بحيرة مريوط فرضة الاسكندرية الخلفية ، هو فرع النيل الكانوبي — وبهذا ضمن الاسكندر أن تكون نقراطس عضدا له عند الشدة .

وانتفع تجار « نقراطس » أيما انتفاع بالمدينة البحرية الجديدة ، ويرى « ملن » Milne أن حسن اختيار موقع الاسكندرية لا يرجع إلى سلامة تقدير الاسكندر ، بقدر ما هو راجع إلى قربها من نقراطس .

ولم يكن لانشاء هذا الثغر تأثير على الموانى المصرية الأخرى مثل الفرما وغيرها من موانى مصر الشرقية، بسبب قرب هذه من موانى الشام — ولذا فقد ظلت هذه طوال حكم البطالمة عامرة بالمتاجر السورية.

ooo

والحق أن الاسكندرية استلبت مكانة «كانوب» لقربها منها، ولئن كان المصريون قد تحولوا عن كانوب تحولا تدريجيا، فأنهم لم يهجروها إلى الثغر الجديد بالسرعة التى قد تخطر بالبال، وذلك لأن العداوة بين العنصرين المصرى والاغريق ظلت مريرة محتدمة فى غضون الفتح وبعده، إلى أن رأى الأغارقة ضرورة ملحة إلى التنازل عما كانوا قد رسموه لأنفسهم من خطة التعالى على العنصر المصرى، وحين وجدوا إلا مفر من اشراك هذا العنصر اشراكا اقتصاديا فعالا فى حياة المدينة الجديدة. عندئذ فقط، بدأ المصريون يتحولون عن كانوب إلى الاسكندرية، وبدأت قيمة كانوب تنحط كميناء ساحلى، وأخذت الاسكندرية تضطرد نموا بعد هذا التحول، وأمكن أن تصبح ثغرا تجاريا، بعد أن كانت مجرد منتجع للعنصر الاغريق، ومقرا أمينا لسياسته.

ooo

ومما يدعو إلى شىء غير قليل من التأمل والتفكير، ما فعل الاسكندر بصور من ثغور فينيقية — فهل كان ما أنزله بها من ثل عرشها التجارى مقصودا به إهداء تاج السيادة البحرية لمدينته الجديدة؟

لا شك أنه كان يطمع منذ أول الأمر فى سيادة البحر الأبيض، ولم يكن ممكناً أن يتحقق له ذلك إلا بالقضاء على «صور» و «الأسطول الصورى» ، وهو غرض حربى سياسى لا علاقة له بالتجارة .

والناظر فى الترتيب الزمنى للحوادث يرى أنه حين استولى على صور، لم يكن قد فكر بعد فى تأسيس مدينة الاسكندرية — فليس معقولا والحال كذلك، أن يكون قد أزال عظمة « صور » التجارية ليزجيها ، إلى مدينته الجديدة .

قضى الاسكندر على « صور » قبل أن يفتح مصر ، والمعروف أن فكرة تأسيس الاسكندرية جاءت عفو الخاطر ، وهى من اقتراح « كليو منيس » على ما يقرر «ميلر» Müller ، أما ما توفر للمدينة الجديدة من المكانة التجارية فقد جاء لها بحكم الطفرة التى هيأها لها حكامها من البطالمة — وكان ذلك بعد أن قضى الاسكندر ، وانقضت دولته .

الفصـــل الثالث

تأسيس المدينة

اختيار الموقع ـ راقوده القرية الساحلية نواة الاسكندرية ـ تخطيط المدينة الجديدة وأشهر أحيائها ـ البروكيوم ـ اينوستوس الميناء التجاري ـ راقودة الحي الوطني ، را كوتيس ، ـ الحي اليهودي ـ أحياء اللهو والمجانة ـ فرضة الاسكندرية الخلفية على بحيرة مريوط ـ معبد السرابيس ـ الفاروس ـ الجمنازيوم . . . الخ

اختار الاسكندر لمدينته الجديدة مكانا في الشمال الغربي من دلتا النيل ، بعيدا بعض البعد عن الاتصال بداخلية البلاد ، لتكون في مأمن من المصريين إذا تنكروا للفتح الاغريقي يوما من الأيام . وقد توخى أن تكون بهذا الابتعاد عن الدلتا قاعدة حربية سهلة الاتصال ببلاد اليونان بحرا ، وبمصر برا ، وأن يكون ما هنالك من صعوبه الاتصال بين داخلية البلاد المصرية وبينها نوعاً من أنواع الحماية للمدينة الجديدة .

ويرى بعض المؤرخين أنه لوحظ في إنشاء الاسكندرية من أول الأمر أن تؤدي مهمة تجارية إلى جانب مهمتها كقاعدة سياسية وحربية . وفي هذا الصدد يقول « رانكه » Ranke أنها كانت أعظم مدن العالم حركة تجارية بعد « پيرية » ميناء أثينا .

هذا وقد دلت أحداث الزمن على حكمة سامية في اختيار هذا الموقع ، ولا غرابة فقد كان الاسكندر صائب الفكر بعيد النظر ،

رأى فى هذا الموضع خير مكان لانشاء مدينة واستقرار مدنية .

* * *

ويجمل بنا أن نلم بشيء عن تخطيط المدينة فى أول إنشائها :

كانت تقوم فى موضع الاسكندرية قبل غزو الاسكندر قرية مصرية ساحلية ، يسكنها عدد ليس بالقليل من الصيادين ، وكانت تعرف هذه القرية باسم « راقوده » . وليس هنالك من شك فى أنها كانت قرية مصرية بحتة كغيرها من قرى شمال الدلتا الساحلية ، لم تكن تبعث ضآلة شأنها على أى نوع من أنواع الاتصال بموانى البحر الأبيض المتوسط ، لا سيما وأن سكانها من الصيادين لم يكونوا يملكون غير قوارب صغيرة للصيد ، لا تقوى على التوغل فى قلب البحر . وهكذا لم يكن لراقودة ، ولا لغيرها من قرى الساحل الشمالى لمصر أى اتصال تجارى أو غير تجارى بالعالم الخارجى قبل الغزو المقدونى .

ومن هنا ندرك مقدار التحول فى تاريخ هذه القرية التى قفزت فجأة إلى الوجود كثغر هام من ثغور البحر الأبيض قبل ميلاد المسيح بقرون ثلاثة تقريباً

اندمجت «راقوده» فى التخطيط الجديد ، وأصبحت الحى الوطنى فى مدينة الاسكندر الناشئة إلى جانب الأحياء الاغريقية واليهودية . واحتفظت راقوده الحى الوطنى بالمدينة الجديدة ، بطابعها المصرى البحت على طول الزمن ، وأغلب الظن أنها كانت تتكون من مجموعة الأحياء الوطنية الممتدة من الأنفوشى إلى القبارى . ويحدونا

إلى هذا الظن أن هذه الأحياء تقع خلف الميناء التجارى للمدينة ماتزال .
وكان للوطنيين بتجارة المدينة منذ أسست أوثق اتصال · لأنهم كانوا روح الحركة التجارية وقوامها ، لم يجد الأغارقة بدا من الاستعانة بهم فى شئون التجارة والملاحة، فى وقت عكفوا فيه على الاستعمار وأحكام أساليبه وتمكين قواعده .

وظل شأن المصريين من سكان هذا الحى مستضعفا حينا من الدهر ، ولكنهم احتفظوا رغم ذلك بوحدتهم وقوميتهم ، وصمدوا لأذى الأغريق بادىء الأمر ، وقاوموهم مقاومة عيفة ، واحتفظوا بكيانهم المصرى أمام جبهة أغريقية غاية فى القوة والتماسك ، وكونوا عصبية مصرية ما تزال ملحوظة حتى الآن فى تلك الأحياء ، يفخر بها الاسكندريون الوطنيون ، ويعتزون بها .

وقد أدى تحول «راقوده» من قرية صغيرة خاملة الشأن، يشتغل أهلها بالصيد ، إلى ميناء عتيد ذى حركة تجارية عالمية ، إلى ضرورة اشتراك الوطنيين واندماجهم فى حياة المدينة الاقتصادية . لا سيما بعد أن مضى زمن على بدء الفتح ، تنازل فيه الأغريق عن كثير من شعور الانفة الذى يصاحب الغزاة عادة ، إذ وجدوا من المصلحة ، وقد أصبحوا مصريين بالاستيطان ، ألا يجعلوا فارقا كبيراً بينهم وبين المصريين الوطنيين .

وقد كانت الأسكندرية قبل الفتح الرومانى ، أى فى أواخر حكم البطالمة ، تتكون من عدة أحياء أشهرها :

(١) حى البروكيوم ، وفيه كانت تتمثل الأسكندرية الناعمة ، الرافلة فى الدمقس — وكانت به قصور البطالمة مشرفة على الميناء الشرق ، من طابية السلسلة حتى موضع الأنفوشى .

(٢) الحى الوطنى ، وفيه كانت تتمثل الأسكندرية المكدودة ، الدائبة الحركة ، وكانت تقع خلف الميناء الغربى « إينوستوس » أو «العود السعيد» كما كان يسمى ، ممتدة من رأس التين إلى موضع الورديان . وكانت قرية راقوده تحتل مكانه قبل إنشاء المدينة .

(٣) حى اليهود ، وكان يقع خلف الميناء الشرق أو الميناء الكبير ، إلى الداخل ، فى أول الطريق العظيم « البولقار » المؤدى إلى كانوب « أبى قير » ، وفيه كانت تتمثل الأسكندرية المموّلة .

(٤) ضاحية « نيقوپوليس » ، وكانت تمتد على ساحل البحر فى موضع الرمل الحالى ، وفيه كانت تتمثل الأسكندرية العابثة اللاهية .

(٥) الأسكندرية الجادة ، الغارقة فى بطون الكتب ، المتهالكة على البحث فى المتحف الأسكندرى والمكتبة الملحقة به ، وكانت تقع إلى الغرب من « النبى دانيال » ، بعيدة عن جلبة الحياة فى حى راقوده الوطنى ، ونعيمها ودعتها فى الحى الملكى ، ومجونها واستهتارها فى نيقوپوليس — بعيدة كذلك عن شرور المال فى حى اليهود .

أما الحى الملكى فيصفه «سترابو» : بقوله « كانت تمتد القصور الملكية على الميناء الكبير فى الجزء الشمالى الشرق من القوس الذى

يكون الميناء ، ويلى ذلك غربا «المسرح الكبير» على التلعة المجاورة،(١) ثم معبد «البوسيديون» فالغرفة التجارية ، فمخازن البضائع ، فبعض الأرصفة فيما جاور «الهبتاستاديوم» الذى هو نهاية قوس الميناء الشرقى «الكبير».

وكان بالمدينة من الطرق الرئيسية ثلاثة : أحدها آخذ من الهبتاستاديوم مفرق الميناءين الشرقى والغربى وكان يشق المدينة حتى موضع ميدان المنشية، ثم يتابع سيره إلى «السرابيوم» المعبد الأكبر، حيث كان البطالمة يعبدون «السرابس» أو عجل أبيس ، على نحو ما كان يفعل أواخر الفراعنة .

أما الطريق الثانى فكان يؤدى من الميناء الكبير إلى فرضة الإسكندرية الخلفية على بحيرة مريوط، وكان لا يقل اتساعا وتنسيقاً عن سابقه . وكانت بدايته من ناحية البحر تعرف «بباب القمر» ونهايته عند البحيرة تعرف باسم «باب الشمس».

أما الطريق الرئيسى الثالث، فكان يجرى عرضاً، وكان يعرف باسم «البولفار العظيم» وينتهى إلى كانوب «أبى قير» من جهة الغرب ، ويمر بحى اليهود ، وكان به «الجمنازيوم» أو الملعب الرياضى القديم . وكانت تحيط به من الجانبين العمد والآزاج وكانت على درجة من الجمال تبعث على كثير من الدهشة والاعجاب... فاذا ما سرنا بهذا الطريق حتى

---

(١) وهى على الأرجح التلعة التى يقوم عليها الآن المستشفى الأميرى

وصلنا العراء ، ألفينا ميادين السباق التي اشتهرت بها الأسكندرية من قديم . ومن عجب أن نرى ميادين السباق ما تزال قائمة فى نفس المكان حتى اليوم فى حى « سپورتنج » ! وعلى طول هذا الطريق كان يرى المار جماعات من النخيل مالت كلها نحو الجنوب من توالى عصف الريح عليها من ناحية البحر — ولا تزال بعض هذه الجماعات تشاهد فى جهتى « غبريال وفكتوريا » .

وإلى الشمال من هذا « البولفار » وبمحاذاة ساحل البحر ، كانت ضاحية « نيقوپوليس » حيث كان يقوم عدد كبير من المقاصف وأماكن اللهو البرىء وغير البرىء ، يؤمها أخلاط من الناس لم يرعوا للأخلاق حرمة . وكان كرام الأسكندريين يعافون ارتياد هذه الأماكن ، ويفضلون أن يتحملوا مشقة الانتقال إلى الشرق القاصى ، حيث أقاموا جواسقهم على الساحل ، بمنأى عن شرور هذا الحى ، واصطافوا كما يصطاف أفاضل القوم الآن فى جهات الساحل النائية عن المدينة شرقا .

° ° °

ولا بد لمن يدرس الأسكندرية دراسة علمية ، أن يلم إلماما دقيقاً بأشهر المواقع والأبنية فى المدينة القديمة ويكفيه من ذلك ما قدمنا كما لا بد لمن يدرسها من الوجهة المادية ، من أن يعرف شيئاً عن الثغر الأسكندرى ، « والفاروس » منار الأسكندرية الأعظم .

كانت تقع أمام الأسكندرية جزيرة تعرف باسم « جزيرة فاروس »

رأى بطليموس «فيلادلف» أن ينشىء عليها مناراً لهداية السفن . . .
ونظراً لضخامة البناء ، وجد من الضرورى أن تتصل الجزيرة بالساحل
ببرزخ صناعى ، حتى يصبح من السهل نقل مواد البناء إلى حيث اعتزم
إقامة المنار ، ولكى يسهل تموينه بما يلزم من الوقود ومواد الغذاء
التى تتطلبها إقامة حامية عسكرية على مقربة منه أو فى بعض جهاته .
وعرف هذا البرزخ باسم « الهپتاستاديوم » ، وبه انقسم الميناء
قسمين : يكون كل منهما قوساً عظيماً ، أحدهما — وهو الواقع إلى يسار
الداخل إلى الميناء من جهة البحر ، عرف باسم الميناء الكبير — والثانى ،
وهو الأيمن ، عرف باسم ميناء «العود السعيد» تفاؤلا . وهو فرضة
الاسكندرية التجارية على البحر الأبيض .

وحدث فى القرن الرابع الميلادى أن هوى زلزال عنيف بالجزء
الشرقى من جزيرة فاروس حيث كان يقوم المنار ، فأصاب ذلك من
المنار ما أصاب — وبعد ذلك فعل به الزمن شيئاً غير يسير من
التدمير ، وأجهز عليه زلزال شديد فى القرن الرابع عشر الميلادى
فأغرقه عن آخره فى مياه البحر — وأغرق هذا الزلزال فيما أغرق
الجزء الشمالى الشرقى من الميناء الكبير ، بما كان عليه من بقايا قصور
البطالمة ، وبقى هذا الشق من الميناء غير واضح التقوس منذ ذلك
الحين وضوح الشق الآخر الغربى .

° ° °

أقام بطليموس فيلادلف على الطرف الشمالى الشرقى لجزيرة

فاروس أكبر منار عرفه التاريخ الملاحى على الأطلاق ، بناه بأمره المهندس المليطى « سوستراتس » فوق صخرة من الرخام الأبيض على مثال برج بابل ، ولكى تسهل عملية بنائه ، أوصلت الجزيرة بالساحل بممر عظيم الاتساع هو « الهبتاستاديوم » روعى أن تتصل من تحته مياه جزئى الميناء ، فكان أشبه شىء بجسر (كوبرى) عظيم ، وتراكمت الرمال على مر الزمن ، فسدت الفتحات التى كانت تصل ما بين شق الميناء تحت الممر ، فتحول إلى برزخ صناعى ، يصل مابين المدينة والجزيرة .

ويرجح أن يكون مكان الهپاستاديوم هو أكثر جهات المدينة دخولا فى البحر فى الوقت الحاضر — الأنفوشى ورأس التين .

وكانت مهمة هذا الفنار العظيم هداية السفن القادمة فى البحر ، بوهج من النار الدائمة الاشتعال فى قمته .

وقيل أن بناء المنار كلف « فيلادلف » ما يقرب من مائتى ألف من الجنيهات . والذى يقيس هذا القدر من النفقات بعظمة البناء ، يعتقد أن السخرة لا بد أن تكون قد لعبت دوراً كبيراً فى تشييده . وقد ضن « سوستراتس » مهندس المنار بهذا الجهد العظيم ألا يقرن باسمه ، فنقش اسمه على قاعدة المنار وغطاه بطبقة من « الأسمنت » نقش عليها اسم سيده « بطليموس » ، مالبث أن أزالها الزمن وظهر اسم سوستراتس من خلفها . وقدر ارتفاع المنار بما يقرب من قامة الرجل مائة مرة . وكان بناؤه يتكون من طبقات أربع ، ثلاثتها

السفلى مربعة، تصغر ثانيتها عن أولاها ، وثالثتها عن ثانيتها ، ورابعتها مستديرة . وكانت تحيط بكل طبقة شرفة عريضة ، ولكيلا تتأثر قاعدة البناء بارتطام أمواج البحر به ، قيل أن الرصاص المذاب استخدم بدلا من « الأسمنت » فى بناء القاعدة . وقيل أن المنار كان يحتوى على ما يقرب ثلثمائة حجرة ، تقيم به حامية عسكرية لا بأس بعددها . وكان الوقود يحمل اليه يومياً على عجلات تصل إلى الجزيرة بطريق الهپتاستاديوم ، ومن ثم يرفع الوقود إلى القمة ، بنوع من الآلات الرافعة عرفه المهندس سوستراتس إذ ذاك .

° ° °

وفى أساطير العرب عن منار الأسكندرية شيء غير قليل من المبالغة، إذ يقولون انه أقيم على أساس زجاجى، لأن مهندسه جرب جميع المعادن ليرى أصلحها لبناء القاعدة، فوجد أن الزجاج هو المادة الوحيدة التى يمكن أن تصنع منها لثقله ! (كذا) .

وأهم ما استرعى نظر العرب الذين فتحوا الأسكندرية فى القرن السابع الميلادى ، المرآة العجيبة فى قمة المنار — تلك المرآة التى روى أن مناظر القسطنطينية كانت تنعكس عليها فيراها سكان الأسكندرية! كما روى أيضاً أن أشعة الشمس كانت تنعكس على المرآة، ثم تصوب بما يتجمع فيها من حرارة إلى سفن الأعداء فى البحر فتحرقها وهى على بعد مائة ميل !! ولا شك أن هـــذه القوة الخارقة التى أودعها سوستراتس مهنــــدس المنار فى انعكاس الأشعة على مرآته ،

إن صحت ، لكانت مما يبهر له العقل الحديث ، إذ يبعد أن تكون نظرية العدسات قد عرفت فى مثل ذلك الزمن الممعن فى القدم . فاذا صح أنها عرفت ، فلا بد أن يكون العلم اليونانى قد استنبطها فى « ميليطيا » Miletus أو فى « مصر » ، قبل أن يعرفها الفكر الحديث بآلاف من السنين .

وقيل ان العرب استخدموا المنار فى أغراض دينية ضد المسيحيين ، فاستغلوا هذه المزايا التى ترويها الأساطير عن المنار للانتقام من عدوهم فى البحر ، بالوقوف على حركاته وتسليط الأشعة المحرقة على سفنه . وظل أمر المنار هكذا حتى أرسل أحد أباطرة الروم إلى الخليفة « الوليد » من يخدعه فيفهمه أن قاعدة المنار تقوم على كنز ثمين . ونجحت الخديعة بعض النجاح ، إذ أخذ العرب يهدمون المنار — ولكنهم ما لبثوا أن فطنوا إلى الخديعة ، فأوقفوا معول الهدم ، وعبثا حاولوا اعادة الجزء المتهدم إلى حالته الأولى . وتهشمت المرآة الكبرى أثناء محاولة ارجاعها إلى مكانها الأول فى قمة البناء ، وما لم تعصف به يد الانسان ، عصفت به يد الزمن ، فعملت الزلازل عملها السيء فيه فى القرن الرابع عشر الميلادى ، فلم تدع منه غير صخرة بيضاء ، غارقة فى البحر فى جهة « قايتباى » .

الباب الثانى

الجامعة فى المتحف الاسكندرى

٣٠٥ — ٤٨ ق.م.

الفصل الأول

سوتر وتأسيس المتحف الاسكندرى - بعض معلوماتنا عن المتحف - نشأة الجامعة فى المتحف على غرار الأكاديميات الأثينية - وجه الخلاف بينهما - الغرض من اقامة المتحف - راعى المتحف - جامعة الاسكندرية وجامعات العصور الوسطى فى أوربا - كلية الملكة وكلية أول صول فى اكسفورد وجامعة الاسكندرية - النظام الداخلى للجامعة - معاهد العلم اليهودية - اسكندرية سوتر المندثرة والمتحف - مكتبة المتحف - بعض علماء العصر الأول من عصور الجامعة : فيلتاس القوصى ، زنودوتس البيزنطى - زيارة ميناندر الأثينى وافتتاح مسرح الاسكندرية - اكتشاف فيلون للبحر الأحمر الجنوبى - دراسة مانيتو وتيموثيوس وهيكتاتيس للعقائد المصرية القديمة - إقليدس وهيروفيلوس - سوتر يكلف بالدراسة والتأليف آخر الأمر - قيمة كتاباته - الفن الاسكندرى والفن الاغريقى .

فى عصر بطليموس الاول « سوتر »

(٣٠٥ — ٢٨٥ ق.م)

ينسب بنـــاء المتحف الاسكندرى خطأ إلى بطليموس الثانى «فيلادلف»، والحقيقة أنه من منشآت بطليموس الأول، أو بطليموس «سوتر» ، أسسه بمشورة «ديمتريوس فاليروس» Demetrios Phaleros الخطيب الأثينى الذى استصحبه سوتر فى عودته من حرب «ديمتريوس»

ملك مقدونية ، تلك الحرب التى استعرت بينهما بسبب التنازع على السيادة البحرية على البحر الأبيض الشرقى حوالى سنة ٣٠٧ ق . م .

ومما يؤيد صحة نسبة « المتحف » إلى بطليموس « سوتر » ، أن تنظيمه واعداده خليقان بأن يكونا من فكر رجل فيلسوف كديمتريوس ، لا من عمل بطليموس « فيلادلف » رجل السياسة والحرب . ومما نأسف له أننا لا نحصل الآن على كثير من معالم ذلك المتحف ـ فى الوقت الذى استطعنا فيه أن نلم بكثير من المعلومات عن المعاهد المعاصرة له . ومن عجب أن يكون هذا ! لأن المتحف أنشىء فى وضح التاريخ ، وفى عصر ملك شهير ، وفى مدينة من أعظم المدن المطروقة فى العالم القديم ، فاذا ما أمكننا أن نكشف عن بقايا الاسكندرية القديمة ، وهى الآن غائرة على بعد عشرين قدما تقريبا من مستوى سطح المدينة الحالية ، استطعنا أن نعثر — على الأرجح — على بعض معالم المتحف الاسكندرى . هذا ، وقد أمكن أن نصل الى شىء غير قليل من انتاجه لحسن الحظ فى النقد الأدبى وفى العلوم الرياضية والجغرافية وغيرها من فروع العلم الذى كان يدرس فيه ، والذى كان من شأنه أن ساعد على تقدم العلم الانسانى بوجه عام ـ ولئن لاحظنا قصورا ظاهرا فى الشعر أو الفلسفة ، فانما يعزى ذلك إلى ضعف هذا العصر الأول من عصور الجامعة فى هذين النوعين من الانتاج — بالقياس إلى « أثينا » و « أيونيا » اللتين كانتا فى هذا العصر فى أوجهما العلمى .

اختمرت فكرة جعل الاسكندرية مركزا للتجارة ومستقرا

للعلوم والآداب والفنون تدريجا فى ذهن بطليموس « سوتر » . ويرجع زمن إنشاء المتحف كما قدمنا إلى الوقت الذى وصل فيه ديمتريوس فاليروس إلى مصر ، وهو الذى ساعد سوتر على اخراج فكرة المتحف إلى حيز الوجود ، على غرار الاكاديميات الاثينية . وتسمية هذه المؤسسة العلمية باسم « المتحف » ترجع إلى أصل « أتيكى »(١) . ولا تزال تطلق كلمة المتحف على بعض الأندية الأدبية فى ألمانيا حتى الآن .

° ° °

وقد نشأت الاكاديميات الاثينية بادىء الأمر على شكل حلقات للدرس ، تنتظم حول معلم يتحدث إلى تلاميذه فى ناحية من نواحى المعرفة ؛ وما لبثت هذه الحلقات أن استحالت هيئات علمية منتظمة ، عرف كل منها باسم « الاكاديمى » ، وتسمى باسم معلمه الأول . وقد كانت هذه الهيئات فى بلاد اليونان غير خاضعة لأى إشراف حكومى ، إلا حين كانت ترى الحكومة ضرورة قصوى للتدخل فى حريتها العلمية ابتغاء الحد منها ، محافظة على سلامة الاداة الحكومية من أى شطط قد ينتجه التفكير الحر .

أما فى مصر ، فقد ضمنت « البيروقراطية » الحربية أن يكون المتحف تحت الاشراف الحكومى المباشر ، وفى رعايته . وهكذا كان المتحف الاسكندرى منذ بدء نشأته ، هيأة حكومية تستمد وجودها مباشرة من الملك ، ويستمد كل فرد فيها حريته منه .

إذا كان هذا — فلأى غرض أقيم المتحف ؟

---

(١) نسبة إلى أتيكا Attica من مقاطعات بلاد اليونان

الحق أن بطليموس سوتر لم يكن يرمى من وراء إنشاء المتحف إلى أداء رسالة معينة للعلم تصدر عن ذلك المعهد . ولم يكن هو يدرى كثيرا أو قليلا من أوجه الفرق بين الجامعة التى خلقها بالمتحف ، وبين تلك الأكاديميات التى ازدهرت فى أثينا ، كما لم يكن من المتعلقين بمذهب خاص من مذاهب الفلسفة يمكن أن يقال أنه أسس هذا المعهد ليشغف فيه بتمحص مسائله الفلسفية .

لم يكن سوتر ذلك الرجل — وإن كان فى ذاته شخصية من أعظم شخصيات التاريخ وأضخمها آثارا . قصد « سوتر » إلى غرض قد يكون سياسيا وقد لا يكون - قصد الى جعل المدينة التى أسسها الاسكندر الأكبر ، مقرا لحكم العالم الهلينى ، ما استطاع الى ذلك سبيلا . ومن أجل هذا كلف سوتر بالاستيلاء على مقدونية ، وفرض سيطرته المطلقة على البحر الأبيض الشرق . ولا شك أن سياسته هذه كانت ترمى الى مثل ما كانت ترمى اليه سياسة الاسكندر من التوسع ، مع فرق جوهرى — فقد كان الاسكندر يريد أن يجعل من مقدونيا نواة لامبراطوريته ، فى حين كان سوتر يريد أن يجعل من مصر ، التى آلت اليه بعد وفاة سيده ، نواة لدولة هلينية .

والذى يتأمل فى شخصية سوتر ، لا يعجب من سعة رغباته ، ولا يرى غضاضة فى أن يكون للرجل مثلما كان لسيده من الأطماع السياسية التى أصبح بحكم الظروف مركزها الطبيعى مدينة الاسكندرية ، لهذا - لم يأل سوتر جهدا فى توفير مظاهر الأبهة والعظمة لعاصمته الخالدة ، وكان غرضه الأول والأخير من إنشاء المتحف ، أن يجمع

فى الاسكندرية جمهرة من العلماء ـــ تفكر ، وتحاضر ، وتكتب التواليف ، وتمتاز بتفوقها فى الأدب والعلم بغية التشبه بأثينا ، عاصمة العلم الهليني ومستودعه ـــ وهكذا كانت رغبات العاهل الكبير منحصرة فى أن يسلب «مقدونيا» نفوذها السياسى ، ليتركز فى مصر ، و«أثينا» نفوذها العلمى ، ليستقر فى الاسكندرية .

* * *

وكانت هذه الجمهرة من العلماء تسكن المتحف ، تحت اشراف رئيس دينى يعينه الملك من الكهنة ، ويجدر أن نذكر هنا أنه لم يكن مصريا كمعظم أعضاء المتحف ، اقتصرت مهمته على رعاية المتحف رعاية دينية ، وذلك تقليد نقلته جامعة الاسكندرية عن جامعة أثينا ، مع شىء من الاختلاف ، هو أن راعى الأكاديمية الأثينية كان ينتخب انتخابا ، أما راعى متحف الاسكدرية ، فقد كان يعين تعيينا لمدة تطول وتقصر تبعا لارادة الملك .

ولما استطاع سوتر أن يجعل للاسكندرية مكانة سياسية ممتازة ، وتمكن فى الوقت نفسه من أن يهيء لها جوا علميا خاصا ، أمّها الطلاب من كافة أنحاء العالم الهلينى ، يطلبون العلم فيها على خير أساتذته .

* * *

واقتصرت الجامعة الناشئة على البحث العلمى الذى كان مظهره أول الأمر النقد والنظر فى مؤلفات السابقين ، دون أن تكون مبتدعة أو مضيفة إلى الثروة العلمية جديداً . ويعوزنا الكثير من المعلومات عن عدد الطلاب الذين كانوا يختلفون إلى حلقات الدرس بالجامعة ،

وعن نظام معيشتهم ، وعن العلاقة بين هؤلاء الطلاب وبين أساتذتهم ، لنستشف من تلك العلاقة شيئاً يشفى الغلة عن « الروح الجامعى » .

أما عن عدد الطلاب فلم نهتد إلى إحصاء ، ولم نقرأ هنا أو هناك الا شيئا يفيد أن عددا من الطلبة الغرباء أم الاسكندرية طلبا للعلم . ولا بد أن يكون هذا العدد قد سكن المتحف أو سكن على مقربة منه ، حيث لم يكن له بالمدينة من غرض غير الدراسة .

حقا — لقد كانت بالمتحف أروقة ، الشائع أنها كانت لسكن العلماء ، ولكن حقيقة معينة تدعونا إلى الاعتقاد بأن الطلاب عامة ، سواء أكانوا من الأجانب النازحين إلى الاسكندرية أو من الوطنيين ، كانوا يساكنون الأساتذة فى أروقتهم ، هى تلك الحقيقة التى يذكرها الأستاذ « مافى » فى كتابه « الحياة والعقائد الاغريقية » ، ويقرر بها أن نظام جامعة الاسكندرية كان كنظام « كلية الملكة Queen's College » فى اكسفورد فى أول انشائها ، أشبه شىء بمدرسة داخلية ، يختلف الطلاب فيها إلى دروس يلقيها الأساتذة ، ثم ينصرفون فى أوقات فراغهم إلى الاستذكار فى حجراتهم . وأقل ما يؤخذ من ذلك ، أن الطلاب كانوا يعيشون بحكم هذا النظام مع أساتذتهم فى بناء واحد . ومن شأن هذا أن يفسح مجالا للتعاون العلمى ، بين الطلبة أنفسهم من ناحية ، وبين الطلبة وأساتذتهم من ناحية أخرى — ومن شأنه فى الوقت نفسه أن يظهر الجامعة بمظهر لا يتفق مع سمو النظام الجامعى الذى من أوضح خصائصه « البحث العلمى » ، وأخذ الطلاب به رويداً رويداً حتى تنمو فيهم ملكته .

وذلك مافطنت اليه جامعة الاسكندرية فيما بعد ، فقد نزلت عن هذا النظام العقيم تدريجا ، واشترك الطلبة فى الأبحاث العلمية ، وقاموا أحيانا بمهمة الأساتذة ، تدريبا لهم على مزاولة التدريس الجامعى ؛ ووقعت جامعات أوربا فى القرون الوسطى لا سيما «كلية الملكة» بأكسفورد فى مثل ماوقعت فيه جامعة الاسكندرية أول عهدها بالحياة ، ولكنها أدركت ما فى هذا النظام من قصور ، وجاءت كلية «أول صولز» All Souls فى شكلها الأخير ، مصححة لهذا الخطأ فى النظام الجامعى ، فتقرر أن يقوم «الرفقاء» «بأبحاث» علمية وأدبية ، بعد أن يحصلوا من جامعة اكسفورد على درجاتهم العلمية .

° ° °

ويحق لجامعة الاسكندرية أن تفاخر جامعات العالم طرا بما سبقت اليه من جمع الآداب اليونانية وتنقيتها من الشوائب ، بفضل ما توفر لعلمائها وطلابها فى زمن بطليموس الثانى (فيلادلف) من المقدرة الفائقة على النقد الأدبى .

ولم تكن جامعة الاسكندرية المعهد العلمى الوحيد فى المدينة ، بل كان لليهود معاهد خاصة يتلقى أبناؤهم العلم فيها على شرائعهم المتوارثة . وبقيت المعاهد اليهودية معاصرة للجامعة إلى أن قامت بالاسكندرية فى عهد الامبراطور «كلوديوس» دور أخرى للعلم أهمها «الكلوديوم» لدراسة التشريع الرومانى ، والاشادة بمؤلفات الامبراطور فى تاريخ الأتروسكيين والقرطاجيين . وصحب دخول المسيحية إلى الاسكندرية ، قيام مدارس نصرانية ناوأت الجامعة

الوثنية كما ناوأت المعاهد اليهودية على السواء . وفى هذه المعاهد ، وعلى أيدى معلميها ، نمت القومية المصرية ، ونضج الشعور العام ، وانقض فى الوقت المناسب على الآثار الاغريقية والرومانية .

ويذكر « مافى » فى كتابه « امبراطورية البطالمة » أن جامعة الاسكندرية اتخذت نموذجا لكل الجامعات التى تلتها . فعلى غرارها نشأت جامعات أوربا الوسطى فى العصر الوسيط .

° ° °

حشد « سوتر » فى عاصمة ملكه جميع مظاهر الأبهة . وكان له الشرف الأكبر إذ نقل جثمان « الاسكندر » إلى مقبرة أقامها له بالاسكندرية « السيما » : أسس أفخم القصور ، وكون أروع بلاط ملكى عرفه البطالمة . ذلك كله — إلى ما وفره للمدينة من العتاد الأدبى والعلمى بهؤلاء الأكابر من رجال الأدب والعلم ، الذين اجتذبهم الى الاسكندرية من كافة أنحاء العالم الهلينى .

وبلغت الاسكندرية فى عهد « سوتر » من روعة المظهر مبلغا بهر زائريها من المؤرخين . وصفها « أخيلس تاتيوس » وصفا موجزا ، لكنه بليغ ، شاد فيه بذكر أنماطها الهلستينية فى البناء — تلك الأنماط التى امتازت بالأعمدة ذات البائكات تقى المارة من حمارة القيظ ، وتلك الضوضاء التى امتازت بها الاسكندرية من أثر وقع سنابك الخيل تجر العربات على طرقاتها المرصوفة ، ومبانيها العامة البالغة حد الكمال فى العظمة والروعة ، ومرحها وطربها أيام الأعياد ، وأضوائها الساطعة ليل نهار ، وأسوارها التى أحاطت بها إحاطة السوار بالمعصم . وتلك

البساتين النضرة تتخلل القصور الملكية ، وفرضتها العظيمة ، وساحلها الرملى الجميل الذى يتلاشى فيه اليبس فى الماء تلاشيا غير محس — فى طرقاتها تقابلت مختلف اللهجات والعادات ، اكتنفتها الضاحيات الجميلة: كانوب وإلوزيس ونيقوبوليس من الشرق — وجاورتها «نكروبوليس» مدينة الموتى ، من الغرب .

ومما يدعو الى الأسف أن أحدا من المعاصرين الذين رأوا الاسكندرية رأى العين ، لم يخلف لنا وصفا كاملا لها — فهذا وصف «سترابو» لها مشوه مختصر — ولم تصل الينا صورة حية بعض الحياة ، سوى ما كتبه المؤرخ «بوليبيوس» فى فصل عقده عن تتويج «بطليموس الخامس» — ليس هنا مكان لسرده . وكل الأوصاف التى انتهت الينا عن المدينة خالية من ذكر شىء يشفى الغلة فى أمر المتحف الاسكندرى أو «الجامعة» .

ويرجح أن تكون أول مكتبة أنشئت بالمدينة قامت فى وقت واحد مع «المتحف» فى حى البروكيوم — «الحى الملكى» . ولا يذكر «سترابو» وقد زار الاسكندرية فى عهد «أغسطس» ، شيئا ما عنها أو عن احتراقها — يقال أنه سكت عن ذلك عمدا ، تلبية لرغبة «إليوس جالوس» الوالى الرومانى . وكل ما ذكره «ديودور» الصقلى ، أنه اطلع على نشرات كانت تصدر فى البلاط الملكى ، استقى منها بعض معلوماته التاريخية — ولم يشر قط الى «مكتبة» استمد منها معلوماته .

ويرجح «ما فى» Mahaffy أن تكون مكتبة الاسكندرية قد جمعت بطريقة مشابهة لتلك الطرق التى جمعت بها بعض المكتبات الأنجليزية

الشهيرة ، كمكتبة «سندرلاند» ومكتبة «سپنسر» وعلى نحو ماتجمع وتقتنى قطع الخزف الثمينة ، أو صور مشاهير المصوّرين .

فاذا ما كان الأمر كذلك - تعذر علينا أن نلم بفكرة واضحة عن الحياة الأدبية فى الاسكندرية فى عهد بطليموس « سوتر » . والحق أنه يصعب أن ننسب الى عصر «سوتر» تلك النخبة من رجال الأدب والعلم ممن يزخر العهد الأول باسمائهم . وتظل اسماؤهم مضطربة حائرة بين أن تنسب إلى أواخر عصر بطليموس الأول (سوتر) ، أو أوائل حكم بطليموس الثانى (فيلادلف) .

وإذا سلمنا بنتائج أبحاث الألمان فى هذا الموضوع ، نسبنا هذه النخبة فى اطمئنان الى عصر بطليموس الأول ، الذى يعتبره «سوزميل» Susemihl صاحب الفضل الأوفى فى خلق حركة فكرية أدبية علمية فى الاسكندرية ، قام هو بحمايتها ، وترأس مجالسها ، وأصغى الى مناقشاتها المحتدمة التى خلت فى بعض الأحيان من الفائدة العلمية ، واقتصرت على اللجاج وحب المناقشة — ولا غرابة ، فهو تلميذ وصديق لارسطو .

وكان بطليموس سوتر يعنى بتربية ابنه بطليموس فيلادلف عناية فائقة ، عهد بتنشئته الى «فيليتاس القوصى»(١) وهو شاعر ينسب اليه أول مجهود أدبى عرف عن الاسكندرية فى الشعر الرثائى — بل أول مجهود عرفه العالم القديم من هذا النوع من الشعر . وكان « فيليتاس »

(١) نسبة إلى جزيرة قوص من جزر بحر ايجة

الى هذا ، من أشهر علماء اللغة الاغريقية الذين صنفوا فيها ، ووضعوا لها موسوعة حوت كل مصطلحاتها .

وفى هذا العصر تابع « زنودوتس البيزنطى » Zenodotus of Byzantium التأليف فى قواعد اللغة اليونانية ، وراجع مصنفات هومر — وامتاز عصر الجامعة الأول بالدراسات اللغوية ، أكثر من امتيازه بغيرها .

ويحتمل أن يكون بطليموس « سوتر » قد أسس مسرح الاسكندرية ، وأن يكون قد دعا إليه « ميناندر » الأثينى المؤلف المسرحى الفذ ، ليشرف المسرح الجديد ، باحدى مسرحياته تمثل فيه ، وليطوق جيد الجامعة الناشئة ، بزيارته لها .

ومن عجيب الأمور أن تكون جامعة « سوتر » قد قامت فى ذلك الزمن السحيق ، برحلات كشفية فى البحر الأحمر ، لاسيما فى الجزء الجنوبى منه — بفضل أمير البحر « فيلون » Philon ، تصحبه نخبة من رجال علم الجغرافية الملاحية — وهى رحلات تذكر له بالاعجاب البالغ ، إذا ما عرفنا أن اليونان لم يكونوا قد جاوزوا منطقة البحر الأحمر الشمالية ، فى تجوالهم فى البحار . وكان خليقاً حقاً بجامعة الاسكندرية أن تضيف إلى علم الجغرافية جديد .

وعنى هذا العصر فيما عنى ، بدراسة « العقائد المصرية القديمة » (الميثولوجيا) — فقد وكل بطليموس إلى « هكتاتيس الأبديرى » و « مانيتو » المؤرخ المصرى السمنودى ، والعالم « تيموثيوس » أمر هذه الدراسة ، قصد تزويد الامبراطورية البطلمية الناشئة ، بما يحتاج

إليه تدعيم كيانها ، من العقائد المصرية القديمة .

ooo

والحق أن كل هذه الجهود الأدبية ، على مالها من قيمة ، كانت دون مابلغته الاسكندرية فى علم الهندسة على يد « اقليدس » Euclid ، وفى التشريح على يد « هيروفيلوس » Herophilos .

وأشهر معلمى هذا العصر قاطبة « اقليدس » أبو الهندسة غير منازع ، ومؤسس مذهب البحث العلمى — وكتابه « المبادىء » أو « الأصول » أنماط فى صميم المنطق ، أكثر منه موضوعات فى الرياضيات . وإليه يرجع الفضل فى جعل عصر « بطليموس سوتر » عصر تفوق رياضى عظيم — له أثره البالغ فى تقدم العلم والعقل البشرى .

ويعتبر « هيروفيلوس » أبا « التشريح » ، على نحو ما يعتبر « ابقراط » أبا للطب . وبفضل « هيروفيلوس » سبقت مصر بلاد العالم طراً فى دراسة الأمعاء دراسة دقيقة . وكانت الحكومة تمده بالمجرمين المقضى فيهم بعقوبة الاعدام ، كما أمدته حظيرة الحيوان الملحقة « بالمتحف » بأنواع من الحيوان — شرحها ودرسها واستنبط من كل ذلك طريقة علمية للتشريح ، ساعدت على رفع شأن الاسكندرية القديمة فى العلوم الطبية .

وتآزرت جهوده وجهود « اقليدس » ، على خلق تلك المكانة السامية التى بقيت مقترنة باسم المتحف الاسكندرى حتى وقتنا هذا .

وبينما كان الاسكندريون مشغوفين بمباحث العلوم البحتة ، كان

الاثينيون مشغولين بدراسة الفلسفة الرواقية والأبيقورية فى بلاد اليونان ذاتها .

وهكذا كان عصر « سوتر » عصر نشاط أدبى ولغوى ورياضى وطبى عظيم - حقا لم تعن الاسكندرية بالفلسفة ، عناية «أثينا» التى كانت ماتزال معقل الدراسات الفلسفية بأنواعها - ولكن ذلك لم يقلل من قيمة الدراسات الاسكندرية ، ولم يحط من قدرها .

***

انتهت شواغل « سوتر » بانتزاع السلطة البحرية من يد «ديمتريوس المقدونى» ، واستيلائه على قبرس ، وتفرغ للمدينة العظيمة يريد أن يجعل منها أعظم المدن الهلينية على الاطلاق . وإذا نحن أصغينا إلى رواية «بلوتارخ» عن نقل جثمان الاسكندر ، ضعف لدينا القول بأن « سوتر » هو الناقل له إلى الاسكندرية . وتتلخص رواية «بلوتارخ» هذه فى أن بطليموس «فيلادلف» هو الذى نقل جثمان الاسكندر إلى منف ، ومن ثم إلى الاسكندرية ، حيث دفن فى «السما» . ولكنا إذا ذكرنا حرص « سوتر » على أن يجمع كل مظاهر الأبهة حول اسمه الكبير ، شككنا فى رواية «بلوتارخ» هذه ، وملنا إلى الاعتقاد بأن « سوتر » صاحب ذلك الاسم الضخم ، هو الذى أنجز ذلك العمل الجليل .

وما أن اطمأنت نفس « سوتر » بنقل جثمان سيده ، وخلا من شواغله الخارجية ، حتى عنى بأمر المكتبة والمتحف ، واتجه آخر أمره إلى الدراسة والتأليف . وقد عرف عنه أنه وضع مصنفاً « فى

حروب الاسكندر الأكبر ، تلك الحروب التى ساهم هو فيها كأحد قوادها . ويضع «أريان» مؤلف «سوتر» هذا فى رأس المراجع التى استمد منها تاريخه ، ويصفه بأنه خير مصدر رجع إليه !

والمذكرات الخاصة التى يكتبها القواد عن أعمال ساهموا فيها ، لا يمكن أن تكون مرجعا تاريخيا يعتمد عليه ، إذ النفس البشرية مجبولة على حسن تمديرها لذاتها ، ميالة فى ذلك إلى المبالغة والاغراق والتورط فى الكذب أحيانا . ولهذا لا يجمل أن تتخذ سندا من أسانيد التاريخ ، إلا بكثير من الحيطة والحذر . وينسب الى نابليون الاول شىء من هذا فيما كتب من مذكرات خاصة . وقلما يكتب قائد أو سياسى عن نفسه متحريا الحقيقة ، ولم ينج «يوليوس قيصر» من الوقوع فى الخطأ نفسه ، حين كتب مذكراته الخاصة عن الحرب الغالية .

ويذكر عن «سوتر» أنه كتب عددا من الرسائل عن الشئون العــامة فى عصره ، نشرها «ديونيسودورس» أحد تلاميذ «ارستاركاس» اللغوى — يؤسفنا أننا لم نفز بشىء منها حتى الآن .

° ° °

وفى أواخر أيام «سوتر» ، كان لا بد له من تسوية مسألة وراثة العرش ، حيث كان له أكثر من وريث . وكان أشدهم بأسا ابنه بطليموس ، وهو ولد له من يونانية ، أخذ «ديمتريوس المقدونى» لشد أزره ويناصره على بطليموس «فيلادلف» . وكان النزاع بين هذين الوريثين نزاعا فى الحقيقة بين اليونانية والمصرية . وكان انتصار

أحدهما على الآخر تفوقا نهائيا لاحدى الناحيتين . وكان هوى الملك المسن مع بطليموس «فيلادلف» ، إذ كان يرى فيه خير ممثل لسياسته ، سياسة الجمع بين اليونانية الهلينية والمصرية الفرعونية . وكان البطالمة أحرص ما يكونون تمسكا «بالمصرية» ، يقيمون على قواعدها ملكهم الجديد - لا مناص لهم من ذلك - خوفا على دولتهم الناشئة من أن تتزعزع أركانها — فتبيد .

والذى يتأمل كيف كان يعنى « سوتر » بتربية ابنه «فيلادلف» على أيدى خير الأساتذة المربين ، يرى كيف كان يحرص الحرص كله على أن ينتهى ملكه إلى « فيلادلف » دون سواه . وأخيراً — نزل «سوتر» عن العرش «لفيلادلف» ، وظل دائبا على الظهور فى بلاط ابنه عامين ، كواحد من الرعايا . ومات سنة ٢٨٣ ق.م. ، تاركا على الزمن تاريخا حافلا بكثير من الحوادث الجسام .

° ° °

استطاع « سوتر » أن يركز دراسة العلوم والآداب والفلسفة والطب فى عاصمة ملكه — ولكن، هل استطاع أن يجعل الاسكندرية كعبة الفنون فى ذلك العصر ؟

— اذا جاز لنا أن نحكم بالشواهد التى بين أيدينا ، وهى تلك النقوش البديعة التى ترى على العملة المتخلفة من هذا العصر ، والمحفوظة فى دور العاديات ، لما توانينا عن الحكم بتقدم الفن فى عصر البطالمة ، فى شتى نواحى الفنون الدقيقة ، المعروفة بالفنون التطبيقية .

غير أنه لايجب أن يغيب عن بالنا ، ونحن نذكر الفنون ، أن الفن الاغريق كان عليه أن يغالب فى مصر فنا من أقوى الفنون التى عرفها التاريخ ، هو الفن الفرعونى — فأما أن ينتهى إلى التفوق عليه ، فيغلبه على أمره ، وأما أن يذعن له فى موطنه ، فيندمج فيه . والمشاهد بصفة عامة أن المبانى التى أقامها البطالمة خارج الاسكندرية روعى فيها أن تكون فرعونية الصبغة — غير أنها لم تخل من التأثر بالفن الاغريق .

ويمكن القول إجمالا ، أن البطالمة تأثروا بالديانة المصرية ، أكثر مما تأثر المصريون بالفن الاغريق — فأقاموا معابدهم على الطراز الفرعونى ، وهكذا طغت «المصرية» على الفن الاغريق — اللهم إلا فى الاسكندرية ذاتها ، حيث بقى كل شىء يونانيا صرفا . وأقيم بالاسكندرية فى ذلك العهد عدد لا بأس به من الأبنية العامة كالمتحف والملعب والمسرح والسيما (قبر الاسكندر) . وكانت كلها آية فى إبداع الصنعة الاغريقية .

° ° °

ومن الأدلة المادية على تقدم الفن الاغريق فى هذا العصر ما أبدعته يد نحات إغريق لتابوت من الرخام ، لا يزال باقيا فى متحف القسطنطينية ، لملك مجهول الاسم من ملوك (صيدا) ، هو تحفة من تحف فن الحفر وحذق الألوان — ومنها كذلك ، تلك المشاهد التاريخية التى ترى محفورة على الأحجار ، تمثل المعارك الحربية التى وقعت للفرس مع الاغريق ، وتلك الصور الرمزية التى أنتجها

خيال رجال الفن من الأغارقة ، وقصدوا بها أن تمثل امتزاج الغرب بالشرق بطريق الحضارة الاغريقية — وغير هذا وذاك من مناظر الصيد ، وزخرفة واجهات المعابد بالنحوت البارزة — وكلها آيات فى الفن رائعات ، ماتزال باقية شاهدة بتفوق العصر فى الفنون على اختلافها .

وأغلب الظن أن الاسكندرية ، بما توفر لها من سمو المكانة بين مدن العالم الهلينى، لابد أن تكون قد استهوت أمهر البنائين ورجال الفنون . وما من شك فى أن عروس البحر المتوسط ، ووارثة أثينا فى العمران والمدنية ، لم تكن إلا من صنع هؤلاء الفنانين وابداعهم .

٭ ٭ ٭

ويحدثنا « شريبر » Shreiber عن فن نشأ فى الاسكندرية ، وازدهر فيها ، وانفردت به ، هو صناعة الأوانى الذهبية والفضية التى تتخذ عادة مقياسا لتقدم الحرف اليدوية . وهو يحاول جاهدا أن يثبت أن الاسكندريين كانوا أساتذة العالم فى هذا المضمار ، وهو فى الوقت نفسه يدلل على أن المدرسة الشعرية الايطالية التى يختمها « بنفنيتو سلينى » ، والمدرسة التى تزعمها « سلينى » نفسه ، أخذتا بنصيب وافر من الأدب الاسكندرى ، ويشير « شريبر » إلى حب الاسكندريين للطبيعة ومناظرها ، وتقديرهم لما فيها من روعة وجلال . وهو يحرص على الاشارة فى حماس ، الى أن الاسكندرية كانت فى هذا العصر نقطة التقاء العلم بالفن ، ومركز امتزاج الشرق بالغرب ، وبؤرة الجمع

بين القديم والحديث — أشبه ما تكون فى هذا كله ، بثوب « بيزنطى » مختلط الوشى .

° ° °

وليس الفن ناحية من نواحى نشاط الجامعات ، ولا هو عادة يتصل بانتاجها ، ولكنا عرضنا إلى الفن بهذه الكلمة القصيرة ، لنرى مدى ما أثر فن الاغريق فى مصر عامة ، وفى الاسكندرية خاصة — ولا جدال فى أن فن العمارة استدعى من الاسكندريين دراية بدراسة الأصول الهندسية . ونحن وإن كنا لا نحصل الآن على ما تثبت به أن الهندسة التى اشتهرت بها الاسكندرية ، كانت تطبق أصولها ، ويستفاد منها فى فنون البناء استفادة عملية ، إلا أننا نرجح أن فن العمارة لا بد أن يكون قد استفاد كثيراً من هندسة إقليدس .

تصويب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤	١٧	Achadémie	Académie (Akademia)
٤١	١٠	البا	الوما
١١٦	٨	Portum	Partum
١٢٥	٩	De — مجيد	Di — مجيدا
١٨٧	١١	عنصران هامان	عنصرين هامين

الفصل الثانى

فى عصر بطليموس الثانى « فيلادلف »

٢٨٥ — ٢٤٧ ق . م .

فيلادلف نصير الحركة العلمية والأدبية - شغف فيلادلف بالدراسة الطبيعية وتشجيعه لها - الكشف وخدماته للمتحف - فيلادلف يترأس مجالس الأدب والمناظرة - الأدب الذى نتج لهذا العصر - تخاصم الفلاسفة والأدباء وأثره فى الحالة الأدبية - بعض الآثار الأدبية لثيوكريتس وأپولونيوس وأراتس وكليماخوس وهيرونداس - العناية بالمكتبة - أثر تلك العناية فى الثروة العلمية اليونانية - طبيعة الشعر الاسكندرى وأثر « ثيوكريتس » - مانيتون يضع تاريخه - ترجمة التوراة السبعينية الى الأغريقية - البردى المكتشف من هذا العصر - الرخاء المادى فى عصر فيلادلف وأثره فى تقدم العلم - الفاروس والمرآة ذات الأشعة الحارقة - إنشاء مكتبة فرعية فى السرابيوم

اعتلى بطليموس « فيلادلف » عرش مصر وسط عاصفة من المنافسة الشديدة بينه وبين أخوة له من يونانية — كان « ديمتريوس المقدونى » يشد أزرهم ؛ وقدر لفيلادلف أن يفوز بالعرش ؛ وكان ذلك من حظ مصر ، لأن فيلادلف كان من أنصار سياسة الأدماج بين الحضارتين اليونانية والمصرية .

وكانت نشأة فيلادلف العلمية وتربيته كفيلتين بأن يخلقا منه نصيراً للحركة العلمية . وكان قد أظهر منذ الصغر ميلا إلى الدراسات الطبيعية كدراسة الحيوان والنبات . ويذكر «سترابو» و «ديودور» كلف البطالمة عامة وفيلادلف خاصة ، بالكشف وما يتبعه من

اجتلاء الحقائق الجديدة فى عالمى الحيوان والنبات .

ويرجع الفضل فى تنمية الرغبة فى دراسة الحيوان والنبات إلى « ديمتريوس الفاليرى » الذى اضطلع فى عهد « سوتر » بانشاء الأكاديمية ، بمعاونة نفر من جلة رجال العلم المعاصرين له .

وأدى شغف البطالمة بالحيوان إلى جمع عدد لا يستهان به منه فى حديقة الحيوان الملحقة بالمتحف ، فقد كانت تحوى من عجيب الحيوان ٢٤ أسداً ، ٢٦ ثوراً هنديا أبيض ، ٨ ثيران إثيوبية ، ١٤ لبؤة ، ١٦ فهداً ، ودبا أبيض ، وعدداً وفيراً من الفيلة ، ١٤ وعلا ، ٨ حمير وحشية ، وعدداً من القردة والجمال اليمنية ، وغير ذلك مما يستدل منه على أن سفن البطالمة جاست خلال البحر الأحمر وبلغت بلاد «بونت» والسومال والمحيط الهندى حتى سواحل الهند ، وربما ارتحلت غربا ، فشمالا فى المحيط الأطلسى ، حتى وصلت الأقاليم الباردة .

وأدت حركات الكشف والارتياد — فضلا عما أسدت من خدمات للعلم فى ميدانى النبات والحيوان — إلى رواج التجارة بين الأسكندرية وتلك الأنحاء النائية . وجلبت السفن إلى مصر ما كان يلزمها من الأخشاب والعطور والتوابل والأبنوس وريش النعام وسن الفيل ، وهكذا كانت حركة التقدم المادى التجارية مصحوبة بحركة تقدم على — إذ لم تخل سفينة قادمة تحمل البضائع من جهات المحيط الهندى والبحر الأحمر ، من شىء تمد به المتحف ، من عجيب النبات أو غريب الحيوان .

ورغم ما صادف «فيلادلف» من شواغل السياسة والحرب ، فقد صرف عناية مشكورة فى تشجيع دراسة الفلسفة والشعر والعلم البحت ، وخص أعضاء المتحف بفضله العميم . ولم يدخر هؤلاء وسعاً بدورهم فى تعليم الملك وتثقيفه ، وإدخال السرور على نفسه . ولم تخل مجالسهم من نقاش كان يحتدم أحياناً إلى حد المهاترة ، وكان من شأن هذا الاحتدام أن خلق روحاً أدبياً صاخباً ، امتاز به مجتمع الأسكندرية فى ذلك العصر . واختصم رجال العلم بالأسكندرية فيما بينهم ، وتنابذوا ، وتنافسوا بغية الحصول على الحظوة عند الملك الذى كان على ما يلوح يعجب بهذا النضال الأدبى بين فلاسفته ، اعتقاداً بأن ذلك الوطيس الحامى بينهم ، من شأنه أن يساعد على نضوج الأدب ، ورقى النقد الأدبى .

وأعظم مختصمين فى هذا العصر «كلياخوس» Callimachus العالم الشاعر ، و«أپولونيوس» الرودسى Apollonius of Rhodes وقد استفاد الأدب من الحرب الشعواء بينهما أيما استفادة .

* * *

كتب أدباء الأسكندرية فى عصر فيلادلف كما كان يكتب أدباء انجلترا من «سپنسر» و«تايلور» و«سوفت» و«بركلى» لطبقة خاصة من الشعب ، أدباً متسامياً لا تتذوقه الطبقات الدنيا ، لبعد ما بين لغتها الدارجة ولغة الأدب الرفيع . ولذلك حرم الأسكندريون من عامة الشعب من ذلك الأدب الذى كتب باليونانية

الفصحى للبلاط الأسكندرى ، وخاصة المتكلمين باليونانية .

* * *

ولكن الحركة الأدبية شاهت بعض الشىء من جراء ذلك التنابذ ، واعتكر جو « المتحف » الأسكندرى بتلك الخلافات الشخصية ، ونزع الأدباء إلى حب الظهور ، وتسقطوا الأخطاء بعضهم لبعض ، فتضاءلت الثمار الأدبية ، وان لم تخل من جمال . ومن أمثلتها فى هذا العصر أغانى « ثيوكريتس » Theocritus ، وقصائده عن حياة الرعاة فى صقلية ، موطنه الأول ، ومقطوعة « أبولونيوس » الرائعة Rhodius ومنظومة « أراتس » Aratus التعليمية فى الفلك والطقس ، وأناشيد « كليماخوس » للآلهة وعواهل البطالمة ، وتصوير « هيروندا س » Hirondas للشخصيات البارزة ، وشعر الرثاء الذى ازدهر فى هذا الوقت وعظم أمره على يد أستاذه كليماخوس ، وكانت له منزلة رفيعة بين فنون الشعر فى ذلك الحين .

ووكل فيلادلف أمر المكتبة الملحقة بالمتحف إلى « زنودوتس » البيزنطى Zenodotus of Byzantium وأمده بعالمين فى علم المكتبات يساعدانه على تبويب « الرواية » ، وتقسيمها إلى « فاجعة » و « هازلة » — هما الأسكندر أنوتوليان وليكوفورون ، فى حين قام « زنودوتس » منفردا بتبويب الشعر الغنائى والشعر الروائى .

من هذا نرى أن الانتاج الأدبى المحلى فى الأسكندرية كان بالاضافة إلى الأدب الموروث عن اليونان ، يكوّن ثروة كبرى ، لا يقوى على تبويبها شخص واحد . وكثيراً ما وكل أمر المكتبة إلى أكثر من

«أمين» واحد ، ويتضح من ذلك عظم محتوياتها وتشعب العمل فيها . ولقد كان ذلك العمل الجليل الذى قام به « زنودوتس » ومساعداه وتابعه من بعدهم الشاعر الفيلسوف «كليماخوس» ، عظيم الأثر فى حفظ الثروة الادبية اليونانية ، والتعليق عليها بما كفل لها حياة خالدة أفادت الباحثين فى تراث الاقدمين فائدة كبرى .

ولم تقف جهود علماء هذا العصر عند التعليق والنقد ، بل تعدتهما إلى الوضع والتأليف . وكان العلماء يجدون فى جزيرة «قوص» Cos من جزر بحر ايجه مهرباً من ضوضاء المجتمع الاسكندرى ، وهناك أخذوا ينتجون فى هدوء تلك الجزيرة ما قدر لهم أن ينتجوا . ومما يؤسف له أننا لم نفز بما كتب الاسكندريون فى نقد الأدب اليونانى ، وإن كنا قد فزنا ببعض ما وضعوا من الأشعار .

وأقوى شعراء هذا العصر على الاطلاق «ثيوكريتس» Theocritus الذى ضن بفنه أن يذهب بجماله ملق أو رياء ، فلم يسخره للمديح ، وآثر أن يكتب عن الحياة الريفية فى صقلية ، فوصف وهاد الجزيرة ورباها ومراعيها وغاباتها وصفاً رائعاً ، وصور حياة الرعاة فيها أدق التصوير — فخلق بما كتب روحاً جديداً فى الشعر الاسكندرى ، بعد كل البعد عن ذلك الزيف الشعرى ، الذى جرى على السنة كثير غيره من شعراء العصر .

ويؤخذ على « فيلادلف » حبه الشديد للملق ، وهو فى هذه الناحية يشبه « لويس الرابع عشر » . وكان فى بلاطه تنافس بين النساء على نيل الحظوة عنده ، وتنافس بين رجال الأدب لي ء

التقرب منه — وإلى هذا يعزى ضعف الأدب فى جملته ، ويرجع السبب فى قلة غنائه .

ومن مآثر «فيلادلف» على الزمن أنه كلف «مانيتون» Manethon بنقل تاريخ مصر إلى اللغة الأغريقية ، ولهذا العمل أهميته ، فقد ظلت المصادر اليونانية فى تاريخ مصر العماد الوحيد فى تاريخ البلاد إلى أن كشف «حجر رشيد» ، وأمكن الاتصال بأخبار المصريين القدماء اتصالا مباشراً ، بطريق حذق « الهيروغليفية » رأساً .

وفى عهد فيلادلف قام جماعة من فلاسفة اليهود بترجمة التوراة إلى اللغة الأغريقية بأمر من الملك ، فظهرت النسخة المعروفة باسم « التوراة السبعينية » ويونانيتها نموذج رائع من الأساليب اليونانية ، يرتفع كثيراً عن مستوى اليونانية التى كانت شائعة حينذاك فى المستعمرات الأغريقية .

وعثر « سير فلندرز پترى » على مجموعة من أوراق البردى فى منطقة الفيوم تحمل الآن اسمه ، هى قطع من «هومر» «وأفلاطون» و «يوريپيديز» و «الكوميديا الجديدة» وغير ذلك من الشعر والنثر اليونانى ، نسبها جميعا إلى عصر «فيلادلف» ، حيث كانت تقيم بالفيوم على عهده جالية يونانية مثقفة ، تقرأ الأدب وتتذوقه — وهى محفوظة كلها بالمتحف البريطانى .

° ° °

ولا مفر من أن نذكر هنا أن عصر بطليموس فيلادلف امتاز برخاء مادى منقطع النظير — ولا بد أن يكون انفاقه على معاهد العلم

وأندية الأدب ، وشراء الكتب لمكتبة المتحف ، قد بلغ حدا كبيرا من السخاء وبسط اليد .

° ° °

هذا وقد أغراه تقدم المدينة التجارى ، على بناء أكبر «فنار» عرفه العالم القديم — بل والعالم الحديث أيضا ، ذلك الفنار الذى ما يزال يعد أعجوبة من أعاجيب البناء ، شاده له المهندس اليونانى «سوستراتس» Sostratus فى مفرق الميناءين الغربى والشرقى ، فى الطرف الشمالى الشرقى من جزيرة «فاروس» Pharos واتخذ الفنار اسم «الفاروس» واشتهر به .

والفنار فى ذاته — بغض النظر عما كان فى المدينة من الأبنية العامة ، نموذج فذ لتقدم فن البناء فى ذلك العصر الممعن فى القدم ، وهو إلى ذلك ، دليل على تقدم علم الهندسة العملية ، وعلم الطبيعة الذى استعان به « سوستراتس » على اقامة قاعدة البناء الضخم فى ماء البحر ، ووضع المرآة الكبرى ذات الأشعة الحارقة فى قمته — بما كان لها من خصائص أحاطتها الأقاصيص بكثير من المبالغات التى تجعلها فى عداد الأساطير .

ولكن — ترى هل كانت نظرية العدسات قد عرفت فى مثل ذلك الزمن ؟ وإن صح أنها عرفت — فهل كانت معرفتها فى بلاد اليونان — أم فى الاسكندرية ؟ وفى هذا يؤكد «ه. ج. ولز» فى تاريخه قعود الاسكندريين عن الاستفادة العملية من نظريات علمائهم . على أنه ليس غريبا فى عصر تقدمت فيه علوم الطب إلى حد ممارسة

نظرية التشريح الحى ، ورقت الهندسة إلى درجة العلوم الرفعية ، أن تعرف نظرية العدسات ، وأن تستخدم استخداما عمليا .

° ° °

وهناك خلاف بين المؤرخين فى أمر مكتبة أنشئت بالمدينة بعيدا عن البحر فى موضع السرابيوم ، عند ما ضاقت أبنية المكتبة الملحقة بالمتحف بكتبها ، يؤكد « كلپل » Klippel أنها أنشئت حوالى عام ٢٥٠ ق.م. — فى حين يرى « ماتر » Matter أن الذى أنشأ هذه المكتبة الفرعية هو بطليموس أورجيتس الثانى (١٤٦—١١٧ق.م) والأرجح أنها انشئت قبل عام ٢٥٠ ق . م بقليل . وأن منشئها هو بطليموس فيلادلف . وعرفت هذه المكتبة باسم المكتبة « الوليدة » بالنسبة لمكتبة المتحف الكبرى التى ظلت تعرف باسم المكتبة « الأم » .

الفصل الثالث

فى عصر بطليموس الثالث «أورجيتس الاول»

(٢٤٧ / ٢٢٢ ق ٠ م)

أورجيتس وبهاء عصره ـ إراتوسثنيز العالم الأديب ـ دوسيثيوس وكانون ـ قطعة من إراتوسثنيز بنصها اليونانى وترجمتها العربية ـ أدب هذا العصر بوجه عام ـ المجموعات الألمانية المحتوية على أهم الآداب المتخلفة من عصر البطالمة ـ ارسطفانيس البيزنطى ونقد الأشعار الهومرية.

هذا العصر فى رأى بعض المؤرخين أزهى عصور جامعة الاسكندرية إنتاجا إذ وكان المتحف والمكتبة أظهر ما فى الاسكندرية فى عهد بطليموس الثالث . ويذكر سوزميل Susemihl أن ميول بطليموس الثالث «ايورجيتس الأول» كانت علمية بحته ، فقد كلف بدراسة العلوم كلفا لا حد له ، فى حين كان شغف سلفه «فيلادلف» قاصرا على علمى النبات والحيوان . ويرجع الفضل فى كلف «بطليموس الرحيم» بالعلم إلى هذا الحد ، إلى «إراتوسثنيز» Eratosthenes العالم الرياضى الاديب ، الذى استدعاه «أورجيتس» من «أثينا» ليحل محل «كليماخوس» أمين المكتبة بعد موته ، وليكون أستاذا خاصا لولى العهد — و «اراتو» يعد بحق ، لسعة معارفه ، وعلو كعبة فى العلم «أفلاطون» عصره ، فقد صنف فى الهندسة والنحو والفلسفة إلى جانب الجغرافيا والفلك .

شغل «إراتوسثنيز» وشغل معه أعضاء المتحف بمباحث الفلك

والجغرافيا الطبيعية بوجه خاص ، وهو أول من قاس محيط الأرض
ووفد على الاسكندرية فى هذا الوقت «ارشميدس» الطبيعى المعروف ،
ومكث بها مدة فى صحبة «إراتو ستنيز» . وفى نفس الوقت تمكن
«دوسيثيوس» Dosithios « وكانون» Canon وغيرهما من توسيع
دائرة العلوم الرياضية . وتبدت هذا العصر رغبة واسعة فى جمع
المخطوطات ، أغرت كثيرا من الناس على تزويرها ، ومحاكاة أوراق
البردى القديمة ، طمعا فى الكسب .

وتمتع هذا العصر بتقدم فى الآداب ،ساير التقدم العلمى والرياضى ،
ففيه بذل العلماء جهودا لا بأس بها فى الميدان الأدبى . وقد كانت
لاراتو ستنيز نفس شاعرة ، إلى جانب عقليته الرياضية . وقد وصلتنا
بعض المقطوعات الشعرية من هذا العصر ، أشهرها مقطوعة «اراتو ستنيز»
فى بطليموس الثالث وولى عهده ، وهى اكتشاف كبير الخطر فى دائرة
الأدب والعلم ، وهى تحمل تحية للملك العظيم ، ودعاء للملك أن
تتوطد دعائمه ، كما تتضمن بعض أبحاثه العلمية — ففيها عثرنا على حل
عملى للمسألة الهندسية المعروفة «إيجاد الوسطين المتناسبين بين خطين»
Finding two mean proportions between any two lines.

هذا إلى جانب ابحاثه فى الفلك ، وأشهرها « قياس محيط الكرة
الأرضية » وجهوده فى ناحية الجغرافيا الطبيعية ، والخريطه الدقيقة
التى وضعها للعالم المعروف إذ ذاك .

وفيما يلى النص اليونانى لجزء من منظومة «إراتو» :

Εὐαίω Πτολεμαῖε, πατὴρ ὅτι παιδὶ συνηβῶν
Πάνθ' ὅσα καὶ Μόνοαις, και βασιλεῦσι Φίλα
Αὐτός ἐδωρηόω δδές ὕστερου, οὐράνιε Ζεῦ,
Καὶ σκήπτρωυ ἐκ σῆς ἀντιάσειε Χερὸς
Καὶ τὰ μὲν ὡς τυλεοίτο λεμοι δε τις
αὐθέμα λεύσσωυ.
Τοῦ κυρηναίου τοῦτ' 'Ερἀτσα θευεός

وترجمته العربية :

« أنت يابطليموس حقيق بالمديح
إذ حبوت ابنك بما صبت اليه آلهة الشعر (١)
وأنت ما تزال فى شرخ الصبا ، وميعة الشباب .
« أما أنه(٢) سليل السماء — فحق . . .
ولسوف ينقل اليه «چوبتر» صولجان الملك من يدك .
« اللهم حقق رجائى ، واستجب لدعائى !
ان كل من يسمع هذا الثناء عليك
سوف يهمس : « هذا قريض الكرنيوس اراتوستنيز »(٣)

والادب الذى هذا شأنه ، أدب مادة لا أدب فن . وكنا نود أن نحصل على شىء مما كتب شاعرنا عن الحياة الريفية فى صقلية ، فلا شك أن ما كتبه فى ذلك المعنى ، كان أصدق تصويرا لشاعرية «إراتوستنيز» وشعر الطبيعة ، من هذا الشعر المادح .

---

(١) Muses (٢) ولى عهدك

(٣) لعل فى ذلك إشارة الى أنه كان شاعر البلاط .

وهكذا كان الأدب يتجه نحو الملوك يمدحهم ، ويؤيد عرشهم، ويتملقهم رغبة فى عطاء يذل أو حظوة تنال .

ويحيلنا « مافى » على مجموعات « كلنتون » « ورتشل » « وهولم » « وونجر » « وسوزميل » — وتحتوى جميعها على كل ما أمكن الحصول عليه من الآداب اليونانية الاسكندرية .

ومن علماء العصر البارزين « أرسطفانيس البيزنطى » وهو تلميذ للعالم « زنودوتس » الذى مر بنا ذكره ، والعالم «كليماخوس». وهو ناقد أدبى كبير ، نظر فيما كتب « زينودوتس » من نقد سابق لأشعار « هوميروس » ، وزاد من فهرس الأداب اليونانية الذى وضعه « كليماخوس » . وشغل ارسطفانيس وظيفة أمين مكتبة المتحف ، ونيط به أمر تربية ولى العهد .

الفصل الرابع

من بطليموس الرابع إلى بطليموس السابع

(٢٢٢ — ١١٧ ق . م)

عصر انحلال - بطليموس الرابع يغرم بالأدب والتصنيف الأدبي - العناية بالهومريات - الكشف والارتياد - كراهية اليهود والتحبب الى المصريين - أرسطونيم - التقرب من الديانة المصرية - أرستاركاس اللغوى - هباركس الفلكى - پوليبيوس المؤرخ .

كان بطليموس الرابع على خلاف من سبقه من ملوك البطالمة ، ميالا إلى اللهو والمجانة ، كثير الانفاق ، غير محبوب من رعيته ، يحب الملق ويصغى إلى الأقاويل — ولكنه كان فى الوقت نفسه حريصاً على سمعة الدولة التى أنشأها جده « سوتر » ، حارب من أجلها «أنطيوخوس» الثالث عام ٢١٦ ق . م ، وهزمه فى « رافيا » ودفع خطره عن مصر .

وعنى عناية سلفه بأمر المتحف والمكتبة . ويذكر « كلپل » انه هيأ لهما حياة لا بأس بها ، باستدعائه نخبة من كبار علماء اليونان إلى مصر . وكان كبير الشغف بدراسة «هومر» ، دعاه حبه للشاعر اليونانى الخالد أن يقيم له معبداً بالاسكندرية تخليداً لذكراه . وكان بطليموس الرابع أديباً : وضع رواية أسماها « أدونيس » Adonis ، حاكى فيها الشاعر اليونانى « يوريپيديز » ، علق عليها ومدحها وزيره المتأدب « أجاثوكليس » Agathocles

وفى هذا العصر مالت الاسكندرية ميلا ظاهرا إلى دراسة آثار الاغريق الأدبية والتعليق عليها وتنقيتها وتخليصها من الشوائب — واليه يرجع الفضل فى تيسير الهومريات وتقريبها من أذواق العامة، وتعوزنا أسماء تلك النخبة من رجال الأدب الذين اضطلعوا بهذا العمل القيم؛ وليست دراسة «هومر» وتيسير أشعاره بالأمر الهين، ولا شك فى أن ذلك كان مجهودا ضخما، يعترف به متذوقو اليونانية الكلاسيكية. وعن هذه التيسيرات والتعليقات أخذت أوربا فى العصور الوسطى وأذاعت بين أدبائها. ومنذ نشأت الجامعات الأولى واستقرت برامج التعليم فيها، كان «هومر» والأشعار الهومرية، وغيرهما، موضوعات هامة للدراسة فيها. يقول «سوزميل»: «ولولا جهود الاسكندريين فى هذا السبيل، لاستحال على العالم الالمام بأشعار «هومر» سائغة مذللة الصعاب، يتوارثها العالم جيلا بعد جيل.»

ooo

وعنى هذا العصر فيما عنى بالكشف والارتياد، فقد فطن بطليموس الرابع، كما فطن بطليموس الثانى من قبل، إلى فضل الكشف فى توسيع مدارك الاسكندريين عن العالم الخارجى والاضافة إلى علم الجغرافية الملاحية والحصول على نماذج جديدة من النبات والحيوان — ولهذا أوفد «بطليموس» الرائد «ليخاس» Lichas فى رحلة ثانية إلى «اثيوبيا»، توجت بالنجاح، وأحضر الرائد معه كل ما استطاع حمله من

أنواع النبات والحيوان، وأحضر فيما أحضر عددا من الفيلة الأثيوبية .

٭ ٭ ٭

ويمتاز هذا العصر بكراهيته الشديدة لليهود وكل ما هو يهودى، وبميل واضح إلى التقرب من المصريين والتحبب إلى دياناتهم . ومن أدلة ذلك إنشاء بطليموس معبدين بالاسكندرية أحدهما للآلهة «إيزيس» والآخر للمعبود «أبيس» ، — غير ما أقام من المعابد فى الوجه القبلى .

٭ ٭ ٭

ومن أشهر شخصيات الاسكندرية فى هذا الزمن الشاعر الهازل «أرسطونيم» Aristonyme ، وقد كانت حياته مضطربة بين الاقامة فى الاسكندرية يقول فيها شعره ويعلم فيها فنه ، والارتحال إلى ملوك «برجام» فى آسيا الصغرى ، وكانوا ينافسون ملوك مصر ، وقد وكل اليه فى وقت ما أمر الاشراف على المكتبة العامة . لجأ آخر أمره إلى آسيا الصغرى وعاش فى كنف ملوك «برجاموس» حتى مات .

٭ ٭ ٭

ومن أنجبتهم هذه الفترة العالم الفلكى «هباركس» Hipparchus (١٦١ / ١٢٧ ق.م) أشهر فلكيي العالم القديم اطلاقا — أصلح من أخطاء «أراتوستنيز» . وقرر أول نظرية صحيحة لدوران الأرض حول الشمس ، خطئت أول الأمر ، ولكن الأيام أثبتت صحتها. وهو لذلك يعتبر المبتدع لنظرية النظام الشمسى Solar System اعترف بفضل أبحاثه العلامة «كوبرنيق» البولندى .

ومن علماء هذا العصر غير هذين الفيلسوف «سفيروس» Sepherus

الذى جادل الملك المتأدب كثيرا ، والذى كتب فى الثروة والمجد والمقسوم وغيرها من الموضوعات الفلسفية . قضى آخر أيامه بعيدا عن مصر كما فعل « أرسطونيم » ، حيث لجأ إلى « اسبرطة » وأقام بها ونبغ ومات.

° ° °

ومن العلماء المعدودين « أرستاركاس » Aristarchus اللغوى الذى كان على رأس المكتبة الكبرى (٢١٧ / ١٤٥ ق.م) . عاونه فى أمور المكتبة نفر من العلماء هم « دنيس » لوثريس Denys و « فلومين » Philomine و « ديديم » Didime . وكان أرستاركاس إلى جانب اضطلاعه بأمر المكتبة محاضرا فى علوم اللغة والأدب بالجامعة ، وأستاذا للملك وأولاده . عاش حتى أدرك عصر بطليموس السادس ، ونشر كثيرا من مؤلفات «پندار» و «سفوكليس» و «اسكليوس» ، وعلق على الأشعار الهومرية ، وله ترتيب خاص للالياذة والاوديسى ، ومات فى حكم بطليموس السابع فى قبرص .

° ° °

ومن أبرز الشخصيات المؤرخ (پوليبيوس) Polybius (٢٠١ / ١٢٠ ق.م) وهو ليس اسكندريا ، ولكنه اختلف إلى المدينة كثيرا . وله تاريخ عن «مصر» يتصف بالغموض ، أهم ما فيه وأوضحه ، ذلك الفصل الذى عقده لتتويج بطليموس الخامس ، ففيه نرى وصفا دقيقا رائعا لمدينة الاسكندرية .

الفصل الخامس

من بطليموس السابع إلى كليوباطرة

(١١٧ ق.م — ٤٨ ق.م)

أورجيتس الثانى — نهضة علمية عامة فى المستعمرات الهلينية — كراهيته لبعض رجال العلم وتشتيته لهم — أثر ذلك التشتيت — وضوح سياسية الانتقاص على الحضارة الهلينية — تدهور المتحف الاسكندرى بعده مباشرة — الملك يؤلف ويجمع بعض العلماء حوله — هو تلميذ لارستاركاس — التعليق على هومر — مجالس المناظرة — شغف أورجيتس بجمع الكتب ومنافسته لملوك برجاموس — جمود الحالة العلمية فى زمن بطليموس الثالث عشر ووقوف دولاب العمل فى المتحف — آخر عهد الاسكندرية بقوة الانتاج — عصر كليوباطرة — الميل إلى الفلسفة — أثر اليهود .

يقول « أثنوز » Athenaeus نقلا عن مؤرخ اسكندرى يدعى « منكليز » Menekles إنه كانت هناك نهضة علمية فى جميع أنحاء المستعمرات الأغريقية على طول عصر بطليموس السابع ، وذلك بالنسبة لما كانت عليه الحال فى بلاد اليونان. وعلى الرغم من ذلك كانت فى نفس الرجل موجدة لايعرف سببها على رجال العلم عامة . ولعل الخلافات العائلية بين البطالمة هى التى احفظت نفس بطليموس السابع على علماء عصر بطليموس السادس ، فنفى منهم الكثير إلى الجهات النائية . وهناك أخذ الفلاسفة ورجال اللغة والهندسة والموسيقى والفن يعلمون مأجورين على تعليمهم ، بسبب ما اعتراهم من جراء هذا التشتيت من الفاقة وضيق ذات اليد — ويذكر «أثنوز» ان الاسكندرية كانت فى

هذا العهد كعبة العلم ما تزال ، يؤمها القصاد من بلاد اليونان ذاتها .
ويقارن «شارب» Sharpe أثر هذا الحادث الذى دفع بهؤلاء العلماء الاسكندريين إلى خارج المدينة ، بالأثر الذى نتج عن فتح القسطنطينية على يد «محمد الفاتح» ١٤٥٣ م — ذلك الفتح الذى كان من أثره نشر العلم فى أنحاء القارة الأوربية ، بسبب هجرة العلماء من القسطنطينية .

ويلحظ الباحث فى تاريخ هذا العصر ، أن سياسة جديدة أخذت تعلن عن وجودها ، ترمى إلى « تمصير » البلاد وإزالة الصبغة الهلينية عنها ، وكان ذلك على حساب العنصرين اليونانى واليهودى معا . بدأت بوادر هذه الروح تدب منذ أيام « بطليموس الرابع » . ويعجب الانسان إذ يلحظ هذا ، ويحار فى تعليله — سيما ولم تكن قد مضت مدة طويلة على بذر بذور الحضارة الهلينية فى البلاد — أما بطليموس السابع ، فقد خضع بمرور الزمن لتقاليد المصريين ، وانحاز إلى حضارتهم ، واستسلم لسلطانها القاهر .

والذى يهمنا من هذا نتيجته المحتومة — ألا وهى الغض من شأن الثقافة الهلينية . وتعوزنا الأدلة على حيوية المتحف الاسكندرى أو « الجامعة » فى هذا العصر الذى ينسب إليه (رغم الروح الجديدة التى بدأت تسود البلاد) ظهور عدد من أقدر رجال العلم الاغريق ، هوى المتحف من بعدهم هويا شديداً — حتى لكأنما كانت تلك صحوة الموت !

وكان الملك نفسه فضلا عن حمايته للعلماء ، مؤلفاً وناقداً .
« وأرستاركاس » Aristarchus أظهر شخصيات الأدب فى هذا

العصر؛ وله تعليقات على الأشعار الهومرية . وكما وضع بطليموس «سوتر» مذكرات عن مغامراته فى الشرق ، وضع «بطليموس السابع» مذكرات شبيهة بها عن حملاته الحربية .

وعلى الرغم من أن بطليموس السابع استبعد عدداً من صفوة رجال العلم أول عهده بالحكم ، فانه عدداً آخر منهم بقى فى الاسكندرية مواليا خدماته للمتحف — يذكر «ماتر» Matter أنهم لم يكونوا على جانب كبير من الثقافة ، واليهم يرجع الفضل فى اكساب مجلس الملك روحاً أدبياً على كل حال .

° ° °

وهاك قطعة منسوبة إلى بطليموس «أورجيتس الثانى» (المحسن)، فيها تعليق على بعض الهومريات التى شغف بهـــا العاهل كل الشغف — عرف فيه رجال بلاطه من المتأدبين هذا الميـــل . فكثر ما كانوا يتناقشون فى مجلسه إلى ساعة متأخرة من الليـــل . وهذه القطعة محفوظة ضمن مجموعة سوزميل Susemihl

Πτολεμαῖος ὁ δεύτερος Εὐεργέτης παρ' Ὁμήρῳ (ε 72) ἀξιοῖ γράφειν «ἀμφὶ δὲ λειμῶνες μαλακοὶ οἷον ἤδε σελίνη». οἵα γὰρ μετὰ σελίνου φύεσθαι ἀλλὰ μὴ ἴα, (Athen. ii 61, C, and also) οὕτως δε και Πτ. φιλομαθεῖν δοκοῦντι περὶ γλώττην καὶ στιχιδίου καὶ ἱστορίας μαχόμενοι μέχρι μέσων νυκτῶν ἀπέτειναν. (Susemihl. i. 9.)

اشتغل بطليموس السابع بالأدب، ونقد الآداب اليونانية، وهو فى هذا يمثل شغف الاسرة عامة بالدراسات اليونانية القديمة، وحبها لرجال الأدب وحمايتها لهم - وليس من شك فى أن ذلك قد ساعد على رواج الحركة الأدبية فى المتحف الاسكندرى وفى بلاط بطليموس. وكان «أرستاركاس» شيخ الأدباء النقاد فى هذا العصر، وهو من كبار المعلقين على اشعار هومر كما قدمنا، ويعتبر استاذاً اسيده بطليموس فى هذا المضمار.

وفى هذا النص المثبت فى مجموعة «سوزميل»، نرى بطليموس يحمل الناس على تفسير كلمة «ايون» التى فى «هومر» بأنها نبات يكسو سطح الماء الراكد، هو إلى فصيلة النباتات الدنيا(١) أقرب، وهو لهذا، أبعد ما يكون عن فصيلة الأزاهير — وبطليموس بتفسيره هذا يدحض آراء بعض النقاد الشارحين لهومر.

وإن دل هذا على شىء، فهو دال على أن البطالمة الذين كان «سوتر» أولهم شغفاً بالدراسة والبحث والتصنيف، قد أفادوا كثيراً من اشتراكهم فى مجالس المناظرة، كحماة للأدب، أو كأشخاص فى الحوار — فأصبح من بينهم مع الزمن، الباحث والناقد والأديب.

ويشبه البطالمة فى تشجيعهم للأدب وترأسهم لمجالسه، خلفاء العباسيين الذين كانوا يعقدون مجالس المناظرة، ويصرفون فى شهودها أوقاتا طويلة — وكأنما التاريخ يعيد نفسه فى هذه المسألة، شأنه

---

(١) هو الطحلب

فى غيرها من المسائل : ففى عصر المأمون العباسى حمى وطيس الجدل بين الأدباء والشعراء ، ولذ للخلفاء أن يشهدوا هذا الوطيس الحامى، على نحو ما لذ لسابقيهم من عواهل البطالمة أن يشهدوه سواء بسواء . ولعل هؤلاء وهؤلاء كانوا يقصدون بما فعلوا إلى اذكاء روح الجدل والمناقشة، واستثارة القرائح — أو لعلهم كانوا يشبعون به رغبة خاصة فى نفوسهم .

ولقد أفادت الحركة الأدبية والفلسفية فى العصرين من جراء هذا التناظر كثيراً من أسباب نموها وازدهارها .

* * *

وعلى الرغم مما ينسب إلى بطليموس السابع من موقف غير محمود مع نفر من علماء عصره ، فأنه يتمتع بسمعة أدبية عجيبة ، فالمعروف الذى يذكره الرواة أنه كان حريصاً كل الحرص على تزويد مكتبة الجامعة بنفائس الكتب . وكثيراً ما أرسل الرسل من التجار وغيرهم يبحثون له عن المخطوطات اليونانية — وقد يكون السبب الدافع له على ذلك حبه لاقتناء الكتب ، رغم ما انطوت عليه نفسه من كراهية لنفر من العلماء ، كما قد تكون رغبته فى منافسة ملوك «برجام» بآسيا الصغرى هى السبب ، وكانوا فى ذلك الحين يجمعون مكتبة كبرى فى عاصمة ملكهم ، وليس أدل على ذلك مما يروى من أن «بطليموس السابع» منع اصدار البردى المصرى إلى «برجاموس» — فاتخذ البرجاميون «الرق» Parchment بدلا منه فى كتابة المخطوطات — وكان ذلك من خير العلم فى مستقبل الزمن ، إذ

بذلك كسب العلم مادة أبقى على الدهر من البردى — كان لها فضل الاحتفاظ به قروناً عدة .

٭٭٭

وليس صحيحاً ما يقال من أن بطليموس السابع أنشأ مكتبة السرابيوم ، وهى المكتبة التى احتفظت بعدد كبير من كتب القدماء فى الوقت الذى أحرقت فيه المكتبة الكبرى فى حى «البروكيوم» عام ٤٨ ق . م . وقد أشرنا إلى ذلك عند الكلام على عصر بطليموس «فيلادلف» .

ومنذ عام ١١٧ ق . م ، أى منذ قضى بطليموس «أورجيتس الثانى» وقعت البلاد فريسة للخلافات الأسرية بين أفراد البيت الحاكم . وفى هذه الحقبة من الزمن تدخلت «روما» فى شئون البطالمة وشئون مصر الداخلية ، بسبب التجاء هؤلاء إليها يبتغون عندها حلولا لمشاكلهم الخاصة . وفى هذا النزاع الذى طال أمده ، أفتقرت البلاد ، ولم تعد قادرة على تزويد «المتحف» ومكتبته بالكتب . وشغل بطالمة العصر الأخير بالانقسام والتنافس على العرش عن أمور العلم . وكان هذا آخر عهد الجامعة والمكتبة معا بالقوة والانتاج .

وجرت الأمور على هذا المنوال حتى عصر بطليموس الثالث عشر ، وفى عهده جمدت الحركة العلمية فى الاسكندرية ، وفقد الجمهور السكندرى صبغته اليونانية ، وغدا — وكان ذلك من حسن الحظ — مصرى النزعة . وكاد دولاب العمل يتوقف نهائياً «فى المتحف الاسكندرى» .

وعلى الرغم من كل هذه الاحداث الهادمة، ظهر فى عصر «كيلوباطرة» الذى يعتبر بمثابة الحد الفاصل بين عهدين، نفر من تلاميذ «ارستاركاس» اشهرهم «ديونيسيوس التاريسى Dionysius Le Thrace»، الذى درس أولا فى روما، ثم رحل الى الاسكندرية وعلم فى جامعتها.

وفى عهد كليوباطرة نشطت حركة كشف جغرافى ترأسها «إيودوكس» Eudoxe الذى رحل الى الهند للتجارة والكشف. وممن نبه ذكرهم فى هذا العصر الطبيب «ديسكوريدس» Dioscorides وله مؤلفات كثيرة فى الطب، وهو غير ديسكوريدس النباتى المعروف صاحب كتاب العقاقير الذى نقله العرب.

ويصف «ماتر» Matter الاسكندرية فى هذا العصر الجديد، بأنها كانت وكرا لبعض فلاسفة اليونان انزوت فيه اشخاصهم وجهودهم، لأن أعظم ما كان يشغل بال الاباطرة، لم يكن علما ولا أدبا ولا فلسفة. وانما كانت الادارة والنظام واستتباب الأمن شغلهم الشاغل. وليس بغريب، والحال كذلك، أن ينزح علماء الاسكندرية الى «روما»، موطن الأباطرة وكبار الرومان. وهناك استطاع هؤلاء أن يجدوا شيئاً من التقدير لأدبهم وفضلهم، وكان ذلك من سوء حظ الاسكندرية. غير أن هذا التحول، كان من شأنه اضطلاع نفر من فلاسفة اليهود فى الاسكندرية بأمور العلم والفلسفة. ولا غرابة، فقد احتفظ اليهود بكثير من كنوز العلم منذ فرق «أورجيتس الثانى» شمل علماء الاسكندرية، ومنذ مالوا هم الى دراســـة الفلسفة وخلطوها بتعاليمهم الدينية —

ومن زعماء هذه الحركة العلمية اليهودية «أرسطوبيول» Aristobule و «فيلون» Philo الاسكندرى ، وتحمل مصنفاتهم فى هذا العصر اسم «الهلينزم» Hellenisme .

شغلت الحروب بين مصر وسوريا «بطليموس الخامس» عن الالتفات الى الشئون الداخلية ، كما شغلت المنازعات العائلية ومسألة التنافس على وراثة العرش ملوك البطالمة عامة على طول القرنين السابقين على الميلاد — وربما عزى تأخر الجامعة وتدهور الحركة العلمية الى هذين السببين دون غيرهما .

وفى هذه الفترة بدأت الاسكندرية تفقد مكانتها العلمية والأدبية وتتخذ مظهراً جديداً من مظاهر الفكر الانسانى . فقد اتجهت منذ الحلقات الأخيرة من القرن الثانى قبل الميلاد نحو دراسة الفلسفة ، واجتمعت فيها فى القرن الأول قبل ميلاد المسيح مذاهب متباينة منها مذهب الشك ، ومذهب الفيثاغورية الحديثة ومذهب خاص اخذته الاسكندرية عن الأكاديمية الجديدة (فلسفة أفلاطون) .

٭ ٭ ٭

ومنذ استلبت روما مكانة الاسكندرية العلمية بسبب سقوط مصر فى أيدى الرومان ، ضعف بها شأن اللغة الأغريقية بالتدريج ، وشاع استعمال اللغة المصرية «الديموتيقية» فى أعقاب ذلك . ولكن على الرغم من هذا التحول ، بقى اليهود فى مصر حفظة على العلم اليونانى واللغة اليونانية، وعبروا بهما ميلاد المسيح، وعدت خزائنهم كنوزاً للعلم اليونانى الوثنى فى العصور التالية للميلاد ، وظهر منهم كثير من

المتضلعين فى نواحى العلم فى أوقات مختلفة قبل الميلاد وبعده ، وكان لهم أدب دينى يتفق كل الاتفاق مع تعاليمهم الدينية والأخلاقية ، ويتمشى مع مأثورهم من « حكمة سليمان » .

وكرمهم لفضلهم ملوك البطالمة ، فيما عدا واحد منهم أو اثنين . وعاشوا فى معزل عن جمهور الاسكندرية، وسلموا من حركة الانتقاض على الثقافة الهلينية ، وكان ذلك من حظ « الاسكندرية » إذ استطاع محبو العلم اليونانى أن يجدوا عند هؤلاء علماً أعادوا به إلى المدينة ، بعد انقضاء زمن على ذلك التحول السياسى الذى حرم الاسكندرية مكانتها العلمية الممتازة ورفع من شأن روما .

وكان أول أستاذ اسكندرى علم الفلسفة ، بعد إذ انتقلت دراستها إلى روما ، « فيلو » اليهودى الاسكندرى ، تتلمذ عليه طلاب كان على يديهم أحياء العلم الوثنى الذى ناضل المسيحية وناضلته ، فى القرون التى أعقبت الميلاد، حتى عام ٣٩١ م ، وهو الوقت الذى اندك فيه صرح الوثنية نهائياً بتخريب « السرابيوم » .

الباب الثالث

الجامعة فى العصر الرومانى الاول

« الجامعـــة فى المتحف »

٤٨ ق.م — ٢٧٣ م.

الفصل الاول

حريق المتحف والمكتبة - مكتبة برجاموس - اصلاح التقويم الرومانى فى الاسكندرية - أخذ علم المساحة عنها - نقل النظام المالى وتقاليد البلاط الى روما - تقع مختصر للثروة العلمية اليونانية - الاسكندرية ما تزال وكر الدراسات اليونانية - انتعاش روما من الوجهة العلمية على حساب الاسكندرية - علماء عصر كليوباطرة - الأباطرة ومدى مؤازرتهم للعلم - الامبراطور كلوديوس والكلوديوم - سوسيجين واسترابو واجزنارقس - فسبازيان وهدريان وماركوس أورليوس واهتمامهم بالعلم - كراكلا ونكبة العلم الاسكندرى - الاركاديوم والايفانجيلوم.

دب الخلاف بين أبناء بطليموس السابع (أورجيتس الثانى)، وتآمر ابنه الاسكندر على أمه كليو باطرة فقتلها ومنذ ذلك التاريخ دب الانقسام الشديد بين البطالمة. وفى عهد بطليموس الحادى عشر تدخلت روما فى أمور البلاد حين لجأ هذا إلى أشرافها ليعينوه على استرداد عرشه.

ومنذ ذلك الوقت، وبسبب النزاع الذى قام بين كليوباطرة(١)

---

(١) كليوباطرة السادسة

وأخيها بطليموس على العرش ، أتيح للرومان أن يتدخلوا فى أمور البلاد بشكل عملى .

* * *

ولما انتصر «قيصر» على خصمه «پومپى» فى موقعة «فارسالياء» المعروفة ، هرب «پومپى» إلى مصر وقدر له أن يقتل فيها . وحضر «قيصر» الى الاسكندرية عام ٤٨ ق . م. مخفيا أغراضه الحقيقية الاستعمارية . ولكن المصريين رأوا فى مجيئه إلى بلادهم بجيش وأسطول اعتداء على العزة القومية ، فثارت ثائرتهم لذلك . وزاد الطين بلة أن كليوباطرة التى كانت قد هربت الى سوريا ، عادت فتسللت الى الاسكندرية منتهزة فرصة وجود قيصر بها ، متخذة منه عونا لها على أخيها ومناصريه من الأوصياء عليه .

* * *

وانفجر بركان الثورة دفعة واحدة ، وجهز الأوصياء على الملك الصغير جيشا يفوق جيش قيصر عددا ، وتحرج مركز قيصر ، وانحصر بين الثوار فى المدينة والبحر ، حيث كانت قطع الأسطول الرومانى راسية فى الميناء الشرقى . وفى هذا المأزق الحرج اضطر قيصر أن يشعل النار فى السفن ، لتمتد منها لهيب يصيب «البروكيوم» والغوغاء المجتمعين فيه وامتدت ألسنة النيران فى هذا الحريق التاريخى الى مخازن الذخيرة البحرية ، ثم اتصلت توا بالأبنية العظمى فى حى البروكيوم — فأصابت المتحف والمكتبة المحلقة به .

ومن أعجب الأمور ألا يشير الى هذا الحريق «ششرو» Cicero

المؤرخ المعاصر لهذا الحادث الجلل، وهو لا شك ممن كان يحزنهم أمر هذه الخسارة الأدبية. وسكت عنه أيضا مؤرخ آخر زار الاسكندرية بعد ذلك الحادث بخمس وعشرين عاما، هو «سترابون». والمقول أن سكوت «سترابو»، كان بتحريض من الحاكم الرومانى الذى حرص ألا تقرن خسارة جسيمة كهذه باسم قيصر الرومان. وأول ذكر صريح للحادث ورد على لسان الخطيب الرومانى «سنكا». ولا بد أن يكون هذا الحريق قد أحدث أعظم الخسائر الأدبية، بأعظم مكتبة عرفها العالم القديم على الاطلاق.

واستولى قيصر بهذا الحريق على حى البروكيوم — وعمد إلى الاستيلاء على الميناء الغربى، ولكن جمهور الاسكندرية قام وعلى رأسه الأميرة «أرسنويه» شقيقة كليوباطرة، يعبر عن روح السخط بين الاسكندريين. فأسرها «قيصر» على مشهد من أختها الملكة التى لم تحرك ساكنا.

ويذكر «پلوتارخ» أن «مارك أنطوان» أهدى كليوباطره مكتبة «پرجاموس» العظيمة لتعوض بها الخسارة الفادحة التى حلت بالاسكندرية من جراء الحريق الكبير فى البروكيوم.

ولا شك أنه كان لهذه الحوادث المؤسفة أثرها السيء على سير العلم فى الاسكندرية. ومهما يكن من الأمر فقد أفادت روما كثيرا على حساب الاسكندرية — على نحو ما سوف نراه مفصلا فيما بعد.

° ° °

ويذكرون أن قيصر استطاع بفضل علماء الاسكندرية وجامعتها

أن يصلح التقويم الرومانى ، وأن يحقق طول السنة الشمسية ، التى حددت فى الاسكندرية بثلثمائة وخمس وستين يوما وربع اليوم ، وعرف التقويم منذ ذلك الحين بالتقويم « اليوليوسى » نسبة إلى « يوليوس قيصر » . كما يذكرون أيضا أن قيصر نقل عن الاسكندرية «علم المساحة» الذى استخدم منذ ذلك الحين فى أغراض خاصة بتنظيم الامبراطورية الرومانية . وعن الاسكندرية استعار الرومان نظامهم المالى الذى عم استعماله أنحاء الامبراطورية كلها .

وتقوم الشواهد على أن الرومان نقلوا بعض التقاليد الهلينية من بلاط الاسكندرية إلى بلاط روما — وغدا الاسكندر البطل الهلينى ، مؤسس الاسكندرية المثل الاعلى الذى احتذاه الرومان فى إقامة صرح امبراطوريتهم العظيمة .

وبهذا التحول السياسى الذى أخضع مصر لروما . بدأت الاسكندرية عصراً جديدا من عصورها ، زالت فيه الصبغة الهلينية عنها زوالا يكاد يكون تاما .

ولا يذكر المؤرخون كثيرا عن حالة الاسكندرية العلمية فى هذا العصر سوى ما كان من أثر ذلك الحريق الذى قضى على المكتبة الكبرى ، وتلك الهدية القيمة التى قدمها (مارك أنطوان) من كتب مكتبة (برجاموس) لتعوض الخسارة الفادحة التى حلت بالمدينة .

° ° °

ويذكر المؤرخ (شارب) Sharpe هجرة نفر من العلماء اضطر

إلى ترك الاسكندرية بسبب اضطهاد « أورجيتس الثانى » وانتجاع جزر بحر « إيجية » التى اتخذها الفلاسفة الاسكندريون والعلماء مهربا من اضطهاده لهم .

ولاندرى مدى لانتشار العلم الاسكندرى على أثر ذلك ، لأن التاريخ لم يحدثنا عنه بأكثر مما يقرره « شارب » من ذيوع العلم على أثر هذا الحادث — على نحو شبيه بذيوعه فى أثر فتح العثمانيين للقسطنطينية .

وقد مر بنا ذكر ماكان لليهود من فضل الاحتفاظ ببعض من الثروة العلمية ، عندما سلموا من الحركة العدائية التى قامت تعارض كل أثر هلينى فى مصر . وبقى هؤلاء أمناء على العلم إلى ما بعد الميلاد ، حتى استطاع المشغوفون به أن يستردوا منهم الأمانة التى حملوها ، وأن يفيدوا العالم بها — وهكذا ظلت مكاتب اليهود الخاصة تحتوى كثيرا من كنوز العلم الاسكندرى ردحا من الزمن .

هذا وقد أودعت كتب « برجاموس » ، وهى ذخيرة علمية يونانية عظيمة القيمة فى مكتبة « السرابيوم » ، فأضافت كتبها إلى هذه المكتبة الفرعية التى كان قد أقامها « فيلادلف » إضافة ذات بال . وبقيت هذه المكتبة مرجع العلم الوثنى حتى أواخر القرن الرابع الميلادى .

على أن جامعة الاسكندرية لم تعدم من الأباطرة من ناصر الحركة العلمية بها . والمعروف أن الامبراطور « أوغسطس » (٣٠ق.م/٤١م) كان محبا لليونانية ، لغة وثقافة — اختار لحكم مصر واليا مشغوفا بالعلم محبا للأدب ، هو « كورنيليوس جالوس » ، وفى ولايته نالت الجامعة

قسطاً لا بأس به من العناية ، غير أنه تعوزنا الأدلة المادية على غناء الانتاج فى هذه الفترة .

وكان الامبراطور «كلوديوس» (٤١ / ٥٤م) محبا للعلم والتاريخ بصفة خاصة . وكان له شغف بالغ بدراسة اللغة اليونانية ، وضع مؤلفا فى تاريخ القرطاجنيين والأتروريين باليونانية — والمعروف أنه وسع الجامعة، وأسس معهدا جديدا أطلق عليه اسم «الكلوديوم» لعله كان معهدا يونانيا رومانيا يعنى بالتشريع الرومانى والدراسات اليونانية فى آن معا ، كان موقعه بالقرب من عمود دقلديانوس .

ooo

وممن عرفوا بأبحاثهم الفلكية فى هذا العصر «سوسيجين» Sosigène

ومن المؤرخين الثقاة الذين أنجبهم هذا العصر «سترابون» Strabon الاغريق الذى جال فى كثير من أنحاء الامبراطورية الرومانية، وحضر إلى مصر وزار دلتاها وصعيدها ، وصحب واليها فى جولاته فى ربوعها مكرما ، كتب فى الجغرافيا كما كتب فى التاريخ . وعليه اعتمد «پلوتارخ» ، «وجوزيفس» اليهودى — «ويوزيب» من بعدهما . ومن أسف أن كثيرا مما كتب فى التاريخ قد هلك ، ولم يصلنا منه شىء . وكل اعتماد المؤرخين على «سترابون» إنما هو اعتماد فى الحقيقة على جغرافيته، لا على تاريخه .

ooo

وحاضر فى الاسكندرية «اكزنارقس» Xenarchus من اشياع

أرسطو ، درس فلفسته للاسكندريين في هذا العصر — وعليه تتلمذ «أرسطون» Ariston الجغرافي الفيلسوف، الذي برع في فلسفة «أرسطو».

° ° °

وفي عصر «فسپازيان» (٦٨ / ٧٨ م) ، وكان محبا للعلم والمعلمين، تجلت عناية الامبراطور بجمع الكتب لمكتبة العاصمة الرومانية ، ويذكرون أنه أرسل إلى الاسكندرية من ينسخ الكثير من كتبها لتزويد مكتبة « روما » بنفائس العلم اليوناني ، وفي هذا ما فيه من الاشادة بقيمة كتب مكتبة الاسكندرية في هذا العصر الذي لا يبعد كثيرا عن عهد إحراق المكتبة الكبرى . ومما لا شك فيه أنه قد أصبحت للاسكندرية المكانة الثانية بعد «روما» في كل شيء من سياسة أو علم ، ولم تعد مصدر النشاط الفكري في العالم القديم ، وإن ظلت وكرا من أوكاره على كل حال .

وعني كل من الأباطرة الذين حكموا من القرن الأول حتى منتصف القرن الثاني بأمر العلم ، على نحو ما عني به «فسپازيان» . والمعروف عن الامبراطور «هادريان» (١١٧ / ١٣٨م) أنه كان من محبي العلم ، المؤلفين باللغة اليونانية واللغة اللاتينية ، وانه أسس المكتبات في روما وأثينا ، واستمع إلى علماء الجامعة في الاسكندرية عند زيارته لها — حرص على أن يكون العدد الأكبر من أعضاء هيئة التدريس في الجامعة من أعوانه ، بغض النظر عن مقدرتهم العلمية .

ولم يقل التفات الامبراطور المستنير « ماركوس أورليوس » Marcus Aurelius (١٦١ / ١٧١ م) إلى الجامعة وعلومها ، عما كان

من سلفه — فقد كان هو فيلسوفا وناقدا من نقاد الأدب، وحاميا للعلم وأهله.

على أن الاسكندرية وجامعتها قد لقيتا هواناً شديدا على يد الامبراطور الموتور كراكلا (٢١١ / ٢١٧ م)، فقد كانت فى نفسه موجدة بالغة على الاسكندريين عامتهم وخاصتهم. وفى عهده فقدت المدينة حريتها، وأحصيت حركات الناس وسكناتهم، وأغلقت معاهد العلم، ولا سيما القاعة العامة «قاعة السّستيا»(١)، وشرد رجال العلم ونكل بهم، ولاسيما أتباع أرسطو من المشائين. ويرى الدكتور «بوتى» Botti أن الجامعة التى كان قد أنشأها البطالمة فى حى البروكيوم (فى المتحف الاسكندرى)، قضى عليها فى هذا العهد القضاء الأخير، وحلت محلها فى الاضطلاع بمهمة التعليم مؤسسة «كلوديوس» (الكلوديوم) سالفة الذكر، ثم مؤسسة «أركاديوس» (٣٩٥/٤٠٨ م) الذى أطلق عليها اسم «الأركاديوم»، ثم مؤسسة «چستنيان» (٥٢٦/٥٦٥م) التى عرفت باسم «الايڤانچيلوم».

---

(١) وهى البقية الباقية من مبانى المتحف الاسكندرى بعد حريق ٤٨ ق. م.

« الجامعة فى المتحف »

٤٨ ق . م — ٢٧٣ م

الفصل الثانى

بولكس الخطيب - هليودور الشاعر - صفة الشعر فى العصر الرومانى - دنيس الاسكندرى - كلود جالين الطبيب - الدراسات الطبيعية - « منيلاس » و « سيرنوز » الهندسيان - بابس يقرب ارشميدس وإقليدس من أفهام الناس - ديوفانتس العالم بالهندسة والجبر - كلوديوس بطليموس الجغرافى - أبين المؤرخ - أدباء لغويون ومعلقون - « ثيون » أستاذ الآداب اليونانية بالجامعة والعالم فى الجبر - ابنته الفيلسوفة هباشيا - أبولونيوس ديوسكوليس الأجروى - مذهب الأفلاطونية الحديثة - سكاس وأفلوطين - بروفيرى (فورفيروس) - سنت أثناس من آباء الكنيسة يعارض الوثنية الحديثة .

ربما كانت الحياة العقلية فى هذا العصر قوية فى الاسكندرية ، العاصمة الفكرية ذات المكانة الثانية فى العصر الرومانى بعد روما . ومما يؤسف له أن الأدلة على قوة هذا العصر أو ضعفه تعوزنا ، والذى لدينا منها ليس إلا نتفا لا تقوم دليلا متماسكا على قوة العصر أو ضعفه .

حقا لقد وجدت الجامعة عناية من بعض القياصرة مثلما وجدت من عواهل البطالمة ، سيما وقد أصبح القياصرة حماة للعلم بحكم ما آل اليهم من تراث . ولما كانت الاسكندرية تحكم من روما ، وكان القياصرة يقيمون هناك ، فقد وكل أمر حماية العلم إلى حكام الأقاليم ، وهؤلاء عرفوا

بشىء غير قليل من القساوة وغلظة الطبع ، أقصى عنهم رجال العلم إقصاء . ورغم هذا فقد كان بالمدينة ذلك العنصر المتأدب ، الذى تابع الحركة العلمية وقصد إلى الانتاج الحر — واتسمت الحركة العلمية بمنافسة غير بريئة ، ألحقت بالعلم صغارا وضعفا شديدين . وكان أعضاء المتحف فى هذا العصر يقيمون فيه ، ويتمتعون بمزايا مادية ، ويتملقون القياصرة بالمديح يتردد فى أشعارهم وخطبهم .

وتدل الوثائق المحفوظة من القرن الثانى للميلاد على أن جمهرة من علية القوم ورجال الدين والضباط الرومانيين كانوا جميعا أعضاء شرف فى المدرسة الفلسفية بالجامعة . وكان عميد الجامعة فى هذا العصر موظفا حكوميا ذا كفاية خاصة فى الادارة ، ولم يكن يشترط فيه أن يكون ذا كفاية علمية فائقة .

وكان الامبراطور « هدريان » يختلف الى المتحف ، ويشترك فى المناقشات العلمية والأدبية كاحد الطلاب ، وكان اعتماد هذا العصر على مكاتب السرابيوم والقيصريون والمكاتب الخاصة ، فلما أن تلفت كتب المعابد من انقضاض المسيحيين عليها ، لم يبق ما يعتمد عليه سوى المكاتب الخاصة التى كانت لنفر من محبى العلم - وقد وصلتنا أوراق بردية تحمل آثارا أدبية من هذا العصر والعصر السابق عليه .

وبقيت الاسكندرية كعبة طلاب العلم من كل فج ، كما كانت فى عصرها الأول ، رغم انصراف الأنظار عنها إلى روما ، وذلك بالنسبة للمكانة الرفيعة التى كسبتها لنفسها ولم تستطع الأيام أن تنزعها .

هذا — وقد كان لمدينة « نقراتس » الاغريقية فى غرب الدلتا فضل

إبراز بعض رجال الأدب أمثال « پولكس » Pollux الخطيب الذى أنشأ له الأمبراطور «هدريان» كرسياً لتدريس فن الخطابة فى الجامعة، وهو أيضاً عن اشتهروا بمعرفة تامة لقواعد اللغة اليونانية .

° ° °

نعمت البلاد فى بحبوحة من الحرية فى العصر الاغريق ، وكانت لتلك الحرية مزاياها التى عادت على الحركة العلمية فأكسبتها طبيعتها الحرة ، وباستيلاء الرومان على مصر، أخذت روح الانتاج تضعف بها تدريجاً ،لانعدام الحرية السياسية، وشعور الاسكندريين بمهانة ليس من شأنها أن تساعد على الانتاج . وشابهت الاسكندرية فى هذا العصر «أثينا» إبان خضوعها لروما — إذ شغلت بمصيرها السياسى، أكثر مما شغلت بأمر العلوم والآداب .

وأشهر انتاج متوارث عن النصف الأول من القرن الأول الميلادى ، بعض كتابات أدبية عن علاقة حب نشأت بين « نينوس » Ninus و« سميراميس » مدونة على قطعة من البردى ، وبعض أشعار تعرف « بالأثيوبيات » (Ethiopiques) لهليودور ، (١) كتبها فى صعيد مصر .

ومهما قيل فى الانتاج الشعرى البطليموسى ، فقد كان على كل حال محتفظاً بأهم مزايا الشعر ، من طلاوة فى العبارة ، إلى جدة فى الموضوع ، الى غير ذلك من مزايا الشعر الصحيح . أما فى هذا العصر فقد تأخر الشعر تأخراً ظاهراً ، وانعدم فيه التجديد ، وهو

---

(١) Heliodore D'Emèse

وأن جرى فى موضوعه على سنن الماضين ، إلا أنه حاكاهم محاكاة شكلية ، لم تنتج فى النهاية أدبا حقاً .

ومما يعرف عن هذا العصر أن كتابه كانوا من غير الاسكندريين. كتب منهم فى عصر هدريان « دنيس » الاسكندرى (Denys) الذى نظم بعض الحقائق الجغرافية فى قالب شعرى ، والذى وصف نقلا عن خريطة بطليموس ، أرض ليبيا ، ومعظم أجزاء أوربا وآسيا . وبقيت هذه المنظومة حتى نقلها الى النثر اللاتينى « أفينوس » (Avienus) « وبرسين » Priscien .

تقدمت فى زمن البطالمة دراسة الطب ، وعرف التشريح ، وجاء هذا العصر فتابع دراسة الطب والتشريح . وفيه شرح « كلود جالين » Claude Galien المولود فى « برجاموس » ، والمتوفى سنة ٢٠٠ م فى روما ، بعضاً من الحيوانات والخنازير والقردة والأسماك والأفاعى ، ووصل من ذلك إلى نتائج قيمة زادت من مكانة الاسكندرية فى هذه الناحية .

وقد انتهت إلى العصر الحديث رسالتان فى الطب من هذا العصر ، واحدة مأثورة عن الطبيب « بالكى » ، والأخرى تحتوى على مبادىء واضحة لعلم « الجراحة » لمؤلف مجهول الاسم . وعرفت الاسكندرية فى هذا العصر بوجود بعض الاخصائيين فى معالجة الأورام وتجبير الكسور .

٭ ٭ ٭

وازدهرت فى العصر الرومانى بوجه عام الدراسات الطبيعية والرياضية . ولولا احتقار الرومان (وهم شعب عملى) للعلوم البحته ، اللهم إلا ما له مساس باقامة صرح الامبراطورية — لحصلنا من مدرسة الاسكندرية الطبية على نتائج أكثر قيمة مما انتهى الينا .

وأنجبت الاسكندرية فى أواخر القرن الأول الميلادى «منيلاس» Menelas وهو هندسى صرف جهداً كبيراً فى دراسة « الدائرة » ، و « سيرنوز » Sérénos المهندس الذى خطط مدينة « ارسنويه » (السويس) ، متخذاً من الهندسة التى حذقها أساساً عملياً لانشاء المدينة — « وپاپس » Pappus أظهر شخصية علمية فى أواخر القرن الثالث الميلادى ، وينسب اليه عمل من أجل الأعمال العلمية ، هو تنظيم المسائل الهندسية الموروثة عن سالفية من المشتغلين بهذا العلم تنظيما دقيقاً ، والتعليق عليها وشرحها . وهو يعتبر بحق أول من قرب « أقليدس » و « أبولونيوس » و « أشميدس » إلى أفهام الناس . وكان بدوره مبتدعا ومكتشفاً لعدة فروض علمية ، بقى بعضها قائماً يمهد السبيل لفلسفة « ديكارت » .

° ° °

ومن أعلام القرن الثالث ، «ديوفانتس» Diophantes العالم بالهندسة والجبر ويدين له العلم ، ولاسيما علم الجبر بأعظم الفضل ، و«كلوديوس بطليموس» الذى استوعب علم سابقيه ومعاصريه فى الجغرافيا وأضاف اليهما جهوداً شخصية فى موضوعها ، وهو استاذ من

اساتذة العرب ، نقلوا عنه تحت اسم « المجسطى » رسالة فى « الفلك » وهى رسالة جمعت كل ابحاثه التى أجراها فى معبد (كانوب) والتى أخذها عن « هپاركس » — وله جداول فى حساب الخسوف فى رسالة « التترابيلوس » Tetrabilos — ولم تقف معارفه عند حد الجغرافيا والفلك ، بل تناولت فن الموسيقى ، فوضع فيها رسالة فى (الهارمونى) تعتبر إحياء وإضافة لنظرية « ارستوكسين » Aristoxine ، وله رسالة مترجمة إلى اللاتينية عن إسقاط الكرة : (عمل مسقط لها) Sur le déploiement de la surface de la sphère ؛ واعظم آثاره على الاطلاق كتاب « الجغرافيا » وفى هذا السفر دون بطليموس كثيراً من آثار السابقين ولا سيما آراء « مارينوس الصورى » Marin de Tyr الذى جمع معلوماته من الملاحين ومن تقارير البعثات التجارية والحملات الحربية .

وظل كتاب « اجاثوديمون » Agathodaemon الذى تنسب إليه معظم المخطوطات الجغرافية خرائطها ، إلى جانب مصنفات بطليموس فى الجغرافيا عمدة المشتغلين بهذا العلم فى العصور الوسطى .

ويعتبر بطليموس من أوائل واضعى الموسوعات ، وقد كان شغوفاً إلى جانب الجغرافيا والفلك بدراسة التاريخ — وله فيه جداول زمنية عن تواريخ الملوك Canon des Rois وهى سجل لتواريخ ملوك اشور وبابل وميديا وفارس وأباطرة الرومان حتى عصر « انتونينس پيوس » Antoninus Pius غير أن ما كتبه فى التاريخ

لا يتسامى إلى ما وضع فى علمى الجغرافية والفلك .

ومن أشهر المؤرخين فى هذا العصر «أپين» Appien الذى كان أول أمره محامياً ، وانتقل إلى روما حيث أصبح حاكما لاحدى المقاطعات الامبراطورية، ومات فى حكم «ماركوس أورليوس» . كتب تاريخاً حافلا ، لم يصلنا الا فى نصف حجمه ، ولم تتجاوز حوادثه عصر «هدريان» — وهو تاريخ يعالج القوميات ، كما يتناول الشخصيات البارزة . «وأپين» لا يتصل كثيراً بالعلم الاسكندرى ، وضع تاريخه هذا باللاتينية والاغريقية . ولعله كتب هذا التاريخ فى مرحلة التحول ، أى فى الوقت الذى تحول فيـــه العلم من الاسكندرية إلى روما ، ومن صبغته اليونانية إلى صبغة لاتينية رومانية ، وهو مؤرخ من الطبقة الأولى .

° ° °

وانتج البحث الاسكندرى فى هذا العصر افذاذا من اللغويين والبيداجوچيين ونقاد الآداب والاطباء والمهندسين والرياضيين والفلاسفة .

ونفخت الاسكندرية من روحها المنتجة فى البلاد التى أخذت عنها وأهمها «روما» — فهذا «فيلوكسين» «وپامفيل» معاصره الذى جمع التعبيرات النادرة فى اللغة والأدب الكلاسيكى ، و«أرستونيكوس» Aristonicos الذى علق على «هومر» وشرح وأكمل ونقد الحواشى التى وضعها «ارستاركاس» من قبل .

وفى نفس العصر قام «ثيون» Theon بوضع مفردات الرواية الجادة والرواية الهازلة ، وقد أسماه المؤرخ «تيبير» Tibère «ناقوس العالم» يريد بهذه التسمية الاشارة إلى نباهة ذكره .

وكان لثيون كرسى فى الجامعة لتدريس الآداب اليونانية، وهو من العلماء المكدودين فى الدراسة والبحث . ولم ينصفه المؤرخ «أپين» Appien حين وصفه بالطبل الأجوف ، وضع فى التاريخ شيئاً مشكوكا فى قيمته — وله شرح لمفردات هومر Glossaire homérique ، وقد أنحى على يهود مصر فى كتاباته ، ولذلك انبرى له « چوزيفس » المؤرخ اليهودى بالرد المفحم فى فصل من فصول تاريخه .

و « لثيون » مجهودات تذكر فى علم الجبر ، سوف يأتى ذكرها فى موضع آخر ، ساعدته فيها ابنته « هيپيشيا » الفيلسوفة الوثنية التى اضطهدها مسيحيو الاسكندرية ، وقتلوها .

ومن أعلام هـــذا العصر « أپولونيوس ديوسكوليس » Apollonios Dyscoles الذى علم «الأجرومية» بطريقة النقد التى شاعت فى القرن الثالث الميلادى ، وله عدة مقالات فى أنواع الكلمة Parts of Speech وفى مصطلحات اللغة Syntax ما تزال باقية للآن .

* * *

وفى هذا العصر نضج مذهب الاسكندرية فى الفلسفة ، وهو فى مجموعه فلسفة أخلاق وتصوف ، أخذ على عاتقه اعداد النفس إلى حالة تجرد وتفكر فى ذات الله ، مستعيرا بذوره الاولى من تعاليم اليهود الدينية ومن فلسفة أفلاطون .

وزعيم هذه المدرسة الفكرية اللاهوتية «فيلو».

ولد فيلو اليهودى سنة ٢٠ ق.م ، وتغذى من لبانات الأدب الأغريق ، ودرس الفلسفة الأفلاطونية ، وغاص غوصاً شديداً فى دراسة «العهد القديم» ، فاجتمعت له من كل ذلك فلسفة مستمدة من الكتاب المقدس ومن تعاليم «أفلاطون» ، وامتزج الجانبان فى عقله امتزاجاقويا ، وكونا نظاماً فلسفياً يهودياً يونانياً .

وكان «فيلو» يمتاز بعلم غزير وأخلاق فاضلة ، وحياة كلها طهر وتقديس هيأت له مكانة سامية بين علماء عصره . شغل أول أمره بتدريس تعاليمه شفوياً فى الأوساط الخاصة والعامة ، ثم دونها رغبة منه فى اثباتها واذاعتها . وبقى من عمله الضخم بعض النسخ الخطية كاملة ، وبعض الآثار المتفرقة ، وترجمت مخلفاته إلى اللاتينية .

وعلق فيلو على أسفار يهودية يجمعها اسم «البنتاتيك» Pentateuque (أسفار موسى) ، منها سفر خاص بالخليقة منذ وجودها إلى تأسيس ملك بنى اسرائيل ، وسفراً آخر خاص بخروج بنى اسرائيل من مصر ، وثالث عن الأعداد ، هو استعراض لقوى العالم المادية المختلفة — وهى بالاجمال مجموعة أقوال دينية وفلسفية وتاريخية مأثورة.

وكتب «فيلو» رسائل عن حياة البطارقة ، وحياة موسى عليه السلام ، ورسائل أخرى عرض فيها لبعض الفلسفات الرفيعة والأخلاق الفاضلة ، بلهجة وميل مسيحى ظاهرين ، وقرأ آباء الكنيسة تعاليم «فيلو» فاعجبوا بها وشاعت بينهم ، ومن ثم تأثرت المسيحية «على الأرجح» بفلسفة أفلاطون قبل أن تظهر فى الوجود فلسفة الأفلاطونية

الجديدة — وبقول آخر ، قبل أن يتناول « أفلوطين » فلسفة « فيلو » بذلك التنظيم الذى جعل منها نظاماً فلسفياً تصوفيا .

وأسلوب « فيلو » أول ضرب من ضروب الكتابة التعبدية ، نقلته المسيحية فيما نقلت . وتعرض فيلو لحقوق الأفراد ، فكتب فيها وفى المساواة الاقتصادية ، كما تناول فكرة الاحسان .

ولما انتشرت المسيحية فى مصر فى غضون القرن الثالث الميلادى انتشارها الواسع ، نشأت فى الاسكندرية حركة معارضة للمسيحية ، تزعمها « أمونيوس سكاس » المؤسس الحقيق للمدرسة الفلسفية المعروفة بالأفلاطونية الحديثة — وتلميذه « أفلوطين » .

تتلمذ « أفلوطين » أحد عشر عاما على « سكاس » (٢٤٣/٢٣٢ م) وهو مصرى النشأة والتربية والنزعة ، وفلسفته مصرية صميمة .

° ° °

ونافست الأفلاطونية الحديثة الديانة المسيحية منافسة حادة ، وكان من أثر هذه المنافسة تلك الثورات المتوالية التى شهدتها الاسكندرية ، معقل الديانة ومعقل الفلسفة فى وقت واحد .

وتشيع لهذه الفلسفة تلاميذ أشهرهم « بروفيروس الصورى » ، الذى كتب مؤلفه خصيصاً لمناوأة المسيحية ، وكتابه هذا أكبر عمل عدائى ضد المسيحية . وكان « بروفيروس الصورى » خصما عنيدا للمسيحية فى القرن الثالث الميلادى .

وحوالى نهاية القرن الرابع للميلاد ، ضعفت الوثنية ، ولم تقو العقائد المصرية القديمة على الوقوف فى وجه المسيحية ، وأخذ بعض آباء الكنيسة

يتحدون الوثنية الهلينية ، ومن أشهر هؤلاء «سنت اثناس» الذى كتب عام ٣١٨ م كتابه ضد الوثنية الهلينية Discour contre les Hellènes — ومن ذلك الحين أصبحت مصر معقلا مسيحياً منيعاً ، وغدت لها مكانة ممتازة بين الأمم المسيحية .

° ° °

الفصل الثالث

« الجامعة فى السرابيوم »

(من ٢٧٣ — ٣٩١ م)

معبد السرابيوم — المكتبة التى الحقت به — العلم يؤول اليه مرة بعد حريق المتحف ٤٨ ق.م — يؤول اليه مرة أخرى فى عهد أورليان ٢٧٣ م — السرابيوم كجامعة — النزاع بين المسيحية والوثنية — أثره فى السرابيوم — العرب والسرابيوم .

فى المكان الذى لا يزال يشاهد فيه عمود « دقليديانوس » فى الاسكندرية ، كان يقوم معبد عظيم يعرف باسم معبد « السرابيوم » حيث كان يمجد المعبود « أبيس » فى العصر الاغريقى . يذكر المؤرخون أنه كان يقوم على مرتفع من الصخر الطبيعى — وصفه الدكتور « بطلر » وصفاً دقيقاً مسهباً فى كتابه « فتح العرب لمصر » .

كان هذا المعبد يقع فى حى « راقودة » الحى الوطنى فى المدينة ، وينسب إلى بطليموس فيلادلف أنه أنشأ به مكتبة تذكر أحياناً باسم المكتبة الكبرى (١) وعرفت أيضاً باسم المكتبة « الوليدة » تمييزاً لها عن المكتبة الكبرى التى كانت ملحقة بالمتحف فى حى « البروكيوم » ، والتى قضى عليها حريق سنة ٤٨ ق.م.

ويقال أن الذى أنشأ هذه المكتبة الوليدة هو بطليموس

(١) وهى ليست المكتبة الكبرى التى أحرقت فى حصار قيصر للاسكندرية — فتلك كانت فى « البروكيوم » وهذه المكتبة التى يذكرها بطلر من الخير أن تسمى المكتبة الفرعية أو الصغرى — انظر ترجمة الأستاذ محمد فريد أبى حديد لفتح العرب لمصر (ص ٣٥٧)

«فيلادلف»(١) رغبة منه فى تثقيف جمهور الاسكندرية فى حى راقودة الوطنى . وهناك خلاف فى الغرض من انشائها ، أحقا كان لتثقيف العامة من الوطنيين أم كانت مكتبة «السرابيوم» هذه مكتبة خاصة ؟ يميل « برناردى » و « سوزميل » إلى اعتبارها مكتبة عامة أنشئت لسكان ذلك الحى . وينكر عليهما « مافى » فى كتابه « امبراطورية البطالمة » ذلك الزعم — لاعتقاده أن البطالمة لم يقصدوا إلى تثقيف الشعب الاسكندرى خارج حدود المتحف .

وسواء أريد بهذه المكتبة أن تكون عامة أو خاصة ، فما لاشك فيه أنها أفادت العلم عند استقراره فى معبد « السرابيوم » .

وفى عهد « كليوباطرة » أهدى « مارك أنطوان » مصر مكتبة ملوك « برجاموس » ويرجح أن تكون كتب هذه المكتبة قد أضيف بعضها إلى مكتبة السرابيوم ، والبعض الآخر أودع فى خزائن معبد القيصريون .

ومما حققه الدكتور « بطلر » أنه فى أوائل العصر المسيحى أنشئت مكتبة لتخلف مكتبة المتحف المحترقة ، أودعت كتبها فى (السرابيوم) أيضاً ، وعرفت باسم المكتبة الوليدة (٢) . واذن يكون قد اجتمع للسرابيوم مكتبات ثلاث : الأولى مكتبة «راقودة» التى أنشأها فيلادلف ، والثانية مكتبة «برجاموس» كلها أو بعضها ، والثالثة هذه المكتبة المتأخرة التى أريد بها أن تعوض الخسارة الفادحة التى حلت بالعلم من جراء حريق البروكيوم .

---

(١) راجع صفحة ٥٩ (٢) هذه المسألة محل خلاف شديد بين المؤرخين

وايداع هذه الكتب فى « السرابيوم » دون المتحف كبير الدلالة على أن أبنية المتحف لم تعد صالحة لأن تكون مكاناً للدراسة أو الاطلاع ، وأن « السرابيوم » أخذ يحل محل المتحف فى الاضطلاع بهذه المهمة ، وأن العلم الاسكندرى أصبح يلتمس فى بعض جهاته ، فى المكان الذى أعد فيه لحفظ الكتب ، أو على مقربة منه .

° ° °

ونحن لا نرى فى وصف « بطلر » للسرابيوم ما يفيد أن المعبد كان يحتوى على قاعات خاصة بالدراسة العامة ، أو أروقة لسكنى العلماء والطلاب ، اللهم إلا بعض العبارات التاريخية التى يوردها بطلر عن « أفتونيوس » الذى زار السرابيوم ، وعن « روفينوس » الذى شهد تخريب المعبد ، فأولهما يلحق المكتبة بالمعبد ، وثانيهما يرى أن حجرات الدروس كانت على الأرجح موجودة فى الأبنية الملحقة بالمعبد من الخارج .

ولم يرو كتاب النصف الأول من القرن الخامس الميلادى شيئاً قاطعاً صريحاً فى أمر المكتبة ، وأكثرهم وضوحاً هو « تيوفيلوس » الذى يذكر أن الأبنية المحيطة بالمعبد بقيت بعد التخريب قائمة بما كان فيها من قاعات الدروس وأورقة السكن ، أما المكتبة ، فلأنها كانت ملحقة بأبنية المعبد ذاته ، فقد دمرت معه ، وإن كان قد نجا شىء من كتبها فان بعض المؤرخين(١) يعتقد أن تلك البقية أرسلت إلى روما أو القسطنطينية — بينما يرى البعض الآخر(٢) أن المسيحيين دمروا

(١) نوربسون بك (٢) جبون Gibbon

المكتبة عن آخرها فى ثورتهم على الوثنيين بقيادة « تيوفيلوس » وهم بذلك ينفون احراق العرب لها .

ويرى ماتر Matter غير هذا الرأى (ويؤيده دكتور « بوتى » Botti) يرى أن التخريب الذى لحق « السرابيوم » كان يسيراً بحيث أمكن اصلاحه . وبقى « السرابيوم » على هذا قائماً يحل محل « المتحف » فى أداء مهمته العلمية ، حتى الفتح العربى .

ويشير العرب إلى « بيت الحكمة » أو « قبة أرسطو » التى وجدوها ملحقة بأبنية السرابيوم (١) ، وفى هذه الاشارة دلالة على أن فلسفة أرسطو كانت تدرس فى « السرابيوم » كما كانت تدرس من قبل فى « المتحف » — ومن عجب أن يذكر « ماتر » Matter عن « بنيامين التوديلى » أنه كان لا يزال يشاهد فى الاسكندرية فى بعض أطرافها (فى السرابيوم ؟) فى القرن الثانى عشر للميلاد (كذا) ! مدرسة لأرسطاليس هى بناء مكون من عشرين ساحة ، تتصل برواق ذى عمد ، يذهب اليه الناس من كل أنحاء العالم يتلقون حكمة « أرسطاليس » .

ولا نرى مناصا من الاعتقاد بأن العلم الاسكندرى وجد سبيله بعد حريق البروكيوم سنة ٤٨ ق.م إلى مكان آخر أنسب لاستقراره . ولم ينتقل إلى السرابيوم من هذا العلم على الأرجح إلا المكنون منه بين دفات الكتب أول الأمر — أما العلم على

---

(١) انظر وصف الاسكندرية عند الفتح لبطلر

أفواه العلماء ، فقد بقى متداولا فى «السيستيا» أو القاعة العامة التى بقيت قائمة بالمتحف بعد حريقه الكبير — ظلت قائمة إلى عهد الامبراطور «كراكلا» الذى أنزل بالمدينة نوازل عظيمة ، كان منها منعه للناس من الاختلاف إلى تلك القاعة العامة للدرس ، وقد تم تدمير بقية المتحف عام ٢٧٣م على يد «أورليان» ، وذهبت السيستيا ، وبذهابها لجأ أعضاء المتحف الاسكندرى إلى السرابيوم ، أو فروا إلى البحر .

* * *

وعانى العلم الاسكندرى أزمة حادة بسبب اصطدامه بالمسيحية ، فكان من ذلك نزاع عنيف بين العلم الوثنى فى معاقله الوثنية وبين الدين الجديد .

وشهدت الاسكندرية فى القرون التالية للميلاد أشد المحن والثورات التى كان من أثرها ضياع كثير من الثروة العلمية ، واتجهت ثورات المسيحيين على الوثنيين إلى «السرابيوم» باعتباره معقلا هاما من معاقل الوثنية ، كما اتجهت دون شك إلى غيره من المعابد . وأشبع هؤلاء المسيحيون غيظهم بتدمير الآثار الوثنية . وأقاموا على انقاضها كنائس مسيحية ، وعبثوا بمؤلفات الوثنيين ، أو حاولوا أن يتخذوا منها عونا وسنداً للدين الجديد .

ومما يؤسف له أن هذا النزاع كان محتدما لايعرف سبيلا إلى الرحمة والشفقة ، مثل المسيحيون فيه بالوثنيين المشتغلين بمسائل العلم أبشع تمثيل . وكان تمثيلهم بالفيلسوفة «هيباشيا» Hypatia ابنة «ثيون» العالم فى الرياضيات والجبر ، ومعاونته فى أبحاثه العلمية ، وزعيمة

من زعماء الأفلاطونية الحديثة بالغاغاية القسوة — فقد اتهمها غوغاء المسيحيين بالسحر وقتلوها شر قتلة، ويعتبر تمثيلهم بها مضرب الأمثال فى الوحشية، فقد مزقوا جسمها تمزيقا فى أحد محاريب معبد «القيصريون»، لا لذنب سوى أنها وثنية العقيدة، مشتغلة بمسائل العلم والفلسفة.

وأشد هذه الثورات هولا الثورة التى تزعمها «تيوفيلوس» فى أواخر القرن الرابع (٣٩١ م)، وفيها حطم المسيحيون المعبد تحطيما تاما لم يبق على المكتبة، وأن أبقى على بعض الأروقة الخارجة.

° ° °

بهذا نكاد نجزم بأن آثار العلم الاسكندرى فى السرابيوم، وهى كل ما كان قد بقى من عتاد الاسكندرية العلمى، قد تلاشت فى هذا الخلاف المستحكم انتقاما من الوثنيين، وأن السرابيوم كجامعة لم يعد له وجود بعد الثورة التى قادها تيوفيلوس، والتى لم تبق على شيء من الكتب ولم تذر وأن امتداد عهد الجامعة إلى الفتح العربى أمر يصعب تصديقه؛ إلا إذا قامت عليه الأدلة المادية.

أما عن المكاتب، فقد ظل بعض المؤرخين على عقيدتهم — رغم ما أثبتت الأدلة القاطعة من عدم وجود مكتبة عامة بالاسكندرية عند الفتح — بأن العرب وجدوا مكتبة وأحرقوها بعد استئذان عمرو بن العاص للخليفة عمر بن الخطاب فى شأنها. ونحن نحيل القارىء إلى القسم الثالث، وهو القسم الخاص بالشروح والتعليقات، فهو واجد فيه بعض ما يشفى الغلة فى مسألة كثر حولها اللغط — هى مسألة اتهام العرب بحرق مكتبة الاسكندرية.

على أن الصراع الذى احتدم بين المسيحين والوثنيين كان غرضه الأول القضاء على الوثنية باعتبارها دينا — ولكنه ما لبث أن أصبح يرمى إلى خلق جمهرة من العلماء المسيحيين الذين يرغبون فى حذق فلسفة اليونان ، ابتغاء استخدامها فى الترويج للدين المسيحى ، إذ لم يكن لهم مفر ، وهم فى الاسكندرية ، موطن الحياة العقلية ، من أن يتسلحوا بمنطق اليونان و فلسفتهم وعلومهم ، ليكونوا بذلك أقدر على الاقناع .

والحركة الفكرية التى خلصت لهذا العصر لم تكن حركة ينتظمها سياق واحد ، ولم تخضع لاشراف واحد ، على نحو ما تخضع الحركات العلمية فى الجامعات . ومهما يكن من الأمر ، فقد أخرجت هذه الحركة «سنت كلمنت» الاسكندرى Saint Clement و«أوريجين» Origene والبطريق « تيوفيلوس » Theophilos ، وكانوا جميعا حربا على الوثنية . وينسب إلى الأول منهم أنه درس الفلسفة ، وجال فى بلاد اليونان وايطاليا ، وبلغ الاسكندرية وأقام بها ، وتزعم المدرسة المسيحية المتفلسفة فيها .

الباب الرابع

الجامعة فى العصر الرومانى الثانى

(فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين)

هل مازال الجامعة والمتحف كائنين؟ - رأى بيير جوجيه Jouget - علماء فى اللغة والفلسفة (ثيون) وهباشيا - وثيقة بردية هامة - أساتذة وثنيون فى الجامعة يلقنون علومهم للوثنيين - اضطهاد (زينو) للوثنيين - حركة نهوض مسيحية - حنافيلونس العالم بالتوحيد معارضته للأفلاطونية الجديدة - معارضة البطريق بنيامين له - تأرجحه لعدة حوادث - اسطفان الفيلسوف يحارب عقيدة « الطبيعة الواحدة » - أثر حرية الفكر فى انضاج الشعور القومى - حركة النهوض القبطية - ظهور أدب قبطى وفن قبطى .

مما لا شك فيه أن « المتحف » خرب بعض الشىء فى حريق ٤٨ ق.م ، وأنه إن ظل باقيا إلى أيام عهد « كراكلا » يختلف اليه الناس طلبا للعلم ، فان هذا الامبراطور منع الجماهير من الذهاب اليه وأغلق قاعة « السيسيتيا » عام ٢١٧ للميلاد — وتم تخريب المتحف فى عهد الامبراطور «أورليان» سنة ٢٧٣ للميلاد ، وفر علماؤه إلى « السرابيوم » حيث احتموا فيه . والمفهوم من هذه الحوادث الثابتة أن المتحف لم يعد له وجود بعد عام ٢٧٣ ميلادية .

ويعجب الانسان عند ما يرى بعض المؤرخين يصرون على بقاء « المتحف » والمكتبة الملحقة به حتى زمن متأخر كهذا ، مع قيام الأدلة

على فناء المتحف والمكتبة الملحقة به ، وانتقال الحركة العلمية إلى السرابيوم .

يقول «پيير چوجيه» ما خلاصته أن الأسكندرية بقيت بفضل المكتبة والمتحف حاضرة العلوم والآداب ، ووسطا شهيرا بالبحث والاستقصاء العلمي الدقيق .

وفى العصر «البيزنطى»(١) ، احتفظت جامعة الأسكندرية بنفس المكانة الممتازة التى كانت لها فى سابق الزمن ، وكانت متاحف الحاضرة المصرية وكلياتها ذائعة الذكر فى كل أنحاء الأمبراطورية .

"Capitale savante, lettrée et artiste, Alexandrie avait été durant des siècles, grace à sa **Bibliothèque** et à son **musée,** le centre d'un puissant mouvement scientifique, d'une grande école d'érudition, d'une activité intellectuelle prodigieuse. A l'époque byzantine encore, son **université** conservait sa gloire d'autrefois. Les 'Musées', les académies de la Capital egyptienne étaient célèbres dans tous l'empire."

° ° °

وأم جامعة الأسكندرية طلاب من أمم الشرق المختلفة ، من فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى ، تلقوا العلم فيها على أساتذتها ، وكان الأساتذة معروفين فى ذلك الوقت باسم « السفسطائيين » ، يعلمون الطب والعلوم الرياضية والخطابة إلى جانب علوم اللغة والفلسفة .

° ° °

(١) العصر الرومانى الأخير

ومن علماء اللغـــة فى العصر البيزنطى « ثيودوت » Theodote الأسكندرى و « أوريون » Orion ، ومصنفون آخرون مكثرون من أمثال « هسيخيوس » Hesychios و « هلادوا » Helladois . وممن شغلوا بدراسة الفلسفة « هپاشيا » وكانت بارعة الجمال ، عالمة فيلسوفة ، تتلمذ عليها « سينسيوس القورينى » Synesius de Cyrene الذى جمع كثيرا من المعلومات عن حياتها الخاصة ومباحثها .

ولدينا وثيقة ذات خطر من أواخر القرن الخامس كتبها « زكرى » عن حياة العـالم « سفير » Sevère تطلعنا على نواح من الحياة العلمية فى الاسكندرية فى العصر البيزنطى ، تذكر الوثيقة أسمى « هيراسكوس » و « هوراپولون » كأستاذين فى الجامعة ، استطاع أولهما أن يشيع بين تلاميذه من الشبان حماسا بالغا للدراسة والبحث ، لا فرق عنده بين مسيحيين ووثنيين ، قرب منه هؤلاء وهؤلاء يطلبون علمه ، واحتدمت المناقشات بين فريق الشبان ، واشتد بينهم الجدل — ولا سيما فى المسائل الدينية .

وكان كثير من الأساتذة فى الجامعة فى العصر الرومانى المتأخر من الوثنيين الذين لم يمنعوا المسيحيين من الاستماع إلى علومهم . وكان أثر هؤلاء عظيما فى الأسكندرية ، تمتعوا فيها — رغم وثنيتهم ، ورغم المسيحية الغالبة على المدينة — بمكانة رفيعة فى عالم الفلسفة والعلم البحت . وكانت الفلسفة التى علمها هؤلاء وثنية طبعاً ، سمح بدراستها فى الجامعة أخيراً ، لأن الحماس الدينى الذى منع من دراستها فى القرون الأولى للمسيحية ، يظهر أنه كان قد فتر نوعا — أو لأن الحرية ربما عادت

سيرتها الأولى فى الأوساط العلمية بعد أن حرمتها زمناً طويلا — هذا ، ولم يخل الأمر من الانتقاص من وقت إلى آخر على الوثنيين وعلومهم .

وبقى هؤلاء الوثنيون حملة للعلم الهلينى ، وإلى جانبهم كان يوجد علماء من المسيحيين ، اضطرد عددهم منذ أواخر القرن الخامس بسبب اضطهاد الامبراطور «زينو» للأساتذة الوثنيين وتقتيلهم .

وفى أوائل القرن السادس ظهر « حنا » الملقب « فلپونس » وهو لغوى وعالم من علماء التوحيد ، ومعلق على فلسفة أرسطو ، ومفكر حر رغم مسيحيته ، وكان يميل بطبعه إلى الأقيسة المنطقية ، والأدلة العقلية . وهو فى مؤلفيه « أبدية العــــالم » و «خلق العالم» La création du monde & L'éternité du monde يميل إلى أتباع آراء أرسطو الحرة . كتب فيما كتب مؤلفات عارض بها الوثنيين والأفلاطونية الحديثة والأورثوذكسية ، إذ كان من المتحمسين لعقيدة « الطبيعة الواحدة» للمسيح ، والدليل على ذلك وضعه كتابه الضخم فى التوحيد المسمى L' Arbitre وهو مفقود الآن .

وكانت للفيلسوف «حنا فلپونس» مكانة ممتازة فى جامعة الأسكندرية ، وكثيرا ما كانت كتابته تثير ضجة لاحتوائها على آراء نسبها بعض الأسكندريين وبعض البطارقة إلى الهرطقة ، وقام البطريق «بنيامين» يعــارض آراء « فلپونس » فى كتابه « البعث » . La Résurrection

وفلپونس فوق هذا مؤرخ لعدة حوادث مصرية — شهدها بنفسه ، اعتمد عليه «بطلر» مؤلف «فتح العرب لمصر» فى كثير من فصوله .

○ ○ ○

وفى خواتيم القرن السادس الميلادى ظهر أستاذ مسيحى آخر هو «اسطفان» الفيلسوف الذى درس وعلق بدوره على مؤلفات أرسطو ، وعمل جاهدا على إضعاف عقيدة «الطبيعة الواحدة» فى المسيح . ولم تستسغ الأسكندرية منه ذلك ، وعاقبه بطريقهما «دميان» على خروجه هذا ، باعلانه طريداً من الكنيسة الرئيسية ، سيما وقد أصر أسطفان على رأيه — وأدى هذا الموقف إلى انقلابه «أورثوذكيا» متطرفا واضطر على أثر ذلك إلى مغادرة الأسكندرية .

° ° °

وكانت منذ القرن الثالث الميلادى ، قدبدأت تدب بين المصريين حركة مناوئة للثقافة الهلينية ، ليست الأولى كما نعلم فى الاسكندرية ، تبعتها حركة أحياء للعقائد والتقاليد المصرية القديمة . وقامت فى نفس الوقت تقريبا حركات انتقاض مشابهة فى الشرق الأدنى عامة ، ترمى إلى الغض من شأن المدنية اليونانية فى سوريا وما بين النهرين وآسيا الصغرى . والمرجح أن يكون الفرس هم الذين أذكوا نارها . وكانت مدن مصر العليا معقل هذه الحركة المعارضة. والحق أنه عند ما قبل الوطنيون المصريون العقيدة المسيحية ، خلقت فيهم الديانة الجديدة شعورا بقوتهم وقيمتهم ، كان من شأنه أن حقر الوثنية الأغريقية أيما تحقير — وقام رجال الدين المصريون يعظون الجماهير باللغة المصرية بعد أن كانوا يعظونهم باليونانية . وأخذت الكتب الدينية تنقل إلى اللغة المصرية القبطية تباعا، ولم تقف حركة المعارضة عند هذا الحد ، بل اتخذ المصريون لأنفسهم فنا قبطيا عارضوا به الفن

الأغريق ، ولكنه لم يخل من التأثر به على كل حال .

وكان انتصار المسيحية على الوثنية فى حقيقة الأمر انتصاراً لمصر القبطية (الوطنية) على مصر البيزنطية ، وبدأ أقباط مصر يشعرون بقوميتهم ، وبالدور الهام الذى يحق لهم أن يلعبوه فى شئون البلاد كورثة للفراعنة ، وأمتلات نفوسهم كراهية للرومان الذين طالما نكلوا بهم وساموهم سوء العذاب .

وبلغت روح التفاخر بعراقة الأصل المصرى بين أقباط مصر أعظم شأولها فى القرن السادس ، حين أخذ المصريون يشيعون أنهم أقدم شعوب الأرض ، وأن بلادهم أخترعت الكتابة والهندسة فضلا عن غيرهما من العلوم — وبعبارة أخرى أنها مهد المدنية . وأعتقد الأقباط اعتقادا جازما ، إن خطأ وان صوابا ، أنه مامن شىء عظيم الشأن فى هذا العالم ، إلا كان من خلق متحمسيهم . وبالغ هؤلاء فى تفاخرهم إلى درجة أخطأت الحقائق المقررة فى التاريخ ، فانتحلوا لمصر شخصية الأمبراطور «دقلديانوس» والأمبراطور «ثيودوسيوس» والأمبراطورة «تيودورا» ، وذهبوا فى حماسهم إلى اختراع دعوى ظاهرة البطلان مؤداها أن السيد المسيح لم يولد فى «بيت لحم» ، وإنما ولد فى «هيراقليوپوليس» فى الطيبائيد ، فى صعيد مصر .

وكانت مصر فى نظرهم بلاد الله المختارة ، وأقربها إلى قلب المسيح ، وأخلصها لعقيدته . ولا شك فى أن تلك الحركة فى جملتها انما هى حركة انتعاش قومى ، بلغت منتهاها من الحدة خارج مدينة الاسكندرية ، وعمت المدن المصرية جميعاً ، وتنكرت البلاد للأجانب ،

وانقطعت صلاتها الروحية، أو كادت، بالامبراطورية الرومانية، ولم يبق لها بها من علاقه سوى علاقة التبعية السياسية. وغدونا نرى فى مصر منذ القرن السادس الميلادى شعباً مصريا يحس لنفسه بوجود شخصى مستقل.

وكثيراً ما يلاحظ فى الأدب المحلى فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين كلمة الأهلى أو «القومى»، صفة لكل شىء مصرى، من علوم أو آداب أو ديانة — حتى لقد يحق أن يقال أن «المسيحية المصرية» كلمة رادفت «القومية المصرية»، وأصبحت علما عليها.

وفى القرن السادس الميلادى أخذ ظل كل شىء أغريقى أو رومانى فى التقلص؛ ونلحظ فيما كتب «ديل» Ch. Diehl الأستاذ بالسربون، فى الفصل الذى عقده للأدب القبطى فى مؤلفه «مصر البيزنطية» رغبة الأقباط فى تجنب اليونانية تجنباً تاماً كان من شأنه أنه قطع الصلة بين مصر والثقافة اليونانية قطعاً نهائياً.

وبدأ الأقباط يغفلون الآداب الأغريقية إغفالا، ويكتبون أدبهم الخاص بلغتهم القبطية — فبها فدونوا كتاباتهم الدينية عن حياة القديسين، وكتبوا بعض الأشعار وتواريخ الشهداء وسير مشاهير المترهبين فى الأديرة، غير أن الحماس أخذ عليهم طريقهم فيما كتبوا، فجاوزوا الصواب وأخطأوا القصد.

ورغم هذا، فقد ظلت الاسكندرية محتفظة بمكانتها فى عالم الفن، فلم يهبط بها فن العمارة، ولم تفارقها مهارة أهلها فى صناعة المرمر وفن التصوير، وصناعة الفسيفساء الزجاجية. وظل الأقباط، على

الأرجح ، الأيدى العاملة فى هذه الميادين حتى أدرك الاسلام البلاد ، وحينئذ ساهموا فى زخرفة المساجد التى ازدانت بها القاهرة منذ العصر الطولونى — وهكذا كان الفن الاسكندرى مقدمة لبعض فنون القرون الوسطى الاسلامية فى مصر .

وكانت صناعة الورق مزدهرة بالاسكندرية قبل الفتح العربى بزمن طويل . والورق عماد الكتب كما هو معروف ، وقد برع الاسكندريون فى صناعته ، كما برعوا فى تصوير المصورات الجغرافية ، منذ وضعها « أراتوستنيز » و « بطليموس » الاسكندريان .

وحذق الاسكندريون فن تصوير الكتب ، وزخرفتها وايضاحها بالرسوم الدقيقة Miniature ، واستعانت المسيحية بهذه الصناعة على شرح عقائدها ، كما استفادت صناعة النسج زخارفها الجميلة من مهارة المصورين — وكل هذه الزخارف أو جلها مستمد من الصور الدينية المسيحية .

وازدهرت بالاسكندرية صناعة الزجاج والسفن والمنسوجات الحريرية والكتانية . وعرفت المدينة بطرازها(١) الخاص فى العصر البيزنطى ..

---

(١) الطراز مكان صناعة النسج

الباب الخامس

أخريات العلم الاسكندرى

الفصل الأول

بداية النهاية

آخر ألوان العلم اليونانى — حركة النهوض القومى ومناوأة اللغة اليونانية — آداب قبطية - شيوع اللغة السريانية — هى لغة العلم والطب خاصة — حنا النقيوسى يؤلف بالقبطية — ترجمة « العهد الجديد » — موقف المصريين الأقباط من العلم الاسكندرى — نفر من علماء هذا العصر — ليس للجامعة وجود فى الغالب — المكتبات الخاصة هى عماد العلم — الحركة العلمية الحرة تتمثل فى حنا مسكوس وصفرونيوس — بقية من الطب والهندسة والفقه والفلسفة والآداب اليونانية — ترجمة التوراة إلى السريانية فى مصر — انطونيس العالم بالهندسة والطبيعة .

كان آخر عهد الاسكندرية بالعلم اليونانى فى القرن السادس الميلادى ذلك اللون من الجدل الفلسفى الذى اشتد بين أنصار المسيحية والوثنيين ، وهو نوع من فقه الدين احتاج إلى الاستعانة بالفلسفة والمنطق اللذين راجت دراستهما فى العصر الرومانى الثانى مقترنة بحركة الجدل الدينى أشد الاقتران وأقواه .

وكانت لغة البلاد الرسمية فى العصر الرومانى هى اليونانية ، غير أنه منذ القرن الرابع الميلادى ، أخذت روح القومية المصرية فى الظهور والقوة . وكان من أثر ذلك ان بدأ رجال الدين المصريين يعظون الناس باللغة المصرية ، بعد أن كانوا يعظونهم باليونانية

لغة الحكومة والكنيسة الرسمية . وبدأ القبط منذ ذلك التاريخ يغفلون الآداب الاغريقية ، ويكتبون أدبهم الخاص بلغتهم القومية ، فدونوا بها تآليفهم فى حياة القديسين وتواريخ الشهداء ، وكتبوا بها شعرا ونثرا عارضوا بهما النثر والشعر اليونانيين .

° ° °

وسارت اللغة المصرية (القبطية) جنباً إلى جنب مع اللغة اليونانية التى بقيت لغة البلاد الرسمية إلى ما بعد الفتح العربى بزمن ليس بالقصير ، غير أنه على الرغم من نهوض اللغة القبطية فى العصر الرومانى ، لم ينتج بها القبط أدبا ينافس الآداب اليونانية التى ظلت صاحبة الغلبة والنفوذ — والحق أن اليونانية بقيت بالنسبة لجمهور الأدباء طوال عصر الانتقاض ، ضرورة ثقافية لا غنى عنها ، وظل الأدباء يكتبون بها نثرا وشعرا . ومن أشهر كتاب القرن الرابع الميلادى «لوسيانوس» صاحب كتاب محاورات الموتى «وأخيلاس تاتيوس» المؤلف الروائى ، ومن أذيعهم صيتا فى القرن الخامس الشاعر المصرى «قيرس الأخميمى» ، وفى القرن السادس الشاعر الطيبى «كريستودورس» ، ومن علماء هذا العصر المتأخر «ديسكوريدس» النباتى المصرى المعروف ، صاحب كتاب خواص العقاقير الذى حرص العرب على اقتنائه ، وصوروه فى العراق .

وإلى جانب اللغة اليونانية والآداب اليونانية ، كانت هناك لغة ثالثة هى لغة السريان الذين هاجروا إلى مصر تحت ضغط الغزو

الفارسي على بلدان آسيا الغربية ، واحتموا في وادى النطرون في غرب الدلتا ، وعكفوا على العمل في هدوئه . ومن عجب أن تصبح لغة السريان هذه — لغة العلم ، ولا سيما العلم الطبي ، فبها دون سواها كانت تدرس العلوم الطبية في القرنين السادس والسابع الميلاديين ، وإن دل ذلك على شيء ، فدلالته قوية على أن هؤلاء السريان كانوا في نقلهم لعلوم اليونان جبابرة ، لم يدعوا منها بلغتها الأصلية شيئا تقريباً ، ثم جاءت حوادث السياسة الهوج ، وفي أعقابها حوادث الفتح العربي ، فاختفى من الوجود أو هلك كثير من كتب اليونان ، وعدما بقى منها من الكنوز التي لا يحمل أن تتداول ، فاختفت عن الأعين — وكان للسريان على الأرجح أكبر الأثر في اختفائها ، وراجت ترجماتهم وارتفع شأنها وارتفع معها شأن لغتهم ، ولا يبعد أن يكون السريان قد اشتغلوا على طول هذه الفترة بتجارة المخطوطات ، وأن يكونوا قد أثروا من وراء ذلك ثراء طيبا — إذ لاشك أن عودة المخطوطات اليونانية إلى الظهور في عصر النقل الأعظم ، كان عظيم الوقع ، كبير القيمة ، وكان حرص الخلفاء على اقتناء هذه المخطوطات بالغا ، فلم يدخر المعنيون منهم بحركة نقل العلوم القديمة وسعاً في اقتناء المخطوطات مهما غلا ثمنها ، إما للنقل منها رأسا ، أو لمراجعة المترجمات السريانية عليها .

وبلغ من شيوع لغة السريان ومنافستها للغتين اليونانية والقبطية ، أن ترجم اليها الكتاب المقدس — وكتب بها القس « اهرون الاسكندرى » مقالاته في الطب ، وغدت السريانية بالاجمال ضرورة

من ضرورات العصر الأدبية ، لا تقل شأناً من حيث هى لغة علم عن اليونانية ذاتها ، وحذقها كثير من محبي العلم ، وخدموا بها العرب خدمة جلى فى عصر النقل الأعظم .

• • •

وعلى الرغم من قوة هاتين اللغتين ، اليونانية والسريانية ، كانت لغة البلاد القومية تكافح وتناضل ، لتتخذ لنفسها مكانة تليق بأمة تطمح إلى الاستقلال ، وتعمل له جاهدة . وما لبثت القبطية أن استخدمت فى الوعظ والصلاة والتأليف . وكتب « حنا النقيوسى » ديوانه المشهور بها ، وأن يكن قد دون جزءاً منه باليونانية ، وكتب بها الرهبان تواريخ القديسين والشهداء وأخبار البطارقة ، وترجم إليها « العهد الجديد » .

ولكن الآداب القبطية لم تعد أن تكون آداباً دينية فى مجموعها ، وليس للقبط فى حقيقة الأمر آداب يمكن أن يفخروا بها — اللهم غير قليل من مأثور الحكم وبعض الأشعار .

وظلت غالبية القبط إبان حركة النهوض بمعزل عن الاسكندريين ورثة العلم اليونانى ، ولعلهم كانوا مايزالون على اعتقادهم القديم بأن العلم الاسكندرى علم وثنى لا يجمل بهم أن يتناولوه .

وأدرك العرب الاسكندرية وبها بقية من العلم اليونانى أفسدها الزمن ، أهم ما فيها مقالات عن طب « جالينوس » ومأثور من حكم « بقراط » ، وشىء كثير من التنجيم والمعجزات وعلم الصنعة (الكيمياء) ، وفلسفة ممتزجة بالدين أشد الامتزاج ، ترمى

إلى خدمة المثل الأعلى المسيحى ، على أساس من فلسفة أفلاطون وأرسطو .

° ° °

وكان العلم الدينى أهم ميدان جال فية مسيحيو الاسكندرية وأغلب الظن أن الكثرة من هؤلاء المسيحيين الذين اشتغلوا بمسائل العلم الاسكندرى لم تكن من متعصبي القبط ، فقد كره هؤلاء على ما يظهر دراسة فلسفة «الاسكندرانيين» ؛ ولم تحاول غالبية الأقباط ما حاول غيرهم من استخدام الفلسفة لتقوية العقيدة المسيحية ، خوفا من أن تزل قدمهم فيرمون بالهرطقة ، كما رمى بها «حنا فلپونس» فى دفاعه عن فكرة «الطبيعة الواحدة» للمسيح ، إذ عارضه البطريق «بنيامين» وسفه من آرائه فى كتابه «البعث» — وكان لهم فى الدفاع عن مسيحيتهم أسلوبهم الخاص فى الاقناع . لهذا كله ، وفد العرب على القبط ، فلم يجدوا بين أيديهم علماً أو فلسفة ، وإن وجدوا عندهم دراية بالفنون اليدوية لا تبارى ولا يجحد فضلها .

° ° °

وجاء القرن الخامس وليس فى الاسكندرية مكتبة كبرى عامة بل كان كل ما فيها مكاتب خاصة أشهرها مكتبة عالم يدعى «كزماس جعل منها خير عوض عن مكتبة الاسكندرية العامة ، وكان يعير من كتبه لمحبي القراءة والاطلاع فى كثير من الرغبة الصادقة فى الافادة . وكان الرجل فى ذاته مكبا على القراءة والتصنيف ، يجادل اليهود جدالا عنيفا ، ويرد على كتاباتهم .

وقد انتفع بعلم « كزماس » وبكتب مكتبته الخاصة ، المؤرخان «حنا مسكوس» (٥٥٠ / ٦١٩م) وتلميذه «صفرونيوس» ، وهما لا يذكران شيئا عن مكتبة عامة كانت بالاسكندرية فى ذلك الوقت . ولا شك أن مبالغتهما فى تقدير قيمة مكتبة « كزماس » ، وسكوتهما عن ذكر مكتبة الاسكندرية ، بالاضافة إلى صمت غيرهما من المؤرخين ، دليل قوى على خلو المدينة من مكتبة ذات صفة عامة ، كانت — إن وجدت — خير عون لهما على البحث والافاضة .

كتب حنا مسكوس كتابه « مسارح الروح » Portum Spritualе وكتب « صفرونيوس » مؤلفاته ، ولم يتطرقا إلى ذكر مكتبة «السرابيوم» بكلمة يكون فيها فصل الخطاب فى هذا الموضوع الذى طال فيه الجدل ، وعزت الأدلة المادية .

وكان بالاسكندرية خلاف مكتبة العالم « كزماس » مكتبة أخرى خاصة هى مكتبة مطران « آمد » التى ذاع ذكرها فى أوائل القرن السادس . ويذكر الدكتور « بطلر » أن هذا المطران استطاع أن يجمع كتبا ذات قيمة أثناء مقامه بالاسكندرية ، مما يدل على أن الاسكندرية كانت فى ذلك الوقت سوقا لتجارة الكتب . وبموته اختفت هذه المكتبة من الاسكندرية ، حيث نقلت كتبها إلى كنيسة « آمد » فى شمال الجزيرة العراقية(١) .

يضاف إلى هاتين المكتبتين الخاصتين ، مكتبات الأديرة والكنائس . وكانت الأديرة والكنائس مستودعا للعلم فى ذلك الزمن الذى

(١) بطلر : فتح العرب لمصر — التعريب

ندرت فيه الكتب وتفرقت أيدى سبا ، ولكن الكتب الوثنية كانت قد فنيت كلها أو جلها ، ومن غير المعقول أن تحوى الأديرة والكنائس كتبا للوثنيين . وأغلب الظن أن محتويات هذه المكتبات الكنسية كانت إما كتبا مسيحية بحتة ، أو كتبا دينية استخدمت فيها أساليب أرسطو وأفلاطون فى الاقناع ، لا تخرج فى موضوعها عن أن تكون كتب دين ، أو علم لا يتعارض مع الدين .

على أن أكثر المكتبات شهرة كانت مكتبة دير « الهانطون » ومكتبة «دير السريان» من أديرة الصحراء فى غرب الدلتا .

وكان العلم فى هذا العصر يعتمد الاعتماد كله على محتويات المكتبات الخاصة ومكتبات الأديرة والكنائس . وكان العلماء أشبه ما يكونون بالهواة ، يقتنى الواحد منهم مكتبة يحرص عليها ، ويعير من كتبها لأصدقائه وعارفيه ، أو يتصل بعالم فيلسوف أو رحالة يجول فى أرجاء الامبراطورية يفيد من شتات الكتب فى أنحائها المختلفة ، أو يرتاد أديرة الصحراء ينهل مما فيها من آراء تؤيد الدين وتناهض الوثنية واليهودية ، ينتفع الواحد منهم بعلم الآخر ، على نحو ما انتفع « مكسوس » و «صفرونيوس» بعلم « كزماس » — بطريقة التلقين التى تسود عادة فى عصور التأخر ، حين تندر الكتب ويصعب الحصول عليها بسبب قلتها — أو حين يحول دون الانتفاع بها عامل من عوامل الاضطهاد الدينى أو السياسى .

والغالب على الظن أن الحركة العلمية الحرة كانت تتمثل فى أولئك العلماء الذين كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر ، من أمثال «حنامسكوس»

و « صفرونيوس » الجاثلين اللذين ارتحلا من الاسكندرية إلى الجزائر اليونانية ، وبلغا « روما » حيث هذب « مسكوس » كتابه « مسارح الروح » Partum Sprituale ، وهو عبارة عن قصص لشفاء الأمراض بطريقة روحانية . وكان هذان العالمان صديقين « لتيودور الحكيم » رئيس أحد الأديرة ، وكان عالما وفيلسوفا بقدر ما كانت المسيحية تبيح لرجالها الخوض فى أمور الفلسفة . ومن معلمى هذا العصر « زويلوس » القارىء ، ونكامن شراح الكتب .

° ° °

على أن الشىء الذى يستدعى الانتباه هو شيوع « السريانية » كلغة للعلم فى هذ الزمن — فكان لا بد لمن يطلب العلم من أن يحذق لغة السريان . والعلاقة بين هذه اللغة وبين دراسة الطب وثيقة . وكانت آداب اللغة السريانية شائعة تدرس فى الاسكندرية منذ زمن بعيد قبل الغزو الفارسى لسوريا وهجرة فريق من علماء السريان إلى مصر تحت ضغط ذلك الغزو .

والمعروف أن أعظم ما كتب فى الطب كان بالسريانية ، فبها كتب القس « اهرون » الاسكندرى رسائل فى الطب أفاد منها العرب فائدة كبرى ، ويذكر « أبو الفرج بن العبرى » أن مقالاته بالسريانية تجاوزت الثلاثين مقالة .

ويلاحظ على هذا العصر أن رجال الدين فيه كانوا رجال علم ، ومن هؤلاء « أهرون » الذى تقدم ذكره ، و « سرجيوس الرسعنى »

و « سعيد بن بطريق » المعروف باسم « يوتيخوس » ، وكانوا جميعا فقهاء فى الدين وعلماء فى الطب فى نفس الوقت .

هذا إلى أن الرهبان فى الصحارى كانوا قد أخذوا يكتبون باللغة القبطية المحلية كتبا عن حياة البطارقة، وعجالات فى الخلافات المذهبية، ولكنهم لم يكتبوا بها كثيراً فى التاريخ ، وأشهر ما عرف عن هذا العصر من المؤرخات « ديوان بسكال » ، وفيه وصف لا بأس به لحالة الاسكندرية فى أواخر القرن السابع الميلادى . ومن المراجع الهامة فى تاريخ مصر بعد فتح العرب كتاب«حنا النقيوسى» وهو من أعظم الكتب التاريخية، التى لا تزال حافظة لقيمتها العلمية حتى الوقت الحاضر .

وكان معظم الأنتاج الاسكندرى دينياً ، يعالج موضوعات فى الدين ، أو موضوعات فى العلم كتبها رجال الدين بروحهم الخاصة فى التأليف ، ناحين فيها منحى يبعد كثيراً عن أساليب التدقيق العلمى .

ورغم هذا فقد ازدهرت بالاسكندرية مدارس طبية وفقهية وفلسفية . وكان طلاب العلم من كل صوب ما يزالون يقصدونها ، يتلقون العلم فى مدارسها .

وعلى الرغم من أن حوادث الفتح العربى لابد أن تكون قد قضت على كثير من الآثار الأدبية ، فقد أثر عن « بولص السلنتيارى » أنه كتب شعراً هومريا من ذى المقاطع الستة فى فضائل القديسة «صوفيا» وكتب « صفرونيوس » شعراً غزلياً حن فيه إلى الأرض المقدسة على نسق ما كان يكتب الشاعر اليونانى « أنا كريون » .

ونحن نعلم أنه تحت ضغط الفتح الفارسى لسوريا ، فرَّ جماعة من العلماء السوريين ، واتخذوا أديرة الصحراء فى وادى النطرون منتجعاً لهم ، وهناك عكفوا على ترجمة « التوراة السبعينية » إلى السريانية ترجمة جديدة ، ومراجعة الترجمة السريانية للأنجيل . وزعيم هذه الحركة « توما الهرقلى » و « بولص التلوى » ، وكان دير « الهانطون » المكان الذى قامت فيه هذه الحركة وتمت .

ويلاحظ على الحركة الدينية فى هذا العصر بصفة عامة أنها اصطحبت بكثير من التلفيق الذى قصد به تفويق مذهب دينى على آخر .

وهذا العصر فى جملته شهير بأنه عصر تفلسف وتفقه فى الدين ، وميوله فى مجموعها أدبية فقهية ، ولذلك يصعب أن يتصور الانسان انه كان يجمع إلى جانب ذلك شيئاً من المهارة العملية — ويذكر بين علماء هذا العصر اسم « انطونيس » Antoninus الذى أدركه العرب فى الاسكندرية عند الفتح ، ويعتبر متمما « لأرشميدس » و « اقليدس » ، وهو الواضع لمبادىء علم المساحة الحديثة ، يقال انه قاس سرعة المقذوفات ، وابتدع مضخة الحريق ، و « الهيدرومتر » ، وحاول استخدام البخار ، ووضع تصميماً عملياً لبناء « الباكيات » Voûtes أخذه عنه « إيزيدور المليطى » Isidore de Milet أحد مهندسى كنيسة « أيا صوفيا » . وهو أول من حاول استخدام الهواء المضغوط والتيارات الحارة والباردة فى تحريك بعض الأشياء . وبفضل محاولاته هذه أمكن اندفاع الماء من النافورات ، كما أمكن إسالة الدموع والعطور من بعض أجزاء التماثيل المقدسة !

الفصل الثانى

نهاية العلم الاسكندرى

تحقيق هذه النهاية

غموض نهاية الجامعة - كتاب بطارقة الاسكندرية ينير الطريق - بردية عظيمة القيمة يحدثنا عنها مايرهوف - الفلاسفة الفلوطينيون - الفلاسفة المعلقون - خلافات مذهبية بين المسيحيين - حنا الأجرومى - اسطفان الاسكندرى - شيوع طريقة أرسطو فى الاقناع وأثرها فى اليهود والمسلمين - الحركة الطبية - حركة فلسفية مسيحية يمثلها «حنا الأفامى» و «سرجيوس الرسعنى» - اختلاط الفلسفة بالدين - الفارابى يروى شيئا عن نهاية العلم الاسكندرى - أثر النساطرة فى حفظ العلم الاسكندرى - احتفاظ مدارس حران وانطاكية وجند يسابور بالتراث الاسكندرى - وثائق هامة عن انتقال العلم الاسكندرى الى انطاكية وحران - فضل الكتب العربية فى الاحتفاظ بالثروة العلمية اليونانية .

غشيت سحابة كثيفة جامعة الاسكندرية آخر عهدها بالحياة ، على ما كان لهذه المؤسسة من رفعة المكانة وعلو الكعب ورسوخها فى شتى نواحى العلم الانسانى . وبقيت تلك السحابة الكثيفة تعرو وجه العلم طيلة القرنين الأخيرين من حياة الجامعة ، فتزيد من جهلنا بأمر نهاية هذه المؤسسة العلمية الخالدة . ولقد حفزت هذه النهاية الغامضة العلامة المستشرق الدكتور «ماكس مايرهوف» M. Mayerhoff إلى كتابة عجالة عظيمة القيمة ، حقق فيها أمر تلك النهاية ، معتمداً على مصادر عربية بحته . ولقد أمدتنا عجالة «مايرهوف» بحقيقتين كبيرتين الأولى ، أن رواة فناء جامعة الاسكندرية كانوا شهود أعين

من العرب ، صادف اتجاعهم للاسكندرية زمن احتضار العلم الاسكندرى فى أوائل القرن السابع الميلادى — والثانية، أن هؤلاء العرب ، فوق شهودهم أخريات أيام العلم الاسكندرى ، ظلوا أمناء عليه ، حفظة له ، ونقلة لتراثه القيم إلى أنحاء من الشرق الأدنى،حيث قدر له البعث فى عصر أحياء علوم الأقدمين من فرس ويونان وهنود ، فى خلافتى المنصور والمأمون .

وقد كفانا الدكتور «مايرهوف» Mayerhoff مؤونة بحث هذه المسألة ، وأمدتنا عجالته عن نهاية الجامعة(١) بما فيه الكفاية .

***

يقول : يكاد يكون من الحقائق التى أجمع عليها المؤرخون أنه لم تكن بالاسكندرية مكتبة كبرى عامة بعد نهاية القرن الرابع الميلادى، حيث كانت قد ضاعت معالم تلك المكتبة إبان الصراع الهائل بين المسيحية والوثنية ، على طول القرون الأربعة التى أعقبت الميلاد .

والمطلع على تاريخ بطارقة الاسكندرية لمسيو «چان ماسپرو» لا يجد هناك مجالا لحركة علمية يمكن أن تسير على أقدام فى مدينة انتابتها عواصف هوج من الفتن الدينية ، كان عمادها أكثر العناصر ميلا إلى التخريب والاتلاف ألا وهو عنصر الغوغاء، تحركه عوامل خلت من التعقل خلواً أكسبها عنفا وقسوة بالغين

وقد أنار لنا «ماسپرو» السبيل بدراسته لورقة بردية على جانب

---

(١) M. Mayerhoff : La fin de l'école d'Alexandrie d'après quelques auteurs Arabes.

كبير من الأهمية يعدّد فيها «هوراپولون» Horapollon عالم النحو المدارس والمتاحف التى كانت بالاسكندرية على عهده (القرن السادس) ويزهو بأنه من سلالة أسرة كل أفرادها من العلماء الذين تلقوا علومهم فى مدرسة الاسكندرية الشهيرة .

يقول مايرهوف : ويعاصر «هوراپولون» هذا ، عالم آخر هو الخطيب « زكرى » Zachari الذى كان يدرس بالاسكندرية مع زميله سڤير Sevère الذى أصبح فيما بعد بطريق « انطاكية » . وكان عضواً متحمساً فى جماعة دينية مسيحية تعرف باسم « الفليونيين » Philoponois (نسبة إلى فليونس ؟) ، كان دأبها مناوأة الأساتذة والطلاب الوثنيين ، والانقضاض على المعابد الوثنية من وقت إلى آخر ، وأعمال معاول الهدم فيها — كما يذكر أيضا أن شباب الشرق الأدنى كان يفد على الاسكندرية لدراسة الحقوق والطب والرياضيات والفلسفة والخطابة .

° ° °

ومن المعروفين بتواليفهم فى خواتيم عصر الانحلال « أمنيوس بن أرمياس » ، وهو فيلسوف فذ من فلاسفة نهاية القرن الخامس الميلادى وأوائل القرن السادس ، وهو الزمن الذى يحدد آخر العهد بأخبار جامعة الاسكندرية . وكان على رأس جماعة فلسفية تناولت مؤلفات « أرسطو » بالشرح والتعليق ، وتسمّى أشياعه باسم الفلاسفة المعلقين ، ومنهم : « سمبلكيوس » Simplicius و « دماسكيوس » Damascius و « اليمبيودور » Olympiodore الصغير

و«أسكليبوس» Asklepios و«حنافلبونس» Jean Philiponus ، وكان كل هؤلاء الفلاسفة أول أمرهم وثنيين ، ما لبثوا أن تحولوا بعدزمن إلى المسيحية، وأصبحوا أعوانا لها، أكثر حماسا من أبنائها الأقدمين.

وشهدت الاسكندرية فى منتصف القرن السادس الميلادى خلافات مذهبية بين المسيحيين أنفسهم ، وظهر بها ثلاثة بطارقة ، قوى النزاع بين اتباعهم حتى اتخذ شكلا عنيفا ، وتجلت فى هذا العصر كراهية الأقباط الوطنيين للحكم البيزنطى والكاثوليكية الرسمية .

ooo

ومن أشهر شخصيات القرن السادس الميلادى بالاسكندرية «حنا فلبونس» وهو المعروف عند السوريين والعرب بأسم «حنا الأجرومى» (Le Grammairien) ويعتور حياته غموض كبير، ولكن من المعروف أنه نزح من الاسكندرية فى أول القرن السادس ، واستمع «لامونيوس بن أرمياس» ، ووضع أول تعليقاته على فلسفة «أرسطو» حوالى ٥١٢ للميلاد ، ويحمل تعليقه المسمى «الطبيعة» تاريخ : «١٠ اياخون من عصر الشهداء — ٥ مايو ٥١٧ ميلادية» .

ويلى هذا تعليقه المسمى «ما وراء الطبيعة» ، وهو لا يعرض فى كتاباته بتاتا إلى الآراء المسيحية . وهذا ما حدا «بجودمان» Gudeman إلى اعتبار «فلبونس» وثنيا بقى على وثنيته فى ذلك العصر المسيحى حتى ارغم على اعتناق المسيحية سنة ٥٢٠ ميلادية . وبلغ مجموع تعليقاته على «ارسطو» أحد عشر تعليقاً ، عدا ماله من التصانيف فى قواعد اللغة الاغريقية والعلوم الرياضية . ومن

المحتمل أنه كان استاذا من اساتذة جامعة الاسكندرية، ما لبث تحوله إلى المسيحية ووضعه كتابا هاما ضد التعاليم الوثنية أن أكسباه مكانة سامية وشهرة فائقة . ومؤلفه «خلود العالم» Sur L'Éternité du Monde حرب على الافلاطونيـة الحديثة . وهـذا السفر مؤرخ فى عام ٥٢٩ م ، وهو نفس العام الذى أغلق فيه «چستنيان» الامبراطور مدارس أثينـا الفلسفية ، وشرد أتبـاع «پروكلوس» Proclus و«أفلوطين» Platon الذين كانوا ما يزالون يلقنون تعاليم الأفلاطونية الحديثة فى الأكاديمية الأثينية شر مشرد . ولم يلبث «فلپونس» أن وضع كتـابه De Opificio Mundi الذى دافع فيه دفاعا مجيـــدا عن كيان المسيحية وتحدى الآراء الدينية الوثنية . وكان فى كل كتاباته يتبع أسلوب «أرسطو» فى الاقناع بصحة الآراء الدينية المسيحية؛ فكان بذلك أول من أخضع الدين المسيحى للقوانين المنطقية .

ومن بعده لعب المنطق دورا هاما بين اليهود والعرب المسلمين والمسيحيين اللاتينيين فى العصور الوسطى، وتاريخ حياته غير معروف على وجه الدقة ، ولـكن «فورلانى» Furlani أثبت حديثا أن كتاب «فلپونس» إلى الامبراطور «چستنيان» دفاعا عن فـكرة الطبيعة الواحدة للمسيح Le Monophysisme كان حوالى ٥٥١ م .

ويعتبر المؤرخون السوريون والمؤرخون العرب «حنا الأجرومى» أصدق ممثل للحركة العلمية الاسكندرية ، وآخر رجالها .

ويليه فى نباهة الذكر «اصطفان» الاسكندرى الفيلسوف السفسطائى، والعالم الفلكى الذى عاش فى أواخر القرن السادس ، والذى انتقل

فيما بعد إلى القسطنطينية يعلم هناك . وتاريخه لا يقل غموضا عن تاريخ « فلپونس » ، عرف العرب اسمه عند فتحهم لمصر مقرونا ببعض الأسرار الكيماوية والتنجيم .

ويختلط اسم «اسطفان الاسكندرى» هذا باسم «اسطفان» الطبيب الآثينى مؤلف « المحاضرات الأبقراطية » ، وصاحب التعليقات على بعض تصانيف « جالينوس » الطبيب الاسكندرى .

أما « فلپونس » فقد ثبت أنه ليس الجامع للمقالات الطبية التى ترجمت إلى العربية. وقد نفى الدكتور «تمكين» التركى نسبة كتابين يونانيين من كتب الطب إلى (فلپونس) اعتاد الناس نسبتهما اليه(١).

والحق أننا لا نكاد نعرف شيئا عن جامعة الاسكندرية فى القرنين السادس والسابع الميلاديين سوى ما يذكره «حنين بن اسحق» من أعاظم الناقلين لعلوم الاسكندرية فى صدد نقله لمقالات جالينوس إلى السريانية والعربية ، من أنه قبل الفتح العربى بقليل ، تضافرت جهود الأطباء الاسكندريين على جمع سبعة من مصنفات « الطبيب جالينوس » أصبحت أساسا ثابتا للدراسات الطبية .

ولم يكن للحياة العلمية من مظهر فى المدينة فى القرن السادس الميلادى، سوى جماعات كانت تتذاكر بعضا مما كان « جالينوس » قد كتب فى الطب . وكان هؤلاء يقومون فى الوقت نفسه بنقل هذه المقالات إلى اللغات الأخرى، من غير كبير تقيد بتعاليم «جالينوس» نفسها .

(١) مايرهوف : نهاية مدرسة الاسكندرية

ومن اشتركوا فى هذا العمل الطبى آنف الذكر «حنا فليونس» و «أسطفان الاسكندرى» و «جسيوس» Gessius «وپلاديوس» Palladius و «مارينوس» Marinus ، وقد علقوا جميعا على مؤلفات أبقراط وجالينوس كل بمقدار .

هذا فى ميدان الطب، أما فى ناحية الفلسفة، فقد نشأت بالاسكندرية بعد «أمونيوس سكاس» وأتباعه ممن وضعوا النواة لفلسفة الاسكندرية، مدرسة فلسفية مسيحية ، كان من أشهر فلاسفتها فى القرن السادس الميلادى الفيلسوف المسيحى السريانى «يوحنا الأفامى(١)» والطبيب «سرجيوس الرسعنى»(٢) المعروف باسم «ثيودوسيوپولس» Theodosiopolis ، الذى نقل عددا كبيرا من مؤلفات «جالين» إلى السريانية .

وأنتجت المدرسة نفسها فى القرن السابع الميلادى الطبيبين المصنفين «بولس الأجانيطى» Paul d'Aeginae و «أهرون» Ahrôn صاحب «الحيل الميكانيكية» . ومن أشهر ما كتب هذا الأخير كتابه «سبعة كتب فى الطب» Sept livres de Médecine باللغة اليونانية ، وكتابه الموسوم Les pandectes médicales باللغة السريانية ، وقد ترجم إلى العربية وعرف فيها باسم «المجموعة الطبية» وكان له أثره المحسوس فى الطب الاسلامى فى أوائل عهد العرب بالاشتغال بالعلوم الطبية .

ويجدر بنا أن نعرف أنه بعد أفول نجم الفلسفة الوثنية بظهور

---

(١) Yuhannan d'Apamé (٢) رأس عين Sergius de Rôs 'Ain

المسيحية وتغلبها على كل ما هو وثنى من علم أو فلسفة ، خضعت روح البحث العلمى فى الاسكندرية لتعصب دينى ، اتخذ بعض الأحيان أشكالا غاية فى القسوة والعنف .

ومما قد تلذ للانسان معرفته ، أن الحجة الذى يحدثنا عن جامعة الاسكندرية ومدارسها المنحلة ، فى عصر من عصور الاضطراب والفوضى والركود العلمى ، هو المؤرخ العربى المسلم ، والفيلسوف البغدادى «الفارابى» فى منتصف القرن العاشر الميلادى (٩٥٠ م) . ومن سوء الحظ أن يكون كتابه عن الفلسفة اليونانية الذى كان يعرف باسم : Sur les débus de la philosophie grècque مفقودا الآن — وصلتنا منه بعض عبارات تضمنها كتاب « تاريخ الطب » المعروف باسم «عيون الأنباء» لابن أبى أصيبعة — يقول الفارابى : «أن أمبراطور المسيحيين فى حربه على فلسفة الوثنيين وفلسفة أرسطو خاصة فى القرن السادس ، أباح دراسة كتب المنطق لارسطو حتى مسألة «الاشكال الوجودية» Des Figures de l'Existence ، وحرم ما عدا ذلك لتعارضه مع التعاليم الدينية المسيحية. ومن هذا نفهم أن الفلسفة أخذت منذ ذلك الحين ترزح فى قيد شديد ، وظل الحال كذلك حتى ظهور الاسلام . ويضيف الفارابى : أن أستاذه المسيحى «يوحنا بن حيلان» Youhannan b. Hailân رفض أن يعلمه فصولا بذاتها من علم المنطق لارسطو ، كان محظورا على الفلاسفة الاسكندريين فى ختام القرن التاسع الميلادى تعليمها لغير المسيحيين — ثم غدا مباحا تعليم هذه الفصول بذاتها فى وقت ما لطلاب العلم من غير المسيحيين .

والظاهر أن الحركة العلمية كانت منذ القرن السادس وقفا على رجال الدين المسيحيين — ولا غرابة فقد كان «سرجيوس» و«أهرون» قسيسين يعقوبيين . ولا يعزب عن البال أن انتشار النسطورية فى آسيا الغربية، وامتدادها إلى جوف الأمبراطورية الفارسية الساسانية، أيقظ فى تلك الأرجاء رغبة صادقة فى العلم اليونانى فى شكله الهلينى السريانى . وكان قد حدث عام ٤٨٩م أن أمر الأمبراطور «زينو» Zenon بتحطيم المدرسة العلمية النسطورية التى كانت مزدهرة فى «أذاسا» (الرها)، فلم تلبث أن قامت على إثرها مدرسة مماثلة فى نصيبين Nisibis ببلاد الفرس .

وعاصرت هذه المدارس مدرسة طبية ذات بال قامت فى «جنديسابور» وظلت عامرة حتى القرن التاسع . وفيها تخرج كثير من الأطباء الذين خدموا بلاط الخليفة العباسى فى بغداد وكلهم من المسيحيين.

ولا يشفى التاريخ غلتنا عن حالة الأسكندرية قبل الفتح العربى مباشرة ، وما كان فيها من المدارس ، ولا هو يطلعنا على مدى غناء الدراسات الفلسفية والطبية فيها ، ولا نكاد ندرى مقدار ما كان جمهور المدينة العريقة يفيد من كتب المكتبات الخاصة فيها .

ولقد استطاع «حنين بن اسحق» بعد ذلك بزمن أن يشترى كثيراً من المخطوطات الأغريقية لمكتبته الخاصة ببغداد ، وهى المكتبة التى كان لها شأن كبير فى حركة الترجمة والنقل إلى العربية .

هذا — والكتب العربية والفارسية التى تعرضت لوصف حال الاسكندرية قبل الفتح العربى تحوى كثيراً من الأغلاط فى التواريخ،

وتخلط خلطا ظاهرا عند الكلام على بعض الشخصيات ، فقد جعلت من « حنا فلپونس » أو « حنا الأجرومى » شخصا عاش حتى شاهد حوادث الفتح العربى (٦٤٢ ميلادية) واتصل بالقائد عمرو بن العاص . وقام الدليل على خطأ هذا الزعم ، ونفاه فيمن نفوه « فورلانى » الايطالى — ومن عجب أن يجعل منه المؤرخ الفارسى «ظهير الدين البيهق» (١١٧٥م) شخصا من الديلم عاش حتى أدرك عصر معاوية بن أبى سفيان (٦٦١ / ٦٨٠ م) ، وهو حين يزعم ذلك، يعتمد على وثيقة مكذوبة وجدت فى حيازة طبيب مسيحى من طوس فى بلاد الفرس ، قيل إنها من « على بن أبى طالب » إلى « حنا فلپونس » خطاب تقدير ورعاية لجهوده العلمية ؛ اطلع عليها « البيهق » ثم ساق روايته . وتضيف الرواية إلى ذلك أن الأمير «خالد بن معاوية» تتلمذ على «حنافلپونس» هذا ، وتلك رواية شائقة حقاً، ولكنها لا تعتمد على أى سند صحيح . ولا يخلو من الطرافة أيضا ما يذهب اليه «عبيد الله بن جبرائيل» الطبيب، فى مؤلف له عن الطب مفقود الآن ، من أن « حنا فلپونس » كان ملاحا يقوم بالخدمة فى قارب صغير ، كان يروح ويغدو بين الاسكندرية وجزيرة فاروس الواقعة أمامها ، وكان فى غدوه ورواحه ينقل العلماء الأفاضل (علماء الأكاديمية الاسكندرية) ، ويفيد من علمهم أيما فائدة، بالاستماع إلى أحاديثهم ومحاوراتهم، حتى أن ذلك أيقظ فى نفسه شغفا فائقا بالاطلاع والمذاكرة. ولكن شكا كبيرا داخل «حنا» أول الأمر فى مقدرته على الاضطلاع بأعباء العلم، غير أن طول تفرسه فى نملة كانت تحاول

أن ترق إلى قمة مرتفع، أخذت تصعد ثم تسقط، ولم تزل بين صعود وسقوط، لا تعرف للملل سبيلا، حتى استطاعت بفضل المثابرة أن تدرك غايتها. — رأى ذلك فثارت همته، وسرعان ما باع قاربه وتفرغ للاشتغال بالعلم، وبدأ جهوده بدراسة قواعد اللغة، ومن هنا جاءت تسميته باسم حنا الأجرومى «النحوى» (كذا)

* * *

درس الأستاذ «ماكس مايرهوف» مسألة فناء جامعة الاسكندرية، وخص الكتب العربية بمزيد العناية مبتدئا بتاريخ ابن عبد الحكم «فتوح مصر» (٨٧١م) ومنتهيا بالخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك. وقد استطاع العثور على مذكرات شخصية هى بمثابة الوثائق، أمكنه أن يستخلص منها حقائق أربع ذات بال.

الأولى: عبارة منقولة من كتاب لأبى نصر محمد «الفارابى» (٩٥٠م) مفقود الآن كان يبحث فى أصل كلمة فلسفة تفيد أنه: بعد خضوع البلاد للاسلام، انتقل مركز العلم من الاسكندرية إلى أنطاكية، وهناك استقر طويلا حتى هلك معظم رجاله غير واحد كان من تلاميذه رجلان هجرا أنطاكية يحملان كتبهما، أحدهما من مواطنى «حران»، وهى بلدة فى أعالى أرض الجزيرة — والثانى من «مرو» فى بلاد العجم، وكان من تلاميذ هذا الأخير «ابراهيم المروزى» و «يوحنا بن حيلان». أما تلاميذ «الحرانى» فكان منهم القس «اسرائيل» و «الكويرى» (والكلمة على الأرجح تحريف للاسم السريانى «كيوريه» Qiyôrê أو «قيرس» Cyrus)

وهذان الأخيران رحلا إلى بغداد حيث انكب اسرائيل على ديانته انكبابا ، أما الكويرى فقد ابتدأ يعلم الناس ، فى حين انصرف ابن حيلان بدوره إلى أمور الدين — واستقر « المروزى » ببغداد وكان من تلاميذه «متى بن يونان» .

والثانية : تروى أن «الفارابى» كان نفسه تلميذا ليوحنا بن حيلان ، ويؤكد هذا القول نفسه «ابن سعيد» المؤرخ العربى الأسبانى فى كتابه طبقات الأمم Categories des Nations . ويشير « المسعودى » صاحب «مروج الذهب» إلى ذلك عند كلامه عن الفلسفة فى كتاب له مفقود بما معناه : « نحن تكلمنا عن الفلسفة وتحديدها وانقساماتها ، وذكرنا كيف انتقل مركز العلم(١) من أثينا إلى الاسكندرية ، ولأى الأسباب كان ذلك الانتقال ، كما انتقل بعد ذلك بزمن ليس بالقصير فى خلافة « عمر بن عبد العزيز » من الاسكندرية إلى انطاكية ، ثم إلى « حران » فى زمن « المتوكل » العباسى ، وكيف انتهى العلم فى زمن «المعتضد» إلى عالمين هما «الكويرى» و «يوحنا بن حيلان» الذى قضى نحبه فى بغداد فى حكم «المقتدر» ، ومنهما إلى «ابراهيم المروزى» ثم إلى « أبى محمد بن كرنيب » و « أبى بشر متى بن يونس » وهما تلميذان للمروزى . وينسب إلى «متى» أنه علق على كتب «أرسطو» فى المنطق ، ذلك التعليق الذى لا يزال مرجعا من مراجع العصر الحاضر . وتوفى « متى » ببغداد فى خلافة « الراضى » ، فانتقل العلم إلى « أبى نصر محمد بن محمد الفارابى » تلميذ يوحنا الذى كانت وفاته

---

(١) « مجلس التعليم » فى النص الأصلى

بدمشق فى رجب (٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م) وهو أشهر من يرجع اليهم فى الفلسفة من علماء العرب ، لم يبزه فيها غير مسيحى من بغداد هو « أبو زكريا يحي بن عدى » .

ويميل الدكتور مايرهوف إلى الاعتماد على نص المسعودى أكثر من ميله إلى الاعتماد على النص المنسوب إلى « الفارابى » ، ذلك لأن نص المسعودى فى هذا الصدد أدق ، من حيث تحديده للزمن الذى تم فيه انتقال العلم من الاسكندرية إلى الشرق الأدنى .

أما الحقيقة الثالثة التى تهمنا فى التدليل على انتقال مركز العلم من الاسكندرية، فهى نص موجود فى كتاب محفوظ بدار الكتب المصرية رقم (٤٨٣ طب(١)) لعلى بن رضوان، طبيب الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، ففى الصفحة ٧ سطر ٤ وما بعده ما يفيد أن الأباطرة عارضوا بشدة حركة الاشتغال بالعلوم والفنون الطبية ، وأن الخلفاء على العكس من ذلك شجعوا هذه الحركة ، وأن الدراسة الطبية فى الاسكندرية كانت قبل الفتح العربى تشمل أربعة مقالات لابقراط ، وست عشرة مقالة لجالين ، وأن تلك الدراسة استمرت حتى زمن «عمر بن عبد العزيز» ، وفى هذا يتفق «ابن رضوان» مع غيره من الكتاب فى تحديد الوقت الذى انتهت فيه الدراسات العلمية بالاسكندرية.

والحقيقة الرابعة يعيها لنا كتاب «عيون الأنباء» لابن أبى أصيبعة، وخلاصتها أنه كان بالاسكندرية فى ولاية « عمر بن عبد العزيز » على «مصر معلم للطب هو «عبد الملك بن أبجر الكنانى» وكان يدرس فى

(١) النافع فى كيفية تعليم صناعة الطب

الاسكندرية قبل فتح العرب لها ، ثم تحول إلى الاسلام على يد عمر بن عبد العزيز والى مصر ، وأصبح له صديقا حميما . ولما أن صارت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز ، وسكن الشام بحكم ما آل اليه من خلافة المسلمين ، تحول مركز العلم إلى انطاكية ، فحران ، وبقيت الصلة وثيقة بين الخليفة و«ابن أبجر الكنانى» ، الذى أصبح طبيبا خاصا له .

وهذه الرواية وإن كانت تتفق مع ما يذكره بعض المؤرخين ، إلا أن بها اضطرابا ظاهرا ، هو أن «ابن أبجر» أدرك العصرين البيزنطى والاسلامى ، وعاش حتى خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ هـ) ، ولو صح هذا لنيف عمر « ابن أبجر » على المائة . وفضلا عن ذلك فالرجل يحمل اسما عربيا بحتا ، وينتسب إلى قبيلة « كنانة » — التى لم تهاجر قط إلى مصر .

وتكاد تتفق المصادر الأربعة المتقدمة على أن مركز الثقافة اليونانية ظل بالاسكندرية مدة من الزمن بعد الفتح العربى ، وأنه انتقل منها مهاجرا إلى انطاكية وحران حوالى سنة ٧١٨ ميلادية فى خلافة « عمر بن عبد العزيز » ، وأن ذلك لم يكن بدافع القضاء على مكانة الاسكندرية ، وانما كان بحكم انتقال الخليفة إلى مقر حكمه فى الشام . ولم تكن دمشق بأصلح الأماكن لتتوطن فيها الحركة الثقافية ، لأن العلم اليونانى كان قد وجد سبيله قبل هذا الوقت بزمن إلى معقلين هامين ، هما أنطاكية وحران .

° ° °

القسم الثانى

فى النقل عن الاسكندرية

« وتأثر العقل العربى بعلومها »

الباب السادس

فى النقل عن الاسكندرية

الفصل الأول

نقل اليعاقبة والنساطرة والسريان

الاختلاف بين المسيحيين على طبيعة المسيح — اليعاقبة والنساطرة وأثرهما فى الاذاعة والنقل — السريان وحركة النقل — امتزاج الفلسفة بالدين — المذهب الاسكندرى فى الفلسفة وانتشاره فى العراق وفارس — دراسة العرب له — أثره فى التصوف الاسلامى — المسيحيون يخرجون كتباً دينية دعامتها الافلاطونية الحديثة — بعض النقلة من السريان — السريان هم الوسطاء بين اليونان والعرب — النساطرة ونقل الطب الاسكندرى — جامعة حران تحتفظ بالعلم اليونانى حتى عصر النقل الأعظم .

انقسم النصارى فيما بينهم شيعاً اختلفت على طبيعة المسيح عليه السلام ، فكان منهم « اليعاقبة » الذين انتشروا فى مصر والنوبة والحبشة ، و« النساطرة » الذين انتشروا فى العراق وفارس وانطاكية ، لكل منهما رأيه فى المسيح : فاليعاقبة يعتقدون أن المسيح هو الله : امتزج الانسان والله وكونا « طبيعة واحدة » — أما النساطرة فيعتقدون أن للمسيح طبيعة متميزة تمام التميز عن طبيعة الآله : فطبيعة المسيح « ناسوتية » (بشرية) صرفة ، وطبيعة الآله « لاهوتية » صرفة ، ولا امتزاج بينهما البتة(١) .

وأدى هذا الانقسام إلى جدال شديد فى هذه المسألة وغيرها

(١) نظرية الأقنومين فى المسيح

من المسائل المتفرعة عنها ، ولجأ كل فريق إلى المحاجة والمساجلة ، يريد التفوق على الفريق الآخر .

وكان اليعاقبة بحكم وجودهم فى مصر ألصق بالفلسفة اليونانية المصرية ، وبعبارة أخرى ألصق بفلسفة «أفلوطين» الاسكندرى . وسارع رجال منهم إلى الاستفادة منها فى تقوية حججهم أمام مخالفيهم من النساطرة والوثنيين على السواء . واعتنق بعض رجال الدين المسيحى مذهب الاسكندرية الفلسفى ، كالأب «اوغسطينوس» فبدأ بذلك عصر جديد امتزجت فيه الفلسفة بالدين ، تؤيده وتناصره ، وأصبحت الاسكندرية الوسط الطبيعى لهذا الامتزاج ، ففيها اجتمعت آراء الغربيين والشرقيين على ما بينهما من تباين ، وحتمت الضرورة هذا الجمع بين آراء الشرقيين ، ومعظمها الهام وتصوف ، وآراء الغربيين ، وقوامها التفكر والتأمل — ووجد المسيحيون فى فلسفة الاسكندرية اجتماع هذين العنصرين معا . وانبعث عن الاسكندرية امذهب «الأفلاطونية الحديثة» قويا من جديد، اعتنقه اليعاقبة وكأنما أخذوا على عاتقهم نشره فى الشرق الأدنى ، فانتشر بادىء الأمر «فى انطاكية» ، حيث كثر جدل اليعاقبة مع النساطرة، ومن ثم تسرب المذهب إلى نساطرة الموصل والعراق ، ووجد سبيله إلى فارس . وجاور العرب فى العصر الأموى ، فكان لهم به علم — فلما أن مالت نفوسهم إلى تعرفه ، لما فيه من تصوف ظاهر ، أخذه فلاسفة المسلمين من المعتزلة والمتصوفة ودرسوه ، وقووا به حركاتهم — وهكذا كان لبعث هذا المذهب أثر واضح فى الاسلام ، كما كان له

أثره البين في المسيحية ، فى مصر وفى خارجها .

« ولما انتصرت المسيحية ، وجاء « جستنيان » وأغلق المدارس الأثينية ، واضطهد الفلاسفة ، فمنهم من فر ، ومنهم من تنصر ، أخرج المسيحيون كتباً فى الأفلاطونية الحديثة ، مصبوغة بالصبغة النصرانية ، ككتاب « ديونيسيوس » Dionysius الذى ألفه « أفلوطيني مجهول » ، فى منتصف القرن السادس للمسيح باسم (ديونيسيوس) ، أدعى أنه من تلاميذ بولس الحوارى ، وقد شرح فيه أسرار الألوهية ودرجات عالم الملكوت ، والكنيسة السماوية على المذهب الأفلوطيني الاسكندرى ، وصار من ذلك الوقت عمدة للمسيحين — ثم دخل هذا المذهب فى الاسلام ، عن طريق فريق من المعتزلة والحكماء والمتصوفة ، ومنهم أخذت جل أفكارها جماعة « إخوان الصفا » .

وقام السريانيون بنصيب كبير فى نقل آراء الاسكندريين فى الفلسفة لالمامهم باليونانية والعربية معا . واليهم يرجع الفضل فى ذيوعها بعد اليعاقبة الذين أثاروها لأول مرة فى جدلهم الدينى مع النسطوريين ، أذاعوها فى العراق وما جاورها — وأشهر الناقلين من اليونانية إلى السريانية « أبو الفرج بن العبرى » مؤلف كتاب « مختصر الدول » الذى وفد فى وقت ما على الاسكندرية ، ودرس فيها بعض العلوم اليونانية ؛ و « ابن الناعمى » الذى نقل من السريانية إلى العربية كتاب « فورفيروس الصورى » (بروفيرى) ، أحد تلاميذ أفلوطين الاسكندرى ، وقد طبع هذا الكتاب فى برلين ١٧٨٢ م .

وظل السريان حملة للعلم اليونانى إلى ما بعد تمام انتشار الاسلام فى الشرق الأدنى . وبقيت « حران » معقل الدراسات اليونانية من رياضة وفلك وفلسفة حتى العصر العباسى ، حيث اشتغل كثير من علمائهم نقلة للمأمون من اليونانية والسريانية إلى العربية . وكان للسريانية فضل حفظ مادة الكتب اليونانية التى انعدم أصلها . وعلى ترجماتهم لكتب الفلسفة اعتمد العرب عند أول اشتغالهم بهذا العلم. وقد كان السريان نقلة مدققين فى كل ما نقلوه من علوم المنطق والطب والطبيعيات والرياضيات ، أما الروحانيات فقد نقلوها نقلا معدلا بحيث أصبحت تلائم تعاليمهم المسيحية ، وهم فى هذا المسخ جعلوا من أفلوطين أحد مترهبيهم ، وأسكنوه فى البرارى منعزلا يتعبد فى معبد أقامه لنفسه (كذا) — ونحا نحوهم المسلمون عند ما راحوا ينقلون بدورهم ، فقد أسقطوا من الروحانيات اليونانية كل ما يخالف تعاليم الاسلام ، غير أنهم حرصوا على نسبة المذهب إلى صاحبه « أفلوطين » الاسكندرى ، الذى أطلقوا عليه اسم « الشيخ اليونانى »

* * *

ويعتبر « سرجيوس الرسعنى » ، المتوفى سنة ٥٣٦ للميلاد من أشهر الناقلين . ترجم عن اليونانية كثيرا من الكتب ، أخصها رسائل لارسطو وفورفيروس وجالينوس ، ووضع فى علم المنطق رسالة ناقصة وصلنا منها مقالات فى الجنس والفصل ، والايجاب والسلب ، والمقولات العشر . وله غير ذلك رسالة فلكية تبحث فى حركة الشمس وفى تأثيرات القمر .

وهو عند اليعاقبة والنسطوريين عميد الباحثين فى الطب اليونانى والمنطق والفلسفة — ذاعت كتبه بينهم ذيوعا عظيما .

ومنهم غير « الرسعنى » ، « حنين بن اسحق » « وابن أخته » « وابن الناعمى » . ويتبين فضل النساطرة فى نقل علم الطب بوجه خاص، وهم حلقة الاتصال بين الطب اليونانى والعرب . وأشهر الناقلين منهم إطلاقا « حنين بن اسحق العبادى » الذى كان فى وقت ما فى العصر العباسى زعيم المدرسة الطبية فى بغداد .

٭ ٭ ٭

الفصل الثانى

فيما نقل العرب عن الأسكندرية

الطب ـ الكيمياء ـ الفلسفة ـ الهندسة ـ الجبر ـ الجغرافية ـ الفلك

فى الطب والكيمياء

كان للطب شأن عظيم فى عصر البطالمة ، وكانت مباحثه متنوعة عندهم . وأنجبت الأسكندرية أشهر جراحين فى العالم القديم قاطبة ، هما « هيروفيلوس » و « إيراسستراتس » ، وعلى أيديهما تقدم فن التشريح تقدما عظيما فى المتحف الأسكندرى .

ولما أدرك الضعف جامعة الأسكندرية ، وشغلت عن متابعة التقدم العلمى بالفلسفة فى عصورها المتأخرة ، انحط شأن الطب واعتراه قصور بين ، تناول مادته وطريقة تدريسه .

وصادف العرب عند فتحهم للأسكندرية ، آخر ممثل للمدرسة الطبية ، وهو « بولس الأجانيطى »(١) يلقى محاضراته التى لم تتعد ست عشرة مقالة مأثورة عن « جالينوس ، ومقالات جالينوس هذه كانت تعتبر الحجة لدارسى الطب جميعا . ولم يتعد منهج دراسة الطب بجامعة الأسكندرية فى أخريات أيامها تلك المقالات .

وهكذا صادف العرب الطب الأسكندرى فى آخر مراحله ،

---

(١) Paul of Aeginae

ولم يدركوا شيئا من الآثار الطبية القديمة لتقادم العهد عليها .

وأول ما نقل العرب من طب الأسكندرية مقالات جالينوس هذه ، ومأثور من حكمة « بقراط » ، وخلاصة لآراء « بولس الأجانيطى » ، ولا سيما فى فن التوليد .

ويختلط العلم عادة فى عصور الضعف بكثير من الخرافة — والمرجح أن يكون العرب قد نقلوا الطب الاسكندرى مشوبا بالتنجيم والشعوذة والسحر ، فى عصر انفسح فيه المجال لكل هذه الأباطيل — وسرت هذه الروح نفسها من جامعة الاسكندرية إلى جامعة « پادوا » الايطالية التى أخذت نظامها عن جامعة الاسكندرية .

° ° °

وللاسكندريين مباحث قيمة فى علم الكيمياء ، ارتبطت بادىء أمرها ارتباطاً وثيقاً بالطب ، لما لها من وثيق الصلة به ، ثم عادت فتأثرت بالروح التى سادت فى عصر ضعف الجامعة ، فامتزجت بالشعوذة ، ونقلها العرب بصفتها هذه ، وزادوا عليها من مباحثهم الخاصة ، وسخروها لخدمة الطب ، فى استنباط العقاقير . (كما سخروها لكشف حجر الفلاسفة الذى زعموه يحول جميع المعادن إلى ذهب !)

ومن أوائل الناقلين للطب الاسكندرى الطبيب « ابن أبجر الكنانى » الذى استخدمه الخليفة « عمر بن عبد العزيز » فى نقل الطب إلى العربية ، ومنهم كذلك « سرجيوس الرسعنى » . من رأس عين ، ومن أشهرهم فى عصر النقل الأعظم أبو زيد « حنين ابن اسحق »

العبادى، المتوفى ٨٧٦ م ، وهو نسطورى جال فى جمع كتب الطب اليونانى، وانتهى اليه كثير من طب الاسكندريين،ثم استقر فى « بيت الحكمة » فى بغداد وترجم « جالينوس » ، « وأبقراط » إلى العربية.

ولم تقف جهود « حنين » فى الترجمة عند حد الطب ، فقد ترجم أيضاً بعض مؤلفات « اقليدس » و « أپولونيوس » و « أرشميدس » فى الهندسة والطبيعة .

فى الفلسفة

لعل أحب الأشياء إلى العرب هو هذا الجانب الفلسفى من علوم الاسكندرية، المعروف « بالأفلاطونية الحديثة» لأنها فلسفة تصوف، والعرب بطبيعتهم يميلون إلى التصوف ويحبون مباحثه .

نقل اليعاقبة هذا الضرب من الفلسفة إلى سوريا وغيرها من بلاد الأمبراطورية ، مستعينين به على نشر مذهبهم الدينى ، فوضعوه بهذا على مرأى من العرب فى عصر ازداد فيه تشوق هؤلاء إلى الأطلاع على آثار الأعاجم .

ونقل هذه الفلسفة إلى السريانية « ابن الناعمى » فى ترجمة غير دقيقة خلطت خلطا ظاهراً بين أفلوطين شيخ هـــذا المذهب وأفلاطون الفيلسوف اليونانى — وبهذا الخلط سبب «ابن الناعمى» للفارابى متاعب جمة، إذ حاول الفارابى أن يوفق بين تعاليم أفلوطين باعتباره « أفلاطون » وتعاليم « أرسطو » .

ونتج عن دراسة العرب ونقلهم لأرسطو أن اكتسبوا

أسلوبه المنطق فى الجدل ـــ كما نتج عن دراستهم ونقلهم للأفلاطونية الحديثة ، أن اكتسبوا روحها التصوفية ، فكان من أثر « أرسطو » عندهم نشوء مذهب « الاعتزال » ، كما كان ومن أثر دراسة الأفلاطونية الحديثة ، تقوية روح « التصوف » الاسلامى .

وللعرب أسلوبهم الخاص فى نقل الفلسفة ـــ من ذلك ما نقله الشهرستانى عن الشيخ اليونانى(١) (أفلوطين) فى فصل بسط فيه فكرته فى الأله والعقل والمادة ، وأورد فيه كثيراً من الرموز الفلسفية التى آثرها لشرح الفكرة(٢) .

فى الهندسة

بلغت الهندسة شأواً عظيما على يد « اقليدس » الرياضى الاسكندرى (٣٠٦ / ٢٨٣ ق . م) مؤسس المدرسة الرياضية بالاسكندرية . والمعروف ان « اقليدس » وضع فى هذا الباب ثلاثة عشر كتابا ، عصفت يد الزمن ببعضها ، وأبقت على البعض الآخر(٣).

---

(١) ليس افلوطين يونانياً . إنما هو مصرى ولد فى أسيوط ، ولعل الخلط الذى وقع فيه « الشهرستانى » راجع إلى الخطأ الذى شاع فى وقت ما ، من أن أفلوطين هو أفلاطون .

(٢) ومن رموزه وأمثاله التى توضح أسلوبه الفلسفى قوله :

« أن أمك رءوم ، لكنها فقيرة رعناء ، وان أباك لحدث ، لكنه جواد مقدر . يقصـــد بالأم الهيولى وبالأب الصورة ، وبالرءوم انقيادها ، وبالفقر احتياجها إلى الصورة ، وبالرعونة قلة ثباتها على ماتحصل عليه ـــ أما حداثة الصورة فهى أشراقها بملابسة الهيولى ، أما جودها فالمقصود به أن النقص لايعتريها من قبل ذاتها ، فهى جواد ولكن من قبل الهيولى » . اهـ عن « الملل والنحل » .

(٣) خمسة منها فى مكتبة « ليدن » أخذت لها صور فوتوغرافية محفوظة بدار الكتب المصرية .

وقد ترجم هذا البعض إلى العربية، وعرف باسم «الأصول» Elements
وله غير الأصول الهندسية مصنفات أخرى .

عنى العرب بنقل «أقليدس» وظهرت أول ترجمة عربية لمؤلفاته
فى عهد أبى جعفر المنصور ، ترجمها «أبو زيد حنين بن اسحق العبادى»
وترجم معها رسالة «أپولو نيوس» فى المخروطات وبعض آثار ارشميدس
فى القوانين الطبيعة .

ثم نقلها لهرون الرشيد «الحجاج بن يوسف بن مطر» (٧٨٦/٨٠٩م)
الذى نقلها مرة ثانية للمأمون (٨١٣/٨٣٣ م) .

وترجمها أيضا « ناصر الدين الطوسى » و « ابن الهيثم » وعن هذه
الترجمات العربية نقلت آثار «اقليدس» إلى اللاتينية ، وأشهر ترجمة
لاتينية لأقليدس هى ترجمة « كمَّانديتوس » Commandinos وأول
ترجمة انجليزية لاقليدس قام بها سير « هنرى بلنجستى » Billingstey
عمدة لندن ١٧٥٠ م .

وتسابق الأفرنج فى نقل « اقليدس » من « العربية » مرجعه
الوحيد ، بعد أن عفت مؤلفاته الأصلية ، وبلغ عندهم الشغف بنقله
إلى حد أن تنكر «اثلارد» Athelhard of Bate فى زى طالب عربى،
ونقل إلى اللاتينية نسخة عربية كانت فى بعض مكتبات الأندلس .

وطبعت جامعة اكسفورد (١٧٠٣ م) مؤلفات « اقليدس »
الاغريقية واللاتينية ، طبعها « دافيد جرجورى » David Gregory
ثم أعيد طبعها بالأغريقية مرة ثانية (١٨١٤/١٨١٨ م) ، طبعها
« پيرارد » (Peyrard's Greek Text) فى ثلاثة مجلدات .

وبقيت مؤلفاته الهندسية أكثر من الفى عام خالدة على الدهر، لم تظهر فى خلالها أية حركة مناهضة، إلا فى منتصف القرن التاسع عشر، حين ظهرت فى انجلترا حركة قصدت إلى الغض من شأن الهندسة الاقليدسية. ولا تزال هندسة «اقليدس» قيمة حتى وقتنا هذا — يدل على ذلك أن ملخصا لبعض هندسة اقليدس ما يزال يستعمل الآن ككتاب مدرسى يدرس فى المدارس الانجليزية وغيرها من مدارس العالم.

فى الجـــبر

من أساطين الرياضة فى مدرسة الاسكندرية «ثيون» Theon وابنته الرياضية النابغة «هيپاشيا» Hypatia. علق ثيون على ما وضع «اقليدس» فى الهندسة، وما كتب «كلوديوس بطليموس» فى الفلك، واشتركت معه فى هذا العمل الجليل ابنته.

وعنى «ثيون» وابنته «هيپاشيا» بعلم الجبر الذى وضعه «ديوفانتس» من قبل. وديوفانتس هذا رياضى يونانى فى نظر البعض، وعلى هذا تكون نشأة الجبر يونانية تبعا، وهو فى نظر البعض الآخر اسكندرى، عاش فى القرن الخامس الميلادى، وعلى هذا الزعم تكون نشأة علم الجبر اسكندرية متأخرة، لا يونانية قديمة.

ومهما يكن من شىء، فقد نشأ الجبر متأخرا عن الهندسة مراحل واسعة، فقد عرف التحليل فى الهندسة قبل أن يعرف فى الجبر. وظل علم الجبر متثاقلا حتى أدركه العرب فنقلوا ما أثبته فيه ديوفانتس من ناحية، ووضع، «محمد بن موسى الخوارزمى» فى عصر المأمون

مقالة مبتدعة فيه ، نقلت إلى اللاتينية فى عصر النهضة الأوربية . وما تزال النسخة العربية ترى فى احدى مكتبات أكسفورد حتى الآن.

وعلى هذا يكون العرب قد أضافوا إلى الجبر شيئا ونقلوا شيئا آخر . وربما كانت هذه المقالة الجبرية التى وضعها « الخوارزمى » نقلا عن الهنود : والمعروف أنه أخذ كثيرا عن هؤلاء ، وكانوا على دراية تامة بالجبر والحساب .

وفى نهاية القرن العاشر للميلاد ، استطاع « محمد أبو الوفا » أن يتناول كتاب « ديوفانتس » فى الجبر بالنقل والتعليق . وبعد « الخوارزمى » و « أبى الوفا » ركدت ريح هذا العلم .

وينسب إلى محمد بن موسى الخوارزمى أنه أول من نشر بالعربية مصطلح هذا العلم واسمه الذى نقل واستعمل فى اللغات الأوربية ، فى مؤلف له كان محفوظا فى خزانة كتب المأمون . وعن «الخوارزمى» ترجم الجبر إلى لغات أوربية مختلفة — وتناول مؤلفه هذا الجمع والطرح والضرب الجبرى ، والمعادلات الآنية من الدرجة الثانية ، والجذور ، ورفع الكميات ذات الحد الواحد .

وأول من ربط الجبر بالهندسة ، وبرهن على امكان استخدامه فى الحلول الهندسية « ثابت بن قرة » من رياضي العصر العباسى .

وكتب العرب بعد ذلك فى علم الجبر ، ولكنهم لم يضيفوا شيئا إلى مجهودات « الخوارزمى » و « أبى الوفا » و « ابن قرة » .

فى الجغرافيا والفلك

أشهر ما كتب فى الجغرافيا والفلك فى الاسكندرية ، ما وضعه

فيهما « إراتوسثنيز » و « كلوديوس بطليموس » .

وأول ما نقل العرب منهما كان فى زمن « أبى جعفر المنصور » ، حين ترجم « المجسطى » Almageste ، أعظم مؤلفات بطليموس ، إلى اللغة العربية . ومما يؤسف له أن الترجمة العربية لكتاب « المجسطى » ليست موجودة فى أية مكتبة من مكاتب الغرب أو الشرق(١) .

ولكن « محمد بن موسى الخوارزمى(٢) » الفلكى الشهير ، أمين دار كتب المأمون الذى تقدم ذكره فى علم الجبر ، وضع كتابا فى الفلك استقاه من « بطليموس » ، وفيه يتفق مع أستاذه فى مسألة درجات الطول ودرجات العرض . ويعرف كتاب « الخوارزمى » هذا باسم « السندهند » ، وهو خلاصة لآراء « كلوديوس بطليموس » — وكان هذا الكتاب موضوع الدراسات الجغرافية والفلكية على طول العصور الوسطى ، وهو المرجع الوحيد الباقى للآن من آثار بطليموس .

وأضاف « الخوارزمى » الى الجغرافية اضافة قيمة ، فله فيها نظرية تقسيم الكرة الأرضية إلى سبعة أقاليم مناخية متباينة .

ومنذ أخذ « الخوارزمى » عن بطليموس ، بدأ فلكيو العرب يشتغلون بوضع علم الهيئة ، ويبحثون فى الأفلاك والنجوم ، فوضع « الفرغانى(٢) »

(١) وأهم ما كان يحتوى « المجسطى » زيج زمنى ، وحساب لحركات الشمس والقمر ، وجداول بأسماء النجوم الشمالية ، وحركات الكواكب .

(٢) والخوارزمى هو الواضع لعلم اللوغاريتم Algorithme ، والكلمة تحريف لاسمه هو — وفائدة اللوغاريتم فى الجبر معروفة ، وبه أضاف الخوارزمى إلى مادة الجبر إضافة ذات بال .

مؤلفا يحتوى على ثلاثين مبحثا فى الهيئة ، والأفلاك ، وحركات النجوم ، أساسها كلها معارف بطليموس الفلكية .

وتناول «البتانى(٢)» بعض مقالات بطليموس فشرحها ، ووضع «زيجا» يعرف باسم «الزيج الصابى» وهو أدق من زيج بطليموس المثبت فى «المجسطى» .

وترجم «زيج البتانى» إلى اللاتينية ، وهو محفوظ فى مكتبة «الفاتيكان» ومنه نسخة أخرى فى مكتبة الاسكوريال فى أسبانيا .

وتعتبر الحقائق التى قررها البتانى فى الفلك أدق حقائق وصل اليها الفلكيون حتى العصر المتأخر . وقد حسب مقدار ميل دائرة فلك البروج، وقرر أنه يبلغ ٣٥َ ٢٣° ، وهو لا يختلف كثيراً عما قرره أخيراً العالم الفلكى «لالاند» وهو ٤١ً ٣٥َ ٢٣° — كما حقق أيضاً طول السنة الشمسية ، وخالف فى تقديره بطليموس بعض المخالفة ، ولم يسلم تحقيقه من الخطأ بسبب اعتماده على أرصاد هذا الاخير .

وجاء بعد «البتانى» كثيرون اشتغلوا بمسائل الفلك والجغرافية، منهم «ابن يونس المصرى» ، صاحب الزيج الحاكمى الذى اشتغل بالفلك فى عصر الحاكم بأمر الله ، و «البيرونى» المؤرخ المعروف ، صاحب

---

(١) احمد بن محمد الفرغانى، أحد العلماء المشتغلين بالنجوم فى عصر المأمون، ومؤلف كتاب «المدخل» .

(٢) محمد بن جابر بن سنان، أحد المشهورين برصد الكواكب وحساب النجوم فى العصر العباسى .

كتاب « التفهيم » ، وكتاب « القانون المسعودى » الذى وضعه بأمر من السلطان « مسعود بن محمد ابن سبكتكين » الغزنوى .

واشتغل فريق من فلكيي العرب بقياس الدرجة الأرضية ، متخذين من معلومات « اراتوسثنيز » أساساً لأبحاثهم ، وقدرها بعضهم بستة وخمسين ميلا ، والبعض الآخر بستة وخمسين ميلا وثلثين ، وفريق ثالث قدرها بسبعة وخمسين ميلا — اختلفوا فى تقديرها بسبب افتقارهم إلى آلات الرصد الدقيقة . وكانت المحاولة الأولى لقياسها فى عصر أبى جعفر « المنصور » .

وممن اشتغلوا بقياس الدرجة الأرضية « سناد بن على » و« خالد ابن عبد الملك » ، و« على بن عيسى الأسطرلابى » و« على بن البحترى » فى عصر المأمون — وكانت برية « سنجار » مسرح أعمالهم الفلكية .

وهكذا كانت جهود بطليموس «وإراتو» الاسكندريين أساساً لكل مباحث العرب فى علمى الفلك والهيئة .

وقدر لعلم بطليموس وأراتوسثنيز أن ينتقل مندمجاً فى أبحاث العرب إلى أوربا ، حيث ترجم إلى اللاتينية والأغريقية ، وحفظ فى مكتبات الجامعات ، حتى تناولته يد البحث الحديث ، فاستفادت منه استفادة كبرى فى وضع « الفلك الحديث » .

° ° °

انصرف العرب فى العصر العباسى ، بفضل مؤازرة الخلفاء إلى النقل من اللغات الأعجمية : من الهندية والفارسية والسريانية ، واليونانية ، فاجتمعت لديهم بهذا ذخيرة علمية ، لم يسمع بمثلها إلا فى عصر

النهضة الأوربية . واكتسب العرب من هذا النقل ملكات خاصة ، استطاعوا بها أن يضيفوا إلى كل ما نقلوا شيئاً جديراً بالتقدير، خليقا بالأعجاب .

واهتم الأوربيون فى عصر أحياء العلوم بهذا التراث العلمى القيم ، فنقلوا منه الشىء الكثير إلى اللاتينية والأغريقية ؛ وعنيت الجامعات الأوربية فى أنحاء القارة ، بالتسابق إلى اقتناء المخطوطات العربية أو ترجمتها — وعنى المستشرقون أخيراً بنقل هذه الآثار إلى لغاتهم .

وحفلت دور الكتب فى الحواضر الأسلامية بهذه الذخائر زمناً: فى بغداد ، والقاهرة ، ودمشق ، ونيسا بور ، وقرطبة ، وغيرها ، ثم شاعت منها فى أنحاء أوربا بطريق النقل ، ونزحت إلى الأندلس خاصة طوائف من محبي العلم ، من ايطاليا ، وچرمانيا ، وفرنسا ، وبلاد الأنجليز ، نهلت من علومها العربية أو المعربة ، ثم عادت إلى مواطنها ، وعرضت ما تلقفت من كنوز العلم على جماهير الراغبين فيه .

فانظر كيف كان فضل الأسكندرية على العرب ، وكيف كان فضل العرب على أوربا الحديثة ؟؟

٥٥٥

الفصـــل الثالث

فى الاقتباس والنقل غير المباشر

نقل العرب — الاقتباس من الاسكندرية — جمع المخطوطات القديمة للمدارس الأسلامية — تسرب كتب مكتبة الاسكندرية إلى أوربا — تسرب العلم الاسكندرى إليها — وسائل ذلك التسرب — تفصيل ذلك — نقل النظام الجامعى .

منذ أسس البطالمة فى الاسكندرية جامعة ، ومنذ تركزت الثقافة الهلينية فيها ، أمها طلاب العلم من كل صوب وحدب، لدراسة الطب والرياضيات والفلسفة والفلك وغيرها من شعاب المعارف الانسانية .

وفى عصر قوة الجامعة ، كانت « اثينا » ما تزال عامرة بالفلسفة فلم يكن بد لمحبي العلوم البحتة من الاستماع إلى أساتذة الأسكندرية ، وفى عصر ضعفها، كانت ريح الزمن قد عصفت بكل مافى «أثينا» من علم وفلسفة. ورغم هذا الضعف الذى منيت به جامعة الاسكندرية على أثر دخول المسيحية ، ظلت وحدها فى العالم القديم قاطبة منهل العلم حتى القرن السادس الميلادى .

وأم الأسكندرية فى هذا العصر الأخير راغبون فى العلم من كل جنس، وأفادوا من علمها الشىء الكثير. وكان من هؤلاء الوافدين على جامعة الأسكندرية فى عصرها المتأخر، نساطرة من انطاكية ، وعرب من بغداد ، ويونانيون وأيطاليون ، تزودوا جميعاً بثروة طيبة من اللغة الأغريقية — لغة العلم والثقافة . ونقل هؤلاء عن الاسكندرية نقلا مباشراً ، وأذاعوا كل مانقلوه فى فى بلادهم ، نخفقت ألوية العلم

على ربوع البحر الأبيض الشرقي ، وعمرت خزائن «بغداد» بنفائس اليونان عامة ، والاسكندرية خاصة ، وأخذ العرب يضيفون إلى مانقلوا ، ويوفقون بين شوارده ، فرادى وجماعات — وأنشأوا المعاهد العلمية لتدريس العلوم فى العصر الاسلامى . وأول من أنشأ المدارس فى الاسلام « نظام الملك » الطوسى ، وزير ملكشاه السلجوقى، فى أواسط القرن الخامس الهجرى،(الحادى عشر الميلادى) ، وأقدم هذه المدارس جميعاً كانت « المدرسة النظامية » فى بغداد ، بناها «نظام الملك» وجعلها مركزاً لدراسة العلوم الدينية والكلامية. وكان لهذه المدرسة وغيرها من المدارس فى مصر وسوريا والأندلس شأن فى العلم الاسلامى فى العصور الوسطى يشبهه شأن جامعات «سالرنو» و «بولونيا» و «پادوا» الايطالية . وتضافرت جهود هذه المعاهد ، كل فى زمنه وموطنه ، على الاحتفاظ بالثروة العلمية القديمة المنقولة عن اليونان والهنود والفرس والاسكندريين ، إلى أن أدركها العصر الحديث ، فألقى عليها من نوره ضوءاً وهاجاً ، واستغلها فى تكوين المعارف الحديثة .

وعلى نحو مافعل « نظام الملك » الطوسى ، أسس أنصار العلم المدارس فى كل ناحية من نواحى الدولة الاسلامية ، فى الاندلس ، فى أشبيلية وقرطبة وغرناطة وطليطلة — وفى مصر ، فى القاهرة ، والاسكندرية — وفى الشام ، فى دمشق وحلب وحماة وحمص وبعلبك.

وأسس العرب «دور الكتب» بعد أن توفر لهم من الكتب عدد يجل عن الحصر ، ومنها « بيت الحكمة » فى بغداد ، دار كتب

الرشيد والمأمون، ودار الكتب فى قرطبة، وهى التى أنشأها «الحكم ابن الناصر»، وكانت لاتقل عن دار كتب بغداد شأنا، ويقال ان «الحكم ابن الناصر» كان يرسل التجار فى طلب الكتب من كل أسواق العالم المعروف. وفى مصر كانت قصور الموسرين حافلة بنفائس الكتب، وكانت كذلك دار كتب الحاكم الفاطمى التى تسمت أيضاً باسم «بيت الحكمة».

ooo

تقدم بنا ذكر موجز لأشهر ما نقل العرب من علوم الاسكندريين، وليس ثمة شك فى أن ما نقلوه ظل محفوظا فى خزائنهم إلى أن نقله عنهم الأفرنج، من مكاتب الأندلس بادىء الأمر، ومن بلدان الشرق الأدنى أبان الحروب الصليبية، وعن غير هذين السبيلين، بطريق تجار الكتب، والباحثين عنها من المستشرقة وهواة القديم.

وعلينا الآن أن نناقش الوسائل الاخرى التى يمكن أن يكون قد انتقل بها تراث الاسكندرية إلى أوربا. ونرجح أن تكون هذه الوسائل منحصرة فى ثلاثة أمور:

الأول — ما يمكن أن يكون قد تسرب إلى «بيزنطة» و«روما» من تراث الاسكندرية مدة الهدنة التى منحت للروم، عند تسليم الاسكندرية للعرب.

الثانى — ما انتهى إلى بعض الجامعات الأوربية من هذا التراث بطريق النقل والاقتباس، وأعلى الجامعات كعبا فى هذا المضمار، الجامعات الايطالية.

الثالث — ما يمكن أن تكون قد احتوته الاديرة الاوربية من آثار العلم الاسكندرى عامة والفلسفة خاصة .

أما عن الأمر الاول — فالمطلع على شروط تسليم الاسكندرية للعرب، يرى أن العرب قد تهادنوا مع الروم أحد عشر شهرا ، سمح فيها للروم بنقل متاعهم بحرا إلى القسطنطينية . ولا يكاد المرء يتردد فى الاعتقاد ، بأن كثرة هائلة من كتب الاسكندرية ، مما كان مملوكاً للأفراد ، أو مخبوءاً فى الاديرة والكنائس، لابد أن تكون قد تسربت إلى أوربا ، مع ماخرج من المدينة من متاع مدة الهدنة .

يؤيد هذا الرأى ماهو شائع الآن بين مؤرخى الفلسفة عموما، من أن أساس الحركة الفلسفية «المدرسية» ، يلتمس عادة فى جهتين: احداهما بيزنطية والثانية الاندلس — ولو عرفنا أن هذه الحركة الفلسفية تعتمد فى جوهرها على أساس اسكندرى من فلسفة افلوطين وأمونياس سكاس، لاتجه الفكر بنا إلى أن الفتح العربى لابد أن يكون قد دفع بنصيب وافر من تراث الاسكندرية ، بما فيه من فلسفة الافلاطونية الحديثة ، إلى بيزنطية وغيرها من جهات أوربا .

أما عن الأمر الثانى — فقد كانت الاسكندرية ، مستقر العلم منذ نشأت الجامعة فيها، واستمرت كذلك زمنا طويلا حتى الفتح العربى . وكان العالم الغربى وثيق الصلة بالاسكندرية طول هذه المدة ، ينقل عنها نشاطها الفكرى، وكانت أكثر دول الغرب أخذاً عنها، ايطاليا، بحكم ما كان بين إيطاليا ومصر من العلاقات القديمة . وبعد زمن أصبحت جامعة «سالرنو» الايطالية أوثق الجامعات الايطالية صلة بالعلم الاسكندرى ، وورثت

الكثير من ثروتها العلمية ، بطريق الاخذ غير المباشر . والمعروف أن جامعة «بادوا» وغيرها من جامعات إيطاليا قد تأثرت على نحو ما بروح الاسكندرية العلمية فى عصورها الاخيرة ، وهى روح مشوبة بشىء غير قليل من التنجيم فى ثنايا الفلك ، والخرافات فى ثنايا الطب — وكان شأنها فى هذا النقل المشوب ، شأن العرب فى نقلهم عنها . ومهما يكن من أمر تلك الشوائب التى لحقت بالعلم الاسكندرى ، فقد أمدت الاسكندرية أوربا بغذاء فكرى طيب ، فى وقت كانت فيه الجامعات الاوربية الناشئة أحوج ماتكون إلى مادة علمية .

وكانت فلسفة أرسطو وافلاطون ، وآراء افلوطين فى الفلسفة والتصوف ، وغير هذه وتلك مما انتهى إلى الجامعات الايطالية، سبباً فى انتعاش الجامعات الاوربية فى العصور الوسطى ، الأمر الذى كان من أجل نتائجه ، أن غدا العلم فى متناول الجماهير ، بعدأن كان وقفاً على الآباء المسيحيين فى الاديرة والكنائس .

وما تزال بعض مؤلفات الاسكندريين منذ ذلك العهد موجودة فى مكتبة « الفاتيكان » وغيرها من المكتبات الاوربية ، فى « ليدن » و « الاسكوريال » وغيرهما ، بالشكل الذى صاغه فيها المترجمون العرب .

أما عن الأمر الثالث — فالمعروف أن مذهب الافلاطونية الحديثة ، خرج من الاسكندرية ، وتشكل فى أثينا بشكل وثنى متطرف ، وفى سوريا وغرب إيران امتزج بالزرادشتية والمسيحية الشرقية . وفى روما كان أقل اعتماداً على التصوف وأقل غموضاً ،

ـ وفى القرن السادس الميلادى ، امحت كل الآثار الوثنية الفلسفية، وحلت محلها آراء ومذاهب دينية ، تمت إلى المسيحية بأقوى الاسباب، اتخذت لها من أرسطو وأفلاطون، ومن فلسفة «أفلوطين» سنداً تحيا به . واستقرت الثروة الفلسفية اجمالا فى الاديرة ، فعمرت خزائنها بآثار افلاطون وأرسطو وافلوطين. وشغف آباء الكنيسة بالمجادلات الدينية ، من أثر أتباعهم أسلوب أرسطو المنطقى(١). وحاولوا جهدهم أن يقيموا المسيحية على أساس من العقل،فظهرت فى الاديرة حركة تشبه حركة الاعتزال التى ظهرت فى الاسلام فى العصر العباسى ، مرجعها الرغبة فى استخدام أفلاطون وأرسطو لتدعيم التعاليم المسيحية . وظهر جنباً إلى جنب مع هذه الحركة التعقلية فى الدين المسيحى ، حركة تصوفية ، دفع إليها شغف رجال الدين بالأفلاطونية الحديثة التى كان من أثرها نشوء التصوف المسيحى ، كما كان من أثرها فى الشرق مؤازرة التصوف الأسلامى .

° ° °

بهذه الوسائل الثلاث ، تسرب العلم الاسكندرى إلى أوربا ، وعن الطريق الأخير ، شاعت آراء أفلوطين ، ولم يقتصر أثرها على الأديرة ، بل كونت النواة لفلسفة العصور الوسطى ، وهى الفلسفة

---

(١) ومن أشهر فلاسفة الآباء الكنسيين وأكثرهم اشتغالا بمسائل الفلسفة، بغية اقامة المسيحية على أساس من التعقل « سنت كلمنت » الاسكندرى(١٦٠ / ٢٢٠م) وفلسفته خليط من مذهب الشك والأفلاطونية الحديثة ، ومنهم كذلك «سنت أوغسطين» (القرن الخامس م) .

« المدرسية » Scholastic Philosophy ، التى نشأت بادىء الأمر فى الأديرة ، ثم خرجت من الأديرة فلسفة عامة ، لها ممثلوها من غير رجال الدين .

اتسمت الحركة المدرسية بوجه عام بميسم دينى ، وكان هم الفلاسفة المدرسيين دراسة الفلسفة اليونانية دراسة عميقة . لادخال عنصر التعقل على المسيحية . التمس هؤلاء أصولا لفلسفتهم فى كل من القسطنطينية والأندلس والاسكندرية على السواء .

وتقع حركتهم هذه فى فترتين : الأولى ، من القرن السادس إلى القرن الثالث عشر تقريبا ، وفيها شغف « المدرسيون » بدراسة «أفلاطون» بوجه خاص ، واكتفوا من « أرسطو » بأسلوبه المنطقى ، وربما كان ذلك لأنهم وجدوا فى أفلاطون مادة عقلية تناصر المسيحية ، وفى أفلوطين الاسكندرى عقلا ممزوجا بالتصوف ، وفى منطق «أرسطو» الحجة التى يتذرعون بها فى الاقناع .

وتمتد الفترة الثانية ، من القرن الثالث عشر إلى عصر النهضة الأوربية ، وهو العصر الذى تحللت فيه الفلسفة من جميع القيود التى رسفت فيها زمنا ، وأخصها قيود الدين . وأشهر فلاسفة الفترة الأولى ، «أنسلم» و «أبلارد» ، ومن فلاسفة الفترة الثانية « البرتس ماجناس » و « توماس أكويناس » .

والناظر فى فلسفة «المدرسيين» ، يرى جهودا قيمة لوضع مثل عليا أخلاقية للمسيحية ، ويرى تصوفا مسيحيا ظاهرا — وما أوضح مايشاهد أثر أرسطو وأفلاطون ، وأثر فلسفة الاسكندريين فيما كتب

الفلاسفة المدرسيون جميعا بلا استثناء .

وتآزر فى هذه الحركة كل من الفلسفة والتصوف والمنطق وآراء أفلاطون فيما وراء الطبيعة على خدمة المسيحية . والحق أن هذا العصر خدم المسيحية من نواح كثيرة ، وأضر بها كذلك فى نواح أخرى ، إذ أدت المناقشات الجدلية إلى خلق طوائف مسيحية ذات آراء متشعبة فى طبيعة الاله ، وغيرها من أمهات المسائل الدينية . وفسدت العقيدة الدينية أو كادت من أثر ذلك ، فتداركها الاصلاح الدينى ، وقضى على البدع السائدة ، وخلص الدين من شرور الخلافات ، ووضعت للدين المسيحى منذ ذلك الوقت تعاليم جديدة ، فصلته فصلا تاما عن الآراء الفلسفية — وبدأ فى تاريخ كل منها بهذه المفارقة فصل جديد .

* * *

وعلى نحو ما ذاعت عن الاسكندرية معارفها بطريق الاقتباس والنقل المباشر وغير المباشر ، كذلك يرجح أن يكون نظامها العلمى قد انتقل إلى أجزاء من حوض البحر الأبيض المتوسط بطرق مشابهة . والصلة بين أقدم الجامعات الأوربية فى إيطاليا ، والمدارس التى كانت مزدهرة فى أثينا وفى الاسكندرية فى القرن السادس الميلادى (وهو الزمن الذى يحدد آخر العهد بحياة النظام التعليمى اليونانى) ليست واضحة ، ولا يستطيع الانسان أن يجزم فيها برأى — لأن فترة طويلة لا بد أن تكون قد انقضت بين انهيار النظام القديم ، وقيام أولى الجامعات الايطالية وأقدمها فى «سالرنو» ، فى القرن التاسع الميلادى .

على أنه لا يبعد أن تكون الجامعات الايطالية الأولى، وهى «سالرنو» و «بولونيا» و «بادوا» قد اضطلعت بأمر إحياء العلوم القديمة وإشاعتها فى أوربا بحكم تلك الصلات القديمة التى كانت بين إيطاليا والاسكندرية. والمتصفح لتاريخ الجامعات، لا يرى مناصا من الاعتقاد بأن الجامعات الايطالية الأولى، ليست إلا صورا متداعية للجامعات التى كانت مزدهرة فى أوقات مختلفة فى أنحاء العالم الهلينى. وقدّر بهذا أن تحتفظ إيطاليا بما بقى على الزمن من نظم الجامعات وعتادها وروحها، فى زمن فسدت فيه أمور العلم، وكادت تمحى من الوجود كل بارقة من بوارقه. والحق أنه لم يكن عجيبا فى زمن انحطم فيه عود العلم، وسقطت ألويته أو كادت فى الاسكندرية التى غدت كالأتون يغلى بالاضطرابات على طول القرون الستة التى أعقبت دخول المسيحية مصر، من أثر النزاع المميت الذى احتدم بين الوثنيين والمسيحيين فى المدينة — لم يكن عجيبا والحال كذلك، أن يفر رجال العلم إلى حيث يجدون الحياة أكثر أمنا وأوفى طمأنينة، وأن يهاجر من المدينة كلما سنحت الفرصة، كل عنصر من عناصر الخير، ليظهر أو ليختنق فى مكان يكون أقدر على إظهاره أو إخفائه — ولا بد فى مثل هذه العصور، من أبطال يضطلعون بهذه المهام. وذلك ماحدا بالايطاليين، وصلتهم بمصر فى العصور الأوربية المظلمة وثيقة كما هو معروف، إلى الاحتفاظ بشىء غير قليل من علوم الاسكندريين ونظامهم فى التعليم.

° ° °

ومن جامعات إيطاليا ، شاع فى أوربا الوسطى نظام تعليمى مشابه لنظامها ، وأقدم « جامعة » نشأت فى قلب القارة الأوربية متأثرة بنظام الجامعات الايطالية جامعة « هيدلبرج » الألمانية التى تعتبر أماً لجامعات وسط أوربا فى العصور الوسطى .

هذا ويجمل بنا ونحن نذكر الجامعات ، أن نتحلى بشىء غير قليل من التسامح فى اطلاق كلمة « الجامعة » على المؤسسات العلمية التى نشأت فى الأزمنة القديمة ، والأزمنة المتوسطة — فلم تكن هذه وتلك جامعات بالمعنى الذى نفهمه الان ، لأن الفكرة الجامعية لم تتضح فى أوربا إلا فى القرن التاسع عشر ، قرن الجامعات . وقبل ذلك كانت الجامعات الأوربية أشبه شىء بالحلقات التى تنتظم حول معلم يلقى تعاليمه ، أو حول متجادلين ، يلذ للناس شهود الخلاف المحتدم بينهما . وقد كان ذلك بعينه هو الشأن فى الأكاديميات اليونانية الأولى . على أن هذا النظام البدائى لم يلبث أن تحول إلى نوع من المدارس المنتظمة ، يشرف عليه مشرف كان فى الغالب من رجال الدين : أطلق عليه اسم « راعى المدرسة » Rector Scholarium وهى تسمية متأثرة بالنظم القديمة ، فقد كان مدير جامعة الاسكندرية قديما يعرف براعى الجامعة وكان من رجال الدين أول الامر . وتأثرت الدراسة فى تلك المؤسسات المبكرة تأثراً ظاهراً بالروح اليونانية فى الحوار ، إذ كادت تقتصر الدراسات فيها على « الجدل » Dialectics الذى سلطوه على كل ما انتهى اليهم من المعارف الانسانية ، وبقى الحال على ذلك حتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى . ومن أشهر

ممثلى الحالة العلمية فى العصور الوسطى : « لانفرانك » Lanfranc و « برنجار » Berengar الفرنسيان ، وقد أدى بهما أسلوب العصر العلمى المفرط فى الاعتماد على التعليل — إلى الجدل والاختصام الشديدين اللذين يذكران بجدل علماء الاسكندرية واختصامهم فى قديم الزمن . ومنهم كذلك « روسلينوس » Roscellinus و « أنسلم » Anselm ، وهما من كبار المحاجين الذين أغرموا بأسلوب التعقل والتعليل فى فرنسا فى القرن الثانى عشر ، احتدم بينهما الجدل على نحو ما احتدم بين « لانفرانك » و « برنجار » من قبلهما .

هذا ومن أقدم الجامعات الأوربية فى أوربا الغربية فى العصور الوسطى جامعة باريس ، وتعتبر « الجامعة الأم » بالنسبة لكل جامعات القارة التى تطورت فيما بين القرنين الثانى عشر والثامن عشر حتى انتهت إلى الأوضاع الجامعية الحديثة التى تدين بوجودها وتمام تكوينها للقرن التاسع عشر (قرن الجامعات) ، وليس أدل على ذلك من انتشار نظامها شمالى « اللوار » ممتدا إلى الأراضى الواطئة ، وشرقى «الرين» متوغلا فى أوربا الوسطى ، وكانت جامعة «براغ» فى القرن الثالث عشر تعرف باسم «الأستوديوم» Studium وهى تسمية تشعر بتأثر هذا الوسط العلمى بنظام جامعات الجنوب التى كانت معاهد للدراسة العامة Studia generalia ، والظاهر أن جامعات أوربا الوسطى كانت قبل القرن الحادى عشر الميلادى تدين بنظامها وروحها للجامعات الايطالية ، ومنذ نهضت جامعة « باريس » بعبء النظام الجامعى ، سرت روحها وبرامجها إلى أوربا .

الوسطى عامة ، وتأثرت بها تأثراً مباشراً جامعتا أكسفورد وكمبردج الانجليزيتان . ونظام الأولى منهما اقتباس صريح من نظام جامعة باريس . وكانت تتميز جامعة « أكسفورد » عن غيرها من الجامعات الانجليزية كجامعات لندن ومانشستر ولفربول بأقامة الطلاب فيها . ومن عجب أن يكون ذلك هو نفس النظام الذى التزمته جامعة الاسكندرية القديمة . وهو شيء يعاب على النظام الجامعى ، إذ هو يدخل الجامعات فى عداد المدارس الداخلية ، ويظهرها بمظهر لا يليق بها — ذلك كان شأن « كلية الملكة » فى أكسفورد ، أول عهدها بالحياة ، ولم تلبث جامعة أكسفورد أن فطنت إلى عيوب هذا النظام ، فعدلت عنه ، وجاءت كلية « أول صولز » فيها مصححة لهذا الوضع المعيب .

° ° °

ويكاد الانسان يلمس فى كل ما تقدم تأثر المعاهد العلمية سالفة الذكر ، كل بدوره بطريق مباشر أو غير مباشر ، بنظام جامعة الاسكندرية ، وهو نظام يونانى فى جملته وتفاصيله ، بقى على نحو ما قائماً على الزمن ، حتى تسلل إلى أوربا بتأثير عوامل شتى : منها هرب العلماء من أثر اضطهاد أو قسر ، ومنها الاقتباس ، وهو أظهر العوامل وأقواها وأبعدها أثراً ، واقتباس ايطاليا من الاسكندرية من الأمور الطبيعية المحتملة ، ومنها كذلك هجرة التيارات الثقافية هجرتها التى لا تحس ولا يكاد يدرك مداها .

° ° °

وعلى نحو مشابه تأثر الشرق الأدنى قبل ظهور الاسلام وبعده

بعلم الاسكندرية — وإن نكن لا ندرى مدى تأثر معاهده بالنظام الاسكندرى، والأغلب المعقول إلا تتأثر الأوساط العلمية فى الشرق الأدنى : فى إنطاكية وحران وجنديسابور بالنظام الاسكندرى بتفاصيله، لاختلاف العقلية الناقلة فى الشرق عن العقلية الأوربية التى لم تكن غريبة عن العقلية اليونانية. ومهما يكن من الأمر، فقد كانت عقلية الناقلين من النساطرة واليعاقبة والسريان عقلية مستشفة مستوعبة لعلوم الأقدمين، أمينة لم تغير ولم تبدل فيما أقدمت عليه : أما العرب فقد كان لهم نهجهم الخاص فى استيعابهم ونقلهم — ذلك النهج الذى يتبين فى أسلوبهم المنفرد فى النقل، وفى نظامهم المتميز الذى أنشأوا عليه مدارسهم، وأن يكن أسلوب الجدل اليونانى قد لعب عندهم دوره المعهود، على نحو ما فعل تماما عند الغربيين.

الفصل الرابع

تأثر العقل العربى بالاسكندرية

طبيعة الثقافة اليونانية - الثقافة العربية مدينة لهذه الطبيعة - قدم اختلاط العرب بالأمم المجاورة - تسرب الأفكار اليونانية الى جوف شبه الجزيرة العربية - أثر الأفلاطونية الحديثة وأسلوب أرسطو - حركة النقل النسطورية وحركة النقل العربية وأثرهما فى تكوين العقلية العربية - شبه العقل العربى بالعقل اليونانى - تأثر العقل العربى بنهج البحث اليونانى - الاعتزال أثر من آثار اشتغال العرب بالفلسفة والمنطق - تشجيع المأمون لحركة الاعتزال - اضطهاد بعض الخلفاء للمتفلسفين - اختفاء الفلسفة ونشوء جماعة اخوان الصفا - التصوف الاسلامى وتأثره بالأفلاطونية الحديثة .

لا جدال فى أن الثقافة التى أبدعها العقل اليونانى وأفرغها فى قالبه الخاص هى أقوى الثقافات التى عرفها التاريخ. قدر لها الانتشار والذيوع مصاحبة لغزوات الاسكندر المقدونى ، وظلت هذه تسود العالم فى وقت سيطرة «هلا» و «أثينا» ، ومن عجب أن تبق لها السيادة على العقل البشرى حتى فى الأوقات التى ضعفت فيها بلاد اليونان ضعفها السياسى المعروف ، منذ انتقلت مقاليد الأمور من أثينا إلى غيرها من كبريات مدن البحر المتوسط ، ومنذ مال ميزان القدر ، ففقدت عاصمة الفكر مكانتها فى عالمى السياسة والثقافة معا ، وارتفع شأن الاسكندرية و «روما» على أثر ذلك .

والثقافة اليونانية بطبيعتها ثقافة غازية ، نشرتها قوة السلطان الحربى دون أن يقضى عليها زوال ذلك السلطان . ولقد جعلت منها هذه الصفة

النافذة ثقافة تقوى على الحياة فى أشد الظروف وأعنفها. وليس أدل على ذلك من سيطرتها على عقول البطالمة والرومان من بعدهم، وبقائها رغم قيام المسيحية ونضالها القوى معها، وتسربها إلى الأديرة والكنائس وخزائن العلم الأوربية فى العصور الوسطى. وما ذلك إلا لأنها ثقافة غالبة، فيها من صفات الحيوية والقوة ما يجعلها صالحة لكل زمان، صامدة لا تؤثر فيها عاديات الزمن — ولا غرابة، فهى ثقافة انسانية قويت على الذيوع والانتشار بدافع من طبيعتها وتكوينها الخاص.

والثقافة العربية، وهى فى مجموعها ثقافة وليدة، كبيرة الشبه بثقافة اليونان: لها من الصفات ما للثقافة الأم، من ضخامة الانتاج وتشعبه وتداخله وقوته، ولا غرابة فهى آخذة منها، مسرفة فى أخذها، ومن ثم كانت قوتها ومقدرتها بدورها على الذيوع، وخلودها وصمودها على الزمن.

وأدى منطق الحوادث أن يكون العرب ورثة للثقافة اليونانية على الشكل الذى انتهت اليه تلك الثقافة على يد الرومان. فلما أن دالت على يد العرب دولة الروم، قدر لهؤلاء العرب أن يتناولوا ما فى الخزائن الملوكية، من تراث، وكان ذلك الميراث، على الرغم من أحداث الزمن الجسام كبيرا عظيم القيمة، بالغ النفع.

وأخذ العرب عن اليونان قديم يرجع إلى وقت تأثرهم فى عقر دارهم بالتيارات الدينية والثقافية التى وجدت سبيلها إلى شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام، بطريق اليهود والمسيحيين المنبثين فى

شبه الجزيرة ، والمساكنين للعرب فى بلادهم . ومن قبيل ذلك الاتصال المبكر اتصال الأعراب النازحين شمالا بعرب سينا ، وورودهم أرض فلسطين والجزيرة ومصر يلتمسون فيها القوت على عادة البدو المتنقلين سعيا وراء الرزق .

ولا بد أن يكون العرب قد شهدوا فى تجوالهم هذا أحوال الأمم المجاورة ، وأفادوا من الارتحال دراية ، لا نقول أنها أكسبتهم ثقافة أو علما ، فليس من شأن الجماعات المتبدية التى تجول بحثا عن القوت أن تفيد فى تجوالها علما أو ثقافة — وإنما أكسبتهم دراية بأحوال الأمم التى نزلوها بدوا ، أو تجارا ، أو فاتحين بعد ذلك . وليس منا من يجهل ارتحال العرب ، قرشيين أو غير قرشيين بقصد التجارة ، وما أفاده القرشيون خاصة من المعارف التى لا تتوفر عادة إلا للتجار من احتكاكهم بأضرابهم فى الأمم الأخرى . وأول ما استفاد العرب الحجازيون من أسفارهم هذه كان دراية بالكتابة وحساب التجارة ، استعاروهما من بنى عمومتهم من الأنباط الذين كانوا يسكنون سينا وأطراف الحجاز الشمالية ونجوع حوران وقنسرين على الفرات .

ومن شأن هذه الأسفار التجارية أن توسع الأفق الفكرى وأن تهيء العقل لقبول الجديد . ومرجع ذلك فيما يظن ما يكتسبه التجار عادة من المرونة الفكرية بسبب كثرة اختلاطهم بالغير ، وتخطيهم للفوارق الأقليمية .

تكونت هذه الطبيعة للعرب مبكرة قبل الاسلام ، فكان من شأنها أن مكنت لهم فى الوقت المناسب ، وعند ما تهيأت لهم

حياة الاستقرار التى لا بد منها لتهيئة حياة علمية من أى نوع ، الاشتغال بمسائل العلوم — والمعروف المتداول أن آراء النساطرة فى الدين، وهى مزيج من المسيحية وفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، كانت قد تساقطت الى جوف شبه الجزيرة العربية، منذ زمن مبكر قبل الاسلام ، وأن العرب المسيحيين لا بد أن يكونوا قد اشتغلوا بدورهم هناك بالمسائل الجدلية الدينية ، ولا غرو ، فقد كان منهم فى شبه الجزيرة العربية نساطرة تأثروا بالفلسفة اليونانية بشكلها النسطورى ، ومسيحيون مختلفون فيما بينهم على بعض المسائل اللاهوتية : ومما يستسغيه العقل أن يكون النساطرة ، وهم يجدّون فى نشر الفلسفة اليونانية فى الشرق الأدنى، قد اتجهوا بأفكارهم فيما اتجهوا نحو قلب شبه الجزيرة العربية ذاتها، وكانوا جد حريصين فيما نعلم على ابلاغ آرائهم إلى جوف الامبراطورية الساسانية وجوف شبه الجزيرة العربية على السواء.

ووجد النساطرة مجالا خصبا لنشر الفلسفة اليونانيـة فى الشرق الأدنى ، حيث أنشأوا مدرسة فلسفية فى « نصيبين » . واستطاعوا أن يصبغوا مذهب (التأله) هناك بصبغة من الفلسفة اليونانيـة . وما لبثت مدرسة نصيبين الفلسفية هذه أن أغلقت أبوابها و هجرت وخلفتها مدرسة قامت « فى الرها » لأسباب دينية خاصة تتعلق بنزاع النساطرة مع المذهب الرسمى للكنيسة .

وقام النساطرة بحركة ترجمة قصدوا بها أول الأمر خدمة مذهبهم الدينى، فترجموا كتب زعمائهم الدينيين إلى السريانية ، وإذ هم كذلك ، يرجموا أيضا إلى هذه اللغة نفسها كتب « أرسطو » والكتب التى

علقت عليه ، استعانة بها على فهم العقائد اللاهوتية التى كانوا يبشرون بها .

ومهما قيل فى قيمة ما نقل النساطرة من منطق وفلسفة فى دعوتهم لمذهبهم الدينى ، فهو بلا شك ابتداء حركة النقل الكبرى ، ومقدمة لتأثر العقل العربى بآراء اليونان .

ومما يؤخذ على هذا النقل المبكر أنه كان أول الأمر لا يخدم العلم لذاته، لأنه كان مسخرا لخدمة العقيدة النسطورية المسيحية دون غيرها .

وبدأت عند المسلمين حين اصطدموا بالثقافة اليونانية فى مواطنها التى استقرت فيهـــا وقبعت آخر أمرها رغبة قوية فى الوقوف على مخلفات العقل اليونانى ، وكان نزولهم الاسكندرية ، مستودع البقية الباقية من العلوم اليونانية ، متيحا لهم تحقيق هذه الرغبة الملحة . بأكثر مما أتيح لهم ذلك فى سوريا .

ه ه ه

وفى الاسكندرية صادف العرب نخبة من أواخر العلماء يدرسون ، أشهرهم : «بولس الأجانيطى» آخر ممثل للحركة العلمية فى الاسكندرية . وفيها صادفوا مذاهب فلسفة « أفلوطين » ، وخلاصة من تعاليم «جالينوس» فى الطب ، وأدركوا شيئا كثيرا من الكيمياء والفلك والتنجيم . وكان معظم أخذهم (فيما عدا الفلسفة) من الطب والفلك والكيمياء ، وكانت هذه تكون فى الذهن العربى مثلثا متماسك الأضلاع ، بسبب ما تخيله العرب من العلاقة الوثيقة بين الفلك والطب ، وبين الطب والكيمياء .

ه ه ه

ومما هو جدير بالذكر أن «اليعاقبة» قاموا بدور فى النقل يشبه الدور الذى قام به النساطرة . ويرجع الفضل فى نقل هؤلاء وهؤلاء جميعاً ، الى حركة الانشقاق التى اعترت الكنيسة المسيحية ، ففرقت أتباعها شيعا وأحزابا ، التمس كل منها وسيلة لاظهار مسائله الدينية بمظهر قوى مقنع ؛ ولم يكن لهم جميعا بد من الاستعانة بمنطق «أرسطو» فى الاقناع ، وبفلسفة «أفلوطين» فى اكساب المذاهب الدينية صبغة من العقل المتصوف .

ذلك كان المنهج المشترك بين النساطرة واليعاقبة — ومما يلفت النظر أنه هو بعينه منهج المسلمين فى الاقناع ، فقد استعارت بعض الفرق الاسلامية بدورها فلسفة «أفلوطين» لما فيها من تصوف ظاهر — كما استعارت أسلوب «أرسطو» بقصد مراجعة الدين على العقل ، ونشأت فرق «الاعتزال» فى الاسلام من أثر ذلك .

واتبع العرب طريقة النساطرة فى التعليق على «أرسطو» ، فقد كان من عادة هؤلاء عند نقلهم أرسطو من اليونانية الى السريانية ، أن ينقلوا عبارة صغيرة منه ، ثم يعلقون عليها بأسهاب . وشاعت طريقتهم هذه فى التعليق ، واتبعها العرب فى تفسير القرآن وشرح الحديث .

ونقل العرب عن اليعاقبة والنساطرة والسريان ما كان هؤلاء قد نقلوه من علوم اليونان ، ونهلوا بدورهم من حياض الاسكندرية العذبة غداة الفتح . وأتاح العرب لهؤلاء المسيحيين جوا حرا

واصلوا فيه جهودهم بنفس الحماس الذى كانوا مأخوذين به قبل ظهور الاسلام ، وعاش هؤلاء فى كنف العرب آمنين يتمتعون بحرية سياسية ودينية بالغة . وانتجوا فى هذه البحبوحة الفكرية ما وسعهم الجهد الجبار .

ومن أديرة اليعاقبة فى قنسرين وغيرها ، ومدارس النساطرة فى الشرق الأدنى، ومن الاسكندرية معقل البقية الباقية من الثقافة اليونانية، تعلم العرب ما تعلموا من طب «جالين» ومباحث المنطق والفلسفة ، وعن هذه المصادر نقلوا مختصر «فورفيروس الصورى» المعروف باسم « إيساغوجى » ، وتعليقات « بروبس » على الايساغوجى ، وكتب أرسطو الاخرى، وعن اليعاقبة نقلوا جهود «سرجيوس الرسعنى» العراقى اليعقوبى ، ولا سيما مترجماته من طب «جالينوس» التى لا يزال معظمها محفوظا حتى اليوم بالمتحف البريطانى ، ومقالاته فى المنطق فى « المقولات » ، وفى « تعليل الكون » على ضوء من آراء أرسطو .

° ° °

وفى منتصف القرن الثامن الميلادى بدأت الحركة الفكرية العربية تتجه بكلياتها وجزئياتها نحو العلوم والفلسفة ، وبدأ ظهور الآثار اليونانية بلغة العرب ، إلى جانب لغة السريان . وتوجت الحركة بأعظم حظ أتيح للنقل ، حين أنشأ المأمون العباسى معهداً للترجمة ، استخدم فيه نخبة من أعظم الناقلين من النساطرة : أشهرهم « حنين بن اسحق » ؛ وعاونه فى مهمته هذه ابنه « اسحق بن حنين » ، وعدد من المترجمين منهم

«ابن أخته» حبيش الأعسم الدمشقى.

° ° °

وفى هذه الحركة الواسعة ظهرت النسخ العربية «لإيساغوجى» و«أرمانوطيقا» أرسطاليس، وجزء من كتابه «أنالوطيقا» ومقالة أرسطو فى «الروح» وجزء من «المتافيزيقا» وتلخيصات «نيقولاوس» الدمشقى و«ديوسكوريدس»، و«بولس الاجانيطى» و«أبقراط». وتعتبر المقالة التى ترجمها «حنين بن اسحق» عن «الروح» أو التى ترجمها ابنه اسحق وراجعها أبوه، من أهم المراجع فى دراسة الفلسفة وعلم النفس عند العرب.

° ° °

ومنذ ذلك التاريخ، أى منذ بدأت حركة النقل الكبرى أيام المأمون، أخذ العرب إلى جانب النقل يضعون بالعربية كتباً فى نواحى العلوم التى عرفوها عن اليونان. ومن هؤلاء «محمد بن موسى» الذى نسب اليه العرب وضع «الجبر»، له فيه أبحاث خاصة قيمة ترجمت إلى اللاتينية اشتهرت فى عصر النهضة فى أوربا، و«محمد أبو الوفا» الذى ترجم كتاب «ديوفانتس» فى الجبر، وعلق على المؤلفات الرياضية التى وضعت قبله. وكان ذلك حوالى أواخر القرن العاشر الميلادى، و«أبو معشر البغدادى» المتوفى ٨٨٥ م صاحب كتاب «الزيج»، وهو المعروف بين الأفرنج باسم Abumazar. ومن بعد هذا جاء «محمد بن جابر» (٩٢٩ م) المعروف بالبتانى، وهو عند اللاتينيين مشهور باسم Albategnius

صاحب « الزيج الصابى » المحفوظ بمكتبة « الفاتكان » . وقد علق البتانى على « المجسطى » لبطليموس ، وشرح مقالاته ، وليست له تعديلات على زيج بطليموس، وأضاف إلى هذا كله عدة تحقيقات رياضية وفلكية ذكرناها فى موضعها من الكتاب . ودرس البتانى فى أوربا فى العصور الوسطى ، واشتهر باسم « بطليموس العرب » .

وكتب فى الطب «جبرائيل بن بختيشوع»، فأخذ عن «ديسكوريدس» صاحب كتاب خواص العقاقير ، كما أخذ عن «جالينوس» و «بولس الأجانيطى » .

وأشهرُ من كتبوا فى الطب اطلاقاً من العرب أبو بكر محمد بن زكريا « الرازى » المعروف عند الافرنج باسم Rhazes ، آخذا عن اليونانيين والهنود وعن ابن سينا — ومؤلفاته عظيمة القيمة ، محكمة الوضع ، أفاد منها طلاب الطب فائدة كبرى .

° ° °

« كان الطب معدوماً فأحياه جالينوس ، وكان متفرقاً فجمعه الرازى ، وكان ناقصاً فكمله ابن سينا » — ذلك واضح الدلالة على أن العرب يدينون بأصول طبهم لجالينوس، وبإكمال نقصه لابن سينا، وبجمع شتاته للرازى ، وهو أعظم من تناولوا الطب القديم بالاضافة . وله كتاب « الشفاء » (طبعة طهران ١٣٠٣ هـ) ، وكتاب « القانون فى الطب» (طهران ١٢٧٤ هـ — وبولاق ١٢٩٤ هـ) ، ولم تقتصر جهوده على الطب، بل تعدته إلى الفلسفة والطبيعيات والالهيات. واتجه ابن سينا اتجاها فلسفياً تأثر فيه بما كتب أستاذه « الفارابى » ، فظهرت فى

آرائه أصول من فلسفة الأفلاطونية الحديثة أو (فلسفة الاسكندريين) وتعليقهم على كتب أرسطو(١) . ويظهر أثر الأفلاطونية الحديثة فى فلسفة « ابن سينا » فى نظريته القائلة بأن الأحداث الأرضية تتأثر بالأجرام السماوية ، لا عن طريق الحرارة المنبعثة عنها ، وإنما عن طريق ما تشعه من الضوء . وآراؤه فى « العقل » شديدة الشبه بما تقرره الأفلاطونية الحديثة فى شأنه — وهى آراء لم يوفق فيها « ابن سينا » ، مع ما له فى علم النفس من الآراء القيمة التى تشهد ببراعته(٢) .

ooo

ولعل من أجل الأمور التى ساعدت على تكوين العقلية العربية الجبارة إنشاء « دار الحكمة » فى بغداد — أنشأها المأمون ، ووكل أمرها إلى « يحي بن ماسويه » المتوفى ٨٥٧ م ، وكان عالماً بالطب ، كتب مقالا « فى الحميات » نقل إلى اللغتين اللاتينية والعبرية ؛ أنتج تلاميذه انتاجاً ضخماً ، لاسيما حنين بن اسحق العبادى المتوفى ٨٧٦ م أكبر المترجمين وأشيعهم ذكرا ، وهو طبيب سريانى ، نقل غير ما نقل فى الطب كتاب المنطق المعروف باسم « الأورجانون » لأرسطاليس ، وهو ممن جمعوا بين ثقافة اليونان فى الشرق الأدنى وثقافتهم فى الاسكندرية التى زارها وأفاد منها كل ما كان معروفاً فيها فى وقته من علم ، وهو الذى ترجم « أقليدس » إلى العربية ، كما ترجم إليها بعض مؤلفات أرشميدس وجالين وأبقراط .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة « ابن سينا »

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة ابن سينا

وترجم ابنه « اسحق » كتاب « الجمهورية » لأفلاطون، وكتاب « الأخلاق الكبير » ، وغيرهما من كتب أفلاطون، كما نقل تعليقات على المقالة الثلاثين من كتاب « الميتافيزيقا » ، وترجم الأنجيل كاملا إلى العربية .

* * *

وللعرب اضافات ذات بال في الهندسة، فلهم علم باسقاط الكرة، مع الاحتفاظ بالدوائر والخطوط المرسومة عليها، وأن يكن هذا عند البعض من مباحث « علم الهيئة » ، وتقدم على أيديهم علم حساب المثلثات . ومن إضافاتهم إلى الهندسة « الجيب والمماس » ، وصفوة القول أن العقل العربي الذى كان النقل عن الأقدمين ديدنه وهمه الأول ، ما لبث أن غدا عقلا مبتدعاً جباراً فى ابتداعه ، فلم يخل علم تناوله العرب أول الأمر بالنقل من اضافة ذات بال أضافوها اليه ، ففى الكيمياء ، كما فى الهندسة ، نشأت لهم اضافات هامة كونت فيهما فصولا قائمة بذاتها ؛ وفى الجبر ، كما فى الحساب ، كانت لهم أبحاث جديدة ، وتناولوا الفلسفة ، وكان لهم فى تناولها أسلوب خاص يوضحه كتاب « الملل والنحل » للشهرستانى ؛ وفى الموسيقى ظهرت للعرب ابتكارات خاصة ، فقد أضاف عرب الأندلس وتراً خامساً إلى الأوتار الأربعة المعروفة ؛ وفى علم الضوء كانت « للحسن بن الهيثم » جولات مشكورة أضافت إلى ما عرف من هذا العلم على يد اليونان. ولقد كان هذا شأن العرب فى كل ناحية من نواحى المعرفة؛ ولا حاجة بنا إلى استقراء ما كان للعرب من فضل ، ولو أردنا ذلك ، لخرجنا

عن الغاية المرسومة، وحسبنا أن نقول أن العقلية العربية التى تكونت غداة الاتصال بتراث الاقدمين ، كانت عقلية مستوعبة هاضمة جبارة فى استيعابها وهضمها ، كثيرة الشبه بالعقلية اليونانية، فكلاهما انسانى النزعة ، عالمى الاتجاه ، أنتج العقل اليونانى ثقافة صلحت لكل زمان وكل مكان ، وأنتج العقل العربى ثقافة مماثلة ثبتت صلاحيتها على الزمن رغم ما علق بها من الشوائب ، ولا أدل على ذلك من تلمس المستشرقين للمخطوطات العربية، واحيائهم لها بالطبع والتعليق والتبويب والفهرسة والترجمة إلى اللغات الاوربية ، سواء فى ذلك ما كان منها منقولا عن اليونانية ، وما كان من اضافة العرب أو من وضعهم أصلا .

ومهما يكن من شىء ، فقد كان العرب رسل ثقافة ، كما كانوا رسل دين ، ولا غرابة — فأن أمة كل همها أن تجعل الاسلام يسود العالم (وهو دين عالمى، صالح لكل زمان وكل مكان) كانت بلا شك جديرة بثقافة تتمشى مع هذا الطبع العالمى الذى اتصف به الاسلام .

* * *

والفضل كل الفضل فى ذلك راجع إلى الثقافة اليونانية التى هى من الثقافة العربية بمثابة الروح . والحق أنه لا يسع الانسان إلا الاعجاب بذلك التراث الفكرى الذى انبعث من بلاد اليونان، وخلد على الدهر ، دون أن تقوى على اخماد جذوته أحداث الزمان ! — كما لا يسعه إلا الزهو بما كان للعرب من فضل فى حفظ ذلك التراث الفكرى اليونانى من عبث القرون ، ثم أحيائه والاضافة اليه واسلامه إلى الخلف جيلا بعد جيل .

وعلى نحو ما كانت العقلية اليونانية تجعل من المعارف الانسانية «كلا» لا ينحل إلى معارف فرعية، كانت كذلك عقلية العرب المتأثرة بها واعية لتراث الأقدمين على نحو مشابه، وكما كان العالم اليونانى فيلسوفاً ومشرعاً وعارفاً بالطب ومربياً فى وقت واحد، كذلك كان العالم العربى ملماً بكل شعاب المعرفة لا يفارق بين شعبة وأخرى، ومصنفات العرب العديدة خير شاهد على ذلك ... أنظر إلى «الغزالى» و «الفارابى» و «ابن سيناء» و «ابن رشد» وأضرابهم — هل تجد حداً لما تناولوه من حقائق المعارف؟ وهل تجد لديهم من الحواجز ما يفصل نواحى المعرفة بعضها عن بعض؟ حقا لقد كان شأنهم فى ذلك شأن أرسطو وأفلاطون والاسكندريين سواء بسواء. ولا غرابة فقد تأثرت العقلية العربية وهى تنقل عن اليونان نقلها القوى الجبار تأثراً موضوعياً، وهضمت من آراء اليونان فى الفلسفة والروحانيات شيئاً غير قليل، فوق تأثرها بأساليب البحث اليونانية وطرائقه.

° ° °

على أن الأمثلة التى يمكن أن تساق على تأثر العقلية العربية بعقلية اليونان كثيرة لا سبيل إلى حصرها: فقد كان من أثر هضم العرب لفلسفة أفلوطين الاسكندرى الروحانية تقوية التصوف الاسلامى، وكان من أخذهم عن «أرسطو» نشوء مذهب «الاعتزال» على ما هو معروف. وتأثر العرب بالعقلية اليونانية فيما عدا ذلك واضح فى رد علماء التوحيد على الملاحدة ولاسيما فى مسائل «السمعيات»، وفيها يتضح مدى تأثر العقلية العربية المستمسكة بالقرآن والسنة فى دورها بالفلسفة اليونانية.

هذا، ومناهج البحث فى العلوم فى العصر الاسلامى بصفة عامة

جدلى كثير الشبه بمنهاج اليونان فيها ، والحق أن الجدل والتناظر كانا على طول عهد الاسكندرية بالعلم معروفين سائدين ، وفى سبيلهما اختصم الفلاسفة ، ولذ للملوك أن يشهدوا جدلهم وعراكهم ، بل وأن يشتركوا فيه فى بعض الأحايين ، ومرجع هذا الأسلوب الجدلى عند العرب هو الفكر المتفلسف والعقل المسرف فى الاحتكام إلى المنطق ؛ ومهما يكن من شىء ، فقد كان التزام المنطق والتأثر بالفلسفة من خير الفكر العربى وحسن طالعه — إلا أن الاسراف فى الجدل والتزام الاحكام المنطقية التزاماً شديداً ، كان من شأنه عند العرب أن حبس بعض حقائق العلم فى قوالب المنطق الجافة ، وعنى أصحاب هذه الأساليب بالشكليات أكثر من عنايتهم بالحقائق ذاتها ، فلم يخدموا بها غير الجدل البحت. وأقدم جدل عربى معروف هو ذلك الجدل الذى ثار بين الكوفيين والبصريين حول المسائل النحوية ، وما الخلافات الصارخة بين « السكاكى » و « عبد القاهر » بشأن المشكلات البلاغية إلا مثال من أمثلة ذلك . وأعظم جدل يعيه تاريخ الفكر العربى فى زمن حذق فيه العرب منطق اليونان ، هو ذلك الجدل الذى حمى وطيسه فى بلاط « المأمون » العباسى حول مسألة « خلق القرآن » — ذلك الجدل الذى لذ للخليفة ورجال بلاطه أن يشهدوه ، على نحو ما لذ لبطليموس فيلادلف أن يشهد اختصام رجلين من أعظم المتحاجين فى عصره ، هما « كليماحوس » و « أبولونيوس الرودسى » .

وليس من شك فى أن العرب لم يصبح لهم بهذه الأساليب الجدلية علم – إلا منذ وقعت أنظارهم على آثار اليونان الفلسفية ، وبعد أن أصبحت لهم بعلم المنطق دراية دقيقة ؛ ولم يتح لهم ذلك على نحو

منظم مكتمل، إلا منذ بدأت حركة النقل العظمى فى خلافتى المنصور والمأمون — ولقد كانت العقلية العربية قبل عصر النقل الأعظم، وبعبارة أخرى قبل أن يعتنق العرب أساليب اليونان فى المحاجة والتناظر، عقلية تدين بالقول المأثور، وتأخذ بالحكمة الموجزة، يروقها رواء القول فيهما، وتبهرها بلاغة الكلم وايجازه وحسن وقعه فى الأسماع والنفوس، وتصرفها محسنات القول وظاهر الحكمة عن البحث فى الأدلة العقلية التى تستند اليها تلك الأقوال، وأغلب هذه الجوامع كلام جرى على ألسنة المجربين والحكماء. وهى فى جملتها أقوال تغلب عليها الصحة لأنها وليدة التجارب، والمنطق المستخلص من التجارب، يبدو كأنه المنطق، وهو من المنطق بعيد: ومن ثم كان قصور بعض الحكم والأقوال المأثورة، بل وكان تضاربها واضطرابها فى كثير من الأحيان — ولقد تساق الحكمة، ويضرب المثل، ويبدو أن فيهما فصل القول، فلا يلبث السامع الحصيف إذا ساعفته القريحة، أن يروى من فوره قولا معارضاً يدحض به الحكمة المساقة أو المثل المضروب، ومرجع ذلك فيما نعتقد أن العقلية العربية قبل تأثرها بمنطق اليونان وفلسفتهم، كانت عقلية تعتمد على مايسميه «علم المنطق» بالخطابيات أو البراهين الخطابية، والخطابيات من شأنها ألا تقوى على الثبات أمام العقل، لاتلبث أن تخضع لقوانينه الصارمة، حتى يتكشف ضعفها وتنهار، ومنذ أخذت العقلية العربية نفسها بأساليب المنطق، قلت ثقتها بقيمة هذه الحكم والأقوال المأثورة — وإن بقى لهذه حتى الآن سلطانها القوى على كثير من النفوس والعقول.

وقد كان لتناول العرب لعلوم اليونان، واشتغالهم بالمباحث التى طرقها هؤلاء أصلا، واضافاتهم اليها على ذلك النحو الواسع الذى تعرفنا

بعض نواحيه فى القسم السابق من هذا البحث ، أثره البين فى الفكر العربى موضوعاً وأسلوباً — الأمر الذى لم يجعل من هذا الفكر — لحسن الحظ — شيئاً منعزلا عن الفكر الانسانى العام .

٭٭٭

وكان من أثر اشتغال العرب بالنقل أن تاقت نفوسهم إلى الارتواء من مناهل العلوم الدخيلة، من منطق و فلسفة وطبيعيات و رياضيات والهيات وغير ذلك من العلوم المتفرعة عنها كالجدل والتصوف والجبر والهندسة والحساب والفلك والجغرافية والأخلاق والسياسة .

وكان لهم إلى جانب النقل فضل الاضافة والنقد على ما بينا . وكان المأمون أكثر الخلفاء العباسيين تأثراً بعلوم الأقدمين وبخاصة اليونان . يتبين ذلك من ميله المسرف إلى الأخذ بالأقيسة العقلية فى بعض مسائل الدين ، وشدة انصياعه لحرية الفكر وتحكيم العقل .

٭٭٭

وفى العصر العباسى الأول ظهر «مذهب الاعتزال» الذى نشأ من شدة اخضاع النصوص الدينية إلى الأحكام العقلية، شجعه المأمون تشجيعاً تجلى فى تمريبه لأتباع هذا المذهب. ولما كانت دراسة المنطق والفلسفة أكبر ما أعان «المعتزله» على اقامة الحجة وترتيب البراهين ، أمر المأمون بنقل كتب اليونان فيهما إلى العربية، فترجم منطق «أرسطو» ونقلت فلسفة «أفلاطون» اليها .

٭٭٭

ويبدو تأثر العرب عامة بالفلسفة اليونانية وبفلسفة الاسكندرانيين خاصة فى أخذ السنيين بنصيب من الفلسفة اليونانية ، أرادوا بذلك أن يتمكنوا من مجادلة خصومهم ومن قرع الحجة بالحجة .

ولم تكن الفلسفة على كل حال بالعلم الذى ترتاح اليه نفوس العرب ، فقد ظلت رغم اشتغالهم بها وخوضهم فى مسائلها ، أمراً غير مرغوب فيه ، لا تنظر اليه غالبية المسلمين بالارتياح ، وكثيراً ما رمى معتنقوها بالكفر والزندقة والألحاد — وبقيت الحركة العقلية المتأثرة بفلسفة اليونان رائجة ظاهرة الآثار حتى زمن المتوكل العباسى الذى كان سنياً متطرفاً ، يكره الفلسفة ورجالها ، والذى اضطهد المشتغلين بها حتى اضطروا إلى الاختفاء والعمل فى السر على مراجعة العقل فى مسائل الدين الاسلامى ، بقصد اصلاحه وتخليصه من الخرافات وتصفيته من الجهالات التى التصقت به : وتكونت من أثر ذلك جماعة «اخوان الصفاء» التى نشأت فى البصرة وبغداد فى القرن الرابع الهجرى ، ولم يقتصر نشاطها على الفلسفة والمنطق ، بل تناول العلوم الطبيعية والرياضية والألهيات بشعابها المختلفة ، وتعتبر رسائل اخوان الصفا وقد أربت على الخمسين ، أعظم جهد علمى قام به مشتغلون بالعلم فى العصور الوسطى . ويعتبر عمل «اخوان الصفاء» (فوق أنه تفصيل واف للمسائل الاسلامية أريد به التوفيق بين الفلسفة والدين) منهاجا لكافة الدراسات الاسلامية العالية فى العصور الوسطى ، وقد نقل الفرنجة من أبحاثهم الشىء الكثير .

أما تأثر العرب بفلسفة الاسكندريين ، فيبدو واضحاً فى الحركة التصوفية الاسلامية ، التى وجدت فى فلسفة «أفلوطين» تصوفاً ظاهراً واعتماداً على الالهام والكشف فى فهم حقائق الأشياء ، وفلسفته هذه تدعى لنفسها سنداً من فلسفة «أفلاطون» اليونانية(١) ، وهى رغم

(١) راجع فلسفة الاسكندرية فيما يلى

ما يعتورها من العيوب كفلسفة مدرسة فكرية متأثرة بالروحانيات اليهودية التي ألصقها بها «فيلو» أول داعية لهذا المذهب في الاسكندرية، وأستاذ أمونياس سكاس وأفلوطين. وتأثر العقل العربي بهذه الفلسفة التصوفية يرجع في الغالب إلى اعتمادهما على الروحانيات في تفسير علاقة الاله بالانسان، وتمجيد الزهد والتجرد، بقصد تخليص النفس من الأدران حتى تستطيع بصفائها وسموها الاتصال بالخالق، وتلك كلها معان يستسيغها العقل الشرقي المتصوف بطبعه.

° ° °

وزعيم هذه الفلسفة ومفرغها في قالبها الذي انتشرت به وعرفت مصري ولد في أسيوط، هو «أفلوطين»، وهو عقل شرقي متفلسف خلط الروحانيات الشرقية بعنصر ملتبس من فلسفة أفلاطون، فجاءت آراؤه فصلا رائعاً من فصول التصوف، إن أدخل في عداد الفلسفة، كان فصلا غامضاً من فصولها. ولوناً شاحباً من ألوانها.

ومهما يكن من أمر هذا المذهب، فهو معدود آخر فصول الفلسفة اليونانية، وما أن نضج في مصر حتى هاجر إلى أثينا ودرس في مدارسها المتأخرة، ووجد سبيله نافذا إلى آسيا الغربية، وفيها اختلط بالزرادشتية، ودرج غربا إلى روما، وهناك كان أقل غموضاً وأقل اعتماداً على الالهام. وقد تأثر العقل العربي به تأثراً عجيباً بسبب ما وجده المسلمون فيه من نزعات التصوف، اعتنقه الفلاسفة العرب وتناولوه بالنقل والشرح والتعليق، وكان لهم في فهمه وشرحه أسلوبهم الخاص (١).

(١) التصوف هو الانقطاع إلى الله والتفرغ للعبادة حتى يفنى الجسم في الروح فناء =

ولقد أوحت نظرية «أفلوطين» فى قدم الله وصدور العالم عنه ، وما فيها من وجود وسائط أربع بين الله والكون إلى فلاسفة المسلمين بنظريتهم المشهورة فى «العقول العشرة» أو «الوسائط العشرة» — رأى «أفلوطين» أن الوسائط بين الله والمادة أربع، ولكن فلاسفة العرب زادوها إلى عشرة — وليس من قبيل المبالغة ما يقال من أن هيام أفلوطين وطموحه إلى السعادة الأبدية عن طريق الامتزاج بالله (على ذلك النحو الصوفى الرفيع الذى يقرره فى فلسفته) مصدر من مصادر التصوف الاسلامى العديدة، استق منه الفلاسفة المسلمون نظريتهم فى الاتصال بالخالق — وإن يكونوا قد نهجوا فى الوصول إلى ذلك نهجهم الخاص ، على ما هو معروف فى كتبهم الفلسفية .

° ° °

ومما لاشك فيه على كل حال أنه كان من أثر دراسة المسلمين للفلسفة اليونانية نشوء فرق الزنادقة والملاحدة الذين أوردوا كثيراً من الشبه على

= تتصل فيه الروح الآدمية بالروح الأعلى أو العقل الأول - على حد تعبير الفلاسفة . وأم مصادر التصوف الاسلامى القرآن والسنة؛ ومنها الرهبنة المسيحية واليهودية، و«النرفانا» الهندية ، وهى حالة الصمت المطلق التى يلتزمها فقراء الهنود ، والتى هى ناشئة عندهم عن الفناء التام فى ذات الخالق .

وللمتصوفين آراء ونزعات تدور حول الزهد فى الدنيا والانصراف عما فيها من عروض ومباهج ومغريات - وللصوفية منهاج خاص للوصول إلى السعادة قوامه العلم بالشريعة من قرآن وحديث وما يتصل بهما - أما العلم الذى أجهد الفلاسفة أنفسهم فى الوصول اليه ، فلا يراه المتصوفون ضرورياً لهم - وبعض الدخولين على الصوفية يرى التصوف فى مجرد الجوع وترك الدنيا ، والحقيقة أنه لابد للمتصوف من علم يعمل به ، ومن لم يحفظ القرآن والحديث يستحيل عليه أن يكون متصوفا ، لأن التصوف مقيد بالقرآن والسنة قبل كل شىء .

العقيدة الاسلامية، وكان معظم هؤلاء من الأعاجم الذين كانوا يتحينون الفرص للظهور بالأباطيل قصد افساد العقيدة الاسلامية وزعزعتها، وقد أدت حركاتهم هذه إلى قيام علماء التوحيد يردون على الزنادقة والملحدين ويدفعون شبههم عن الدين الحنيف — وجهد هؤلاء فى ابطال تلك الشبه بأدلة فلسفية من نوع الادلة التى ساقها المتزندقون والملاحدة لابطال بعض العقائد الاسلامية التى ثبتت بالقرآن والسنة. وكان لدفاع علماء التوحيد أثره البالغ فى توكيد العقيدة الاسلامية وحفظها من عبث العابثين واطلاع الناس على نواحى الزيغ والضلالة فى أقوالهم .

وأثر اليونان واضح تمام الوضوح فى فلسفة الأخلاق عند المسلمين: وما آراء «الغزالى» فى النفس وقواها إلا استيحاء لآراء «أرسطو» وأفلاطون : ورأيه فى «العقل النظرى» متأثر برأى «أرسطو» فيه، وتأثر الامام بفلسفة الاغريق ظاهر تمام الظهور فى كتابه «معارج القدس فى مدارج معرفة النفس»(١) .

ولم تخل آراء «ابن مسكويه» و «ابن عربى» الاندلسى من التأثر بفلسفة الاغريق .

أما تأثر العرب بالعلوم اليونانية الاخرى، فيظهر جلياً فى الاقبال على ترجمتها إبان عصر النقل الاعظم ، وفى التعليق عليها والاضافة اليها ونقدها(٢) .

---

(١) راجع : محمد يوسف موسى ، فلسفة الاخلاق فى الاسلام وصلاتها بالفلسفة الاغريقية .

(٢) راجع ص ١٤١/١٥١ من هذا البحث .

القسم الثالث

تعليقات وشروح وتراجم

الباب السابع

الفصل الأول

جامعة الاسكندرية بين قوة الانتاج وضعفه

إجمال لتفصيل

الجامعة فى عصرها الأول — الجامعة فى العصر البطليموسى المتأخر — قلة انتاجها — الجامعة والمسيحية — أثر الصراع الدينى بين المسيحية والوثنية — الجامعة فى سبيل الفناء — ضعف الانتاج العلمى — الحركة الفلسفية .

مرت الجامعة بمراحل ثلاث ، كانت فى أولاها فتية ناشئة، ناقلة لكل ما عرف الأغريق من حقائق العلم الانسانى . وكانت حيوتها رهنا بقوة منشئيها من ملوك البطالمة ، فظلت فى حمايتهم ورعايتهم دهراً طويلا تمتعت فيه بكل ما تحتاج اليه جامعة من حرية وتشجيع وانفاق على مرافقها المختلفة بسخاء : زودها منشئوها بأنواع من عجيب الحيوان والنبات جلبت إليها من جهات نائية ، وآلات رصد هى خير ما عرفه العالم القديم من وسائل دراسة الأجرام السماوية ومكتبة كبرى حوت أعظم المصنفات وأندرها ، إلى غير هذا وذاك مما لم يدخر البطالمة الاوائل وسعاً فى توفيره لجامعتهم الناشئة .

٭ ٭ ٭

وكانت الفكرة فى هذه العناية التى صرفها هؤلاء فى خدمة العلم جلية واضحة — ذلك أنهم قصدوا إلى أن تصبح الاسكندرية «أثينة»

ثانية، تحمل لواء العلم الذى هوى أو كاد يهوى فى «أثينا» اليونانية.
وقد كان لهم من سلطانهم ونفوذهم السياسى ما استطاعوا به أن يحققوا لها هذا المركز الممتاز، فلما أن ضعف هذا السلطان، وتضعضع ذلك النفوذ السياسى، وشغل أفراد البيت المالك بالخلافات الشخصية، تأثرت جامعة الاسكندرية تبعاً، وأدركها من الضعف ما أدركها فى الحلقات الأخيرة من القرن السابق الميلاد، وكادت تندثر كل الجهود الطيبة التى بذلها البطالمة من أجل انشاء جامعة كبرى تناهض جامعة أثينا وتخلفها.

وبلغ الضعف من جامعة الاسكندرية منتهاه فى عهد كليوباطرة، ففيه فقدت الاسكندرية المكانة السامية التى عرفها لها العالم القديم، وفقد العلم إذ ذاك عنصرين هامين من عناصر نموه هما الهدوء والاستقرار، اللذان لا بد منهما للانتاج العلمى المثمر.

وكانت الجامعة فى هذه المرحلة الأولى قوية الانتاج بفضل الروح القوية التى كانت تنفخها فيها جامعة «أثينا»، وبفضل ما احتفظت به من تراث أرسطو وأفلاطون وغيرهما من الفلاسفة والعلماء.
وظهر فى هذا العصر الأول، عصر تفوق جامعة الاسكندرية، من العلماء «أقليدس» أبو الهندسة و«أراتوسثنيز» الفلكى الرياضى و«أرستاركاس» الفلكى و«كليماخوس» الأديب والعالم فى فن المكتبات، ومن الأدباء الكبار «ثيوكريتس» الشاعر الصقلى الأصل.
— أما الرياضيون فقد تأثروا من غير شك «بأرشميدس» الذى عاش فى «سيراكيوز»، من أعمال صقلية، والذى يقترن اسمه بما

يعرف فى علم الطبيعة «بالثقل النوعى Specific gravity . وليس هناك ريب فى أن جامعة الاسكندرية احتفظت بنظرياته ولا سيما هذه النظرية، ومنها نقلت إلى أوربا، وأدركها البحث الحديث فأيدها، واعتمد عليها.

وأما دارسو الفلسفة عن أرسطو وأفلاطون، فقد كانوا على الأرجح متمعنين فيها، متفهمين لأصولها، هاضمين لها، دون أن يكونوا مضيفين اليها أو مبتكرين لجديد فيها. ولم ينشأ الاسكندرية فى هذه المرحلة مذهب فلسفى ما، وتأخر ظهور مذهبها الفلسفى إلى المرحلة الثانية من مراحل حياتها، وهى المرحلة التى كادت تتلاشى فيها الجامعة ويغيض انتاجها — أما الأدباء، فقد كان زعيمهم «ثيوكريتس» صقلى الأصل، كتب كل ما كتب تقريباً عن الحياة الريفية فى صقلية، وتميز الأدب الذى نشأ بالاسكندرية بروح خاصة، لم يكن أدباً مبتكراً، وإنما كان أدبا منقولا بوجه عام. على أن هذا النقل فى ذاته فضل يذكر لجامعة الاسكندرية بالخير، فقد ظلت على الرغم من عدم اقتدارها على الابتكار فى الأدب، تناقش قضايا العلوم المختلفة، وتبحث فى الطب وتهتدى فيه إلى حقائق قيمة لم تسبقها اليها جامعة أخرى، حتى أسلمت هذا التراث العلمى إلى أوربا، حيث احتفظت به الأديرة والكنائس إلى عصر النهضة.

٭٭٭

ثم أتى على الجامعة حين من الدهر كان شر مرحلة مرت بها، فقد عانت فيه هواناً أدبياً شديداً بسبب ما قاسته المدينة نفسها من

الهوان السياسي فى عصر البطالمة المتأخر ، وكان ذلك فى الحلقات السابقة للميلاد مباشرة . وليس من شك فى أن انعدام الكبرياء القومى ، وحالة الاضطراب التى سادت هذا العصر قد أديا إلى هبوط شديد فى محيط العلم الذى لا يزدهر عادة إلا فى بحبوحة من الحرية والعزة القومية .

ونحن لا نكاد نسمع عن عالم أو فيلسوف أو أديب فذ على طول هذا العصر . وفى هذا الوقت اصطدمت الجامعة صدمة عنيفة بالمسيحية ، وحدث صراع هائل بين الجامعة باعتبارها معقل الوثنية الذى تركزت فيه كل علوم الوثنيين وآثارهم ، وبين الدين الجديد . وكان لهذا الاصطدام أسوأ الأثر على العلم الاسكندرى إطلاقا .

° ° °

دخلت المسيحية مدينة الاسكندرية ، وأعلنت عداءها لكل ما هو وثنى ، وأول مظهر من مظاهر الصراع بين الوثنية والمسيحية تحويل المعابد الوثنية إلى كنائس مسيحية ، وأعدام ما بها من آثار الوثنيين . وفى هذا الصراع العنيف ضاعت كنوز للعلم عظيمة كان يحويها معبدا « القيصريون(١) » و « السرابيوم » . وجعل المسيحيون من « القيصريون » كنيسة سموها باسم كنيسة « القديس ميخائيل » وجعلوا من « السرابيوم » مجموعة كنائس أطلقوا عليها أسماء القديسين : « دميان » و « قزمان » و « يوحنا المعمدان » وغيرهم .

° ° °

(١) بنته كليوباطرة تخليداً لقيصر ، وأودعته عدداً لا بأس به من الكتب

ومما لا خلاف فيه أن هذا الحادث الجلل الذى طرأ على الاسكندرية ، لا بد أن يكون قد أثر فيها من ناحيتين : الأولى ، أنه أفقدها ثروة علمية جليلة القيمة ، والثانية أنه اتجه بها اتجاهاً فكرياً جديداً .

والحق أن هذا الحادث الذى نود أن نعتبره فاصلا بين عهدين ، حادث كبير الخطر فى ذاته ، لأنه يعين فى تاريخ الجامعة عصرين متباينين كل التباين .

العصر الأول (٣٠٦ — ٣٠ ق . م)

فيه قرب بطليموس «سوتر» (٢٨٥/٣٢٣ ق . م) أعظم رجال الأدب والفلسفة فى عصره أليه ، وساعده فى اختيارهم صديقه الخطيب الأثينى « ديمتريوس فاليروس » وهو الذى وضع أساس مكتبة الاسكندرية ونظم جامعتها : بنى «سوتر» المتحف الاسكندرى ، وجعل منه «أكاديمية» للعلوم والآداب . وجاء بطليموس فيلادلف (٢٤٧/٢٨٥ ق م) فتابع العناية بالمتحف ، واشترى للمكتبة مجموعة مؤلفات «أرسطو» وأضاف اليها مصنفات أخرى يهودية ومصرية قديمة .

وجاء بطليموس الثالث فاشترى لها أشهر مؤلفات الروائيين الأثينيين التى كانت تفخر بها مكاتب «أثينا» وتحلها بين محفوظاتها مكاناً محترماً ؛ وأجبر كل من زار الاسكندرية من الكتاب على أن يترك بها قبل مغادرته لها نسخة من مصنفاته إن كان من أصحاب التصانيف .

ويمتاز هذا العصر الأول بأنه عصر أدبى علمى معا ، ولقد كان فى الواقع محاولة جبارة لاستئناف الثقافة الهلينية والسير بها خطوات أخرى إلى

الأمام . فى وقت أصبحت فيه الاسكندرية المركز الوحيد فى العالم للاحتفاظ بهذه الثقافة ؛ وبقيت كذلك حتى القرن السابق للميلاد الوقت الذى نشأت فيه مدارس أخرى فى رودس وسوريا آخذة عن الاسكندرية نظامها وعلومها .

° ° °

وامتد ظل هذه المؤسسة الفذة فشمل العالم المعروف فى ذلك الحين ، وبقى هذا الظل الوارف ممتداً فوق ربوعه إلى أن بسط الرومان سلطانهم السياسى على مصر . فانتقل مركز الثقافة من الاسكندرية إلى روما . ولم يتح للاسكندرية أن تنشىء أدباً ممتازاً ، ولم يعن الاسكندريون بغير نقد الأدب القديم . وخلقوا أدباً لم يكن قومياً بحال ، كان كل المقصود به أن يصادف هوى الفريق المتعلم أنى وجد فى أى بلد من بلاد العالم القديم . ولعل هذا يفسر المهمة المزدوجة التى أخذتها الاسكندرية على عاتقها وهى مهمة الاحتفاظ بالتراث الهلينى من ناحية ، واشاعته والنسج على منواله لأرضاء متذوقيه من ناحية أخرى — لهذا عز أن يظهر فى الاسكندرية أديب مبتدع فذ فى ابتداعه .

ومما ساعد على ضعف الأدب الاسكندرى، أنه كان وليد المادة، فقد دأب شعراء أهل البطالمة على اجازة قائليه، بقدر ما تورط هؤلاء فى مدحهم. والأدب الذى يباع بيع السلع لا يمكن أن يكون أدباً حقاً .

° ° °

وكان الأديب فى ذلك العصر غير منقطع للأدب ، فكثيراً ما كان الأديب مشتغلا بمسائل العلم البحت ، ولا جدال فى أن الأديب غير العالم ، والعالم غير الأديب ، ولا صلة بين العلم البحت ، والأدب البحت ، فكيف يكون الأديب عالماً فذاً ، والعالم أديباً مبدعا ؟!

وأشهر أنواع الآثار الأدبية فى الاسكندرية فى عصر قوة انتاجها «الشعر القصصى» ، الذى كان أكثر الأنواع تداولا ورواجاً ، وكانت المقطوعة أما تاريخية أو تهذيبية أو استعراضية تشرح أمراً من أمور الحياة ، أو تعبر عن عقيدة دينية ، وكان الشاعر يحرص على أن يصب فيها كل ما وعى قلبه من حقائق العلم الانسانى وأن يودعها كل مقدرته الفنية على الصياغة والسبك وحسن الأداء .

ولم يكن هناك ما يمنع من أن تكون المقطوعة منظومة علمية بحتة ، تناقش الطقس أو تصف علاجاً للتسمم أو عض الحيوان المفترس ، أو غير هذا وذاك من المسائل التى لا تمت إلى الذوق الأدبى بصلة قريبة أو بعيدة .

والذى يمكن أن يقوله القائل فى غير ما حرج ولا تردد ، أن الأدب فى الاسكندرية كان صناعة أخص صفاتها دقة فى التعبير ، ومراعاة للأوزان ، وانصراف إلى كل ما يجعل الفن الشعرى بالغا حد الكمال : وهذه وإن كانت كلها صفات لا يستقيم الأدب الشعرى بدونها ، إلا أنها ليست أهم مميزات الأدب القيم ، فهى لا تغنى عن الابتكار ، ولا تصرف النظر عن الذوق الأدبى الذى هو أهم عناصر الأدب الصحيح .

° ° °

وأنبغ شعراء الاسكندرية «كاليماخوس» Callimachus وقد عفت معظم آثاره الأدبية ، اللهم إلا بعض الأناشيد .

ومن أوضح ألوان الأدب الاسكندرى «الشعر التمثيلى» . وقد قام سبعة من أدباء العصر الاول بتأليف «إلياذة الاسكندرية» ، ولا ندرى أين

يمكن العثور على هذا الأثر الأدبي الكبير ، ونشأت بالأسكندرية « الرواية الهازلة » لنفس الغرض الذى نشأت من أجله فى بلاد اليونان(١) من قبل ، ألا وهو نقد المجتمع الاسكندرى الراقى ، بأظهار عيوبه على المسرح ، بطريقة لاذعة أصابت هذا الفريق من الناس فى صميم مواطن الضعف فيه .

وكانت للنقد منزلة عظمى بين فنون الأدب الاسكندرى ، وكان موضوع النقد آثار الأغريق الأدبية، فقد تنوولت بالشرح والتعليق مدة قرنين فضمن لها ذلك حياة خالدة، ووضوحاً أبعدها عن اللبس والابهام، فأصبحت بفضل أدباء الاسكندرية ونقادها مفهومة على توالى الايام.

وخدمات جامعة الاسكندرية فى هذا السبيل لا تقدر ، فقد قامت بمهمة تذكر بالفضل ، أشبه ما تكون بمهمة الناشر الشارح لهذه الآثار الادبية اليونانية .

وليس هناك من شك فى أن مهمة النقد تحتاج إلى المام تام بفروع المعرفة الانسانية ، وكانت معارف علماء جامعة الاسكندرية وأدبائها واسعة غير محدودة ، وكان ذلك من خير النقد ، ولا يبعد أن تكون نشأة « علم القواعد » و « تصنيف الموسوعات » ووضع « القواميس اللغوية » وغير ذلك من العلوم القريبة الاتصال باللغة قد صحبت هذه الحركة الادبية الواسعة النطاق ، حركة نقد الاداب اليونانية فى الاسكندرية .

ولولا هذه الجهود المشكورة ، لما أمكن الاستفادة من مخلفات

---

(١) جرى الاسكندريون من كتاب الرواية الهازلة على سنن استاذهم « ميناندر » Menander الأثينى ، وعرفت آثارهم باسم « الكوميديا الجديدة » .

الاغريق ؛ ومن أشهر النقاد الاسكندريين فى الفترة الاولى من حياة الجامعة «أرستاركاس» و «كليماخوس» و «زنودوتس البيزنطى» .

وإلى جانب المدرسة الادبية كانت تقوم المدرسة «الرياضية» وزعيمها «أقليدس» ، ومن أشهر علمائها «أرشميدس[1]» ، و «أبولونيوس» صاحب رسالة «القطاع المخروطى» Conic Section و «أراتوسثنيز» أول من حاول قياس محيط الارض و «هپاركاس» أول باحث فى السموات ، وهو الذى قرر لاول مرة أن الشمس هى المحور الذى تدور حوله الكواكب السيارة .

ويقترن تاريخ الطب والتشريح فى هذا العصر الاول باسمين لامعين هما : «هيروفيلوس» و «وارسستراتس» أول جراحين عرفهما العالم القديم ، ومما ساعد على تقدم الطب والتشريح بوجه خاص أن البطالمة كانوا يمدون المتحف الاسكندرى بالمجرمين الذين يراد تنفيذ عقوبة الاعدام فيهم لتشريح أجسامهم ودراستها .

وفى جامعة الاسكندرية كشفت فى هذا العصر وظيفة «الاعصاب» ونقلها لانفعالات الفرح والحزن وغيرهما من أنواع الانفعالات . وهكذا عرف الاسكندريون لاول مرة أن المخ هو جماع الجهاز العصبي . وكان علماء الطب فى الاسكندرية يفهمون «الدورة الدموية» تمام الفهم ، أما «الجهاز التنفسي» ، فلم يكن قد عرف بعد معرفة تامة ؛ وكانت

---

(١) أرشميدس لا يعتبر فى الحقيقة من علماء الاسكندرية إلا أن أثره على أفراد مدرستها الرياضية كان كبيراً جداً ، طبعهم بطابعه فى البحث ، حتى لا يمكن لباحث أن يغفل ذكره عند الكلام على تلاميذه الاسكندريين ، فاسمه علم عليهم جميعاً .

الاسكندرية بوجه عام مركز الثقافة الطبية فى العالم القديم ، يؤمها الشبان الراغبون فى تعلم الطب من كل حدب وصوب على نحو ما يؤمون الآن جامعات أوربا لنفس الغاية .

أما عن علمى النبات والحيوان ، فقد ظل « أرسطو » واتباعه القادة فى هذا الميدان ، على أن الحقائق التى وصل اليها الاسكندريون كان ينقصها الكثير من الدقة لاحتوائها على بعض الاغلاط الناشئة من عدم وجود المجهر (الميكروسكوب) . وظلت الاسكندرية تحمل لواء الرياضة والفلك والطب إلى ما بعد الميلاد بزمن غير قصير .

العصر الثانى (٣٠ ق . م — ٦٤٢ م)

كانت المسيحية حادثاً جللا له خطره فى دائرة العلم الاسكندرى فقد أسفر النزاع بين المسيحية والوثنية عن أسوأ الآثار ، وأمحت بالتدريج روح البحث العلمى الصحيح ، وربما كان السبب فى ذلك هو زوال المراجع العلمية ، ورغبة المسيحية عن كل ما هو وثنى ، ونشأت بالاسكندرية من أثر ذلك روح أخرى جديدة ، لم تعتمد على الفكر البحت ، وإنما أفسحت المجال للأوهام والخيالات ، وأمدتها المسيحية واليهودية بكثير من تعاليمهما ، فنشأت بذلك مدرسة فلسفية لا تعتمد على « الفكر » الذى هو أساس الفلسفة الصحيحة ، بقدر ما اعتمدت على « الالهام » . ولاءمت هذه المدرسة الفلسفية بين عناصر يهودية ومسيحية وهلينية متقاربة ، فكانت بطبيعتها هذه شرقية غربية فى وقت واحد .

وأنتجت الروحانيات اليهودية ، باختلاطها بالفكر اليونانى مسألة

جديدة فلسفية الذوق فى بعض مظاهرها ، آخذة بعض آراء اليهود فى الحق الالهى — والحق أن مبادىء اليهود فى الاخلاق قد أمدت فلاسفة الاسكندرية بمادة فكرية لا بأس بها. فى عصر أخص مميزاته جدب فكرى عظيم أخذت تعانيه المدينة على أثر دخول المسيحية فيها .

وهذه المسألة الجديدة التى نشأت من هذا التفاعل، مسألة متشعبة أساسها «فلسفة أفلاطون» و«پيثاجورس» وقد تسمت فى الاسكندرية باسم «الافلاطونية» الحديثة و «الفيثاغورية» الحديثة . وأول مبشر بهذه الفلسفة الجديدة «أمونيوس سكاس(١)» .

وزعيم هذه المدرسة الفلسفية «أفلوطين» ، ومن أقدم علمائها «فيلو» وهو فيلسوف يهودى كونت أبحاثه نواة هذا المذهب قبل معرفته وذيوعه بأكثر من قرنين من الزمان ، وظلت تلك النواة دفينة حتى جاء «أمونيوس سكاس» فبعثها بعثاً جديداً «وبشر بالتعاليم الجديدة ، وكان أستاذا «لافلوطين» الذى تقرن النظرية باسمه .

* * *

على أن من أسباب ضعف الانتاج فى جامعة الاسكندرية فى هذه الفترة الثانية من حياتها ، يرجع أول ما يرجع إلى الخلافات التى دبت بين أفراد البيت المالك فى مصر ، فقد أدى تشاحن البطالمة فيما بينهم على امتلاك العرش إلى حروب ومنازعات أفقرت خزائن البلاد وعاقت من تقدم الفكر فى الفترة التى أعقبت موت بطليموس

---

(١) وقد اختلف إلى إلى الاسكندرية فأفاد الاسكندريون كل نظرياته المعروفة

(٢) قصة الفلسفة اليونانية للأستاذين احمد أمين وزكى نجيب محمود

الثالث ، أى منذ عام ٢٢١ ق.م — فى تلك الفترة الزمنية التى تنتهى بعام ٣٠ قبل الميلاد ، كانت البلاد مسرحاً للاضطراب والتدهور السريع . ويعتبر ضعف الانتاج فى هذه الحقبة مقدمة لحالة الامحال الفكرى الشديد الذى أصاب الجامعة فى عهدها الثانى .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد ظهرت بالاسكندرية بعد الميلاد حركات فكرية لابأس بقوتها فى نواحى الآداب والطب والعلوم ، فى عصور سادها الصراع العنيف بين المسيحية والوثنية — ففى الفترة التى تنتهى بعام ٢٧٣ للميلاد وجدت الجامعة من عناية القياصرة مثل ما وجدت من عناية البطالمة من قبلهم ، فقد كان الامبراطور «هدريان» مثلا يختلف إلى «المتحف» ويشترك فى المناقشات العلمية والادبية فيه — وكان اعتماد هذا العصر على المكتبات الفرعية فى السرابيوم والقيصريون ومكتبات الافراد . ومن أظهر شخصيات هذه الفترة من حياة الجامعة الخطيب « بولكس Pollox » الذى أنشأ له الامبراطور كرسيا لتدريس فن الخطابة فى الجامعة ، وهو ممن كانوا يحذقون قواعد اللغة اليونانية وآدابها .

على أن انعدام الحرية السياسية والفردية فى العصر الرومانى ، وانشغال البلاد بمصيرها السياسى ، لم يدعا مجالا للعناية بالعلوم والآداب . وأشهر انتاج موروث عن النصف الاول من القرن الاول الميلادى ، بعض المساجلات الأدبية التى وصلت الينا مدونة على قطعة من ورق البردى ، وبعض الأشعار من أنتاج الشاعر « هليودور » معروفة باسم « الأثيوبيات » ، وشعر هذا العصر ضعيف ينعدم فيه التجديد

ويطبعه التأخر، ومعظم كتاب هذا العصر من غير الاسكندريين . وفيه شاعت طريقة نظم العلوم فى منظومات شعرية تسهيلا لحفظها . ومن أشهر شخصيات العصر الطبيب المشرح «كلود جالين» الذى بلغ على يديه فن التشريح مبلغاً رفع من شأن الاسكندرية وخلد ذكرها فى الطب الجراحى . وكانت الدولة الحاكمة حربية الطابع لا تعنى إلا بكل ما له مساس بأقامة صرح الأمبراطورية ؛ وإلى هذا يعزى ضعف انتاج العصر الثانى بوجه عام . وعلى الرغم من كل ذلك فقد أنجبت الاسكندرية المهندسين «منيلاس» الذى درس «الدائرة» و «سيرنوز» الذى خطط مدينة السويس ، فضلا عن «پاپوس» الذى قرب «أقليدس» و «أپولونيوس» و «أرشميدس» إلى افهام الناس — ولولا جهود هؤلاء وجهود العالم الجغرافى «كلوديوس بطليموس» لاتصف هذا العصر بالجدب العلمى الشديد . وللعالم «ثيون» وابنته الفيلسوفة الوثنية «هپاشيا» فضل يذكر فى رفع شأن الاسكندرية فى هذا الشطر من حياتها العلمية . وكثير من العلماء الذين أظهرهم هذا العصر اشتغلوا بمسائل اللغة وعلقوا على الأشعار الهومرية . ومن أشهرهم «أپولونيوس الديسكولى»

ومن فلاسفة هذا العصر «أمونيوس سكاس» زعيم المدرسة الفلسفية المعروفة باسم «الأفلاطونية الحديثة» . وتلميذه «أفلوطين» الذى ينتسب اليه المذهب . وهما خير من يمثل الحالة الفكرية فى هذه الفترة من الزمن ، وهى حالة غلب فيها اللجوء إلى الالهام فى كشف حقائق الأشياء دون المنطق ، فقد اعتقد فلاسفة الاسكندرية فى هذا

العصر (وهم معلمو الأفلاطونية الحديثة) أن هناك شيئاً أسمى من الفكر فى ادراك حقائق الأشياء، هو البصيرة أو الكشف، وهما كفيلان عندهم بأدراك حقائق الاشياء. ويعزى كثير من الخسارة العلمية فى العصر الرومانى إلى الصراع بين المسيحية والوثنيـــة وضياع كثير من الكتب فى هذا الصراع. وكان أثر الوثنيين بالغاً فى حالة المدينة العلمية، حتى بعد ذيوع المسيحية وانتشارها — فقد أبيح للفلاسفة الوثنيين أن يحاضروا فى الجامعة فى فترة ضعف فيها الحماس الدينى الذى منع هؤلاء من أن يفيدوا بعلمهم جمهور الاسكندرية عند أول دخول المسيحية، وكان لعودة الوثنيين إلى الظهور على مسرح الحياة الفكرية فى الاسكندرية أثره فى أنعاش الحركة العقلية فى المدينة، والحق أن تقدم الفكر الاسكندرى أو تأخره على طول العصر الرومانى، كان مرهوناً بقيام الوثنيين أو قعودهم عن الاشتراك فى مسائل العلم والفلسفة — فلما أن فقدتهم المدينة نهائياً فى أواخر القرن الخامس الميلادى، بسبب قتل الأمبراطور «زينو» للأساتذة الوثنيين فى الجامعة، بدأ عهد الاسكندرية بالاضمحلال العلمى. وبفناء هذا الفريق اطرد عدد العلماء المسيحيين. ومن أشهرهم فى القرن السادس «حنا فليبونس» اللغوى العالم بالتوحيد والمعلق على فلسفة أرسطو، وهو من خيرة مفكرى الاسكندرية ذوى الآراء الحرة التى كانت تدنو فى نظر بعض البطارقة من الهرطقة؛ وهو مؤرخ مشهور اعتمد عليه «بطلر» Butler مؤلف «فتح العرب لمصر» Arab Conquest of Egypt ومن الشخصيات البارزة فى نهاية القرن السادس الميلادى «اسطفان»

الفيلسوف ، وهو من الأساتذة المسيحيين الذين درسوا « أرسطو » وعلقوا عليه ، ومن الذين أضعفوا عقيدة « الطبيعة الواحدة » فى المسيح . وقد حورب من أجل ذلك حتى رحل عن الاسكندرية . وفى خواتيم هذه الفترة كانت الروح الهلينية تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وذلك بسبب انتصار المسيحية على الوثنية واندحار الآراء الحرة ، واكتمال حركة النهوض القومى بين أقباط مصر ، وكان من جراء ذلك تدهور محسوس قضى قضاء تاماً على ما كان للاسكندرية من آداب وعلوم — اللهم إلا بقية من الطب والكيمياء أدركها العرب فى الاسكندرية ممتزجة بالمعجزات والتنجيم ، وخلاصة من الفلسفة مختلطة بالدين أشد الاختـــلاط وأقواه .

الفصل الثانى

فلسفة الأسكندرية

فيلو ، وبوادر فلسفة جديدة — أمونيوس سكاس — أفلوطين ومذهب الاسكندرية (الأفلاطونية الحديثة) - أثر الأفلاطونية الحديثة فى نشوء التصوف المسيحى — أثرها فى فلسفة العصور الوسطى « المدرسية » — أثرها فى التصوف الاسلامى — هل من أثر لها فى سبنوزا وديكارت ؟

فيلو : ولد فيلو سنة ٢٥ ق.م من أبوين يهوديين بمدينة الاسكندرية ، ومات سنة ٥٠ بعد الميلاد ، فهو معاصر لدخول المسيحية إلى الاسكندرية ، شهد صراعها مع الوثنية ، ذلك الصراع الحاد الذى كان له أثره على العلم والفلسفة .

وهو زعيم مدرسة فكرية أنشأها فى الاسكندرية ، جمعت بين التوحيد اليهودى وفلسفة أفلاطون . وما وصلنا من كتاباته يلق ضوءاً ساطعاً على روح ذلك العصر ، بما كان فيه من صراع بين اليهودية والوثنية ، وبين المسيحية والفلسفة اليونانية .

وهو أول من وفق بين التعاليم الأخلاقية اليهودية والفلسفة اليونانية ، حاول جاهدا أن يدلل على أن كل الآراء اليونانية أو جلها مستغرقة فى مبادىء اليهود الأخلاقية . وإلى هذا الزعم انصرفت كل جهود اليهود المشتغلين بالمسائل الفكرية فى ذلك العصر ، فكل ما وصل اليه العقل اليونانى مستمد فى نظرهم من التوراة ، ومن شريعة موسى عليه السلام .

وعند « فيلو » أن العقل اليونانى ، بما أوتى من مقدرة فائقة على استكناه الحقائق ، عجز كل العجز عن ادراك حقائق الأشياء ، وأن التفسير الوحيد لكل أشكال من هذا النوع يلتمس فى التوراة . فليس شىء عنده أقدر على شرح حقيقة الكون من ذلك الكتاب المقدس.

و « فيلو » أول عقل حاد بالفلسفة عن طريقها المنطق ، ونحا بها نحو الالهام والتصوف — وهو على بعد الشقة بينه وبين « سكاس » و « أفلوطين » استاذهما فى هذا المضمار . والخلاف بينهما يتلخص فى أن « فيلو » هذا مزج بين اليهودية والفلسفة اليونانية ، أما ممثلو الأفلاطونية الحديثة فقد مزجوا بين الوثنية والفلسفة اليونانية — وليس معنى هذا أنهم لم يقبلوا العنصر اليهودى الذى جاءهم مندمجاً فى هذه الفلسفة منذ ألصقه بها فيلو .

ويرى « فيلو » أن الحواس والعقل معياران كاذبان للمعلومات لا يصح تصديقهما ، وأن المعلومات الانسانية لدنية صرفة ، نشأت فى الفكر نشوءاً داخلياً لا علاقة للحواس به . وهو لا يعترف بأن الله خالق المادة ، وإنما عالم المادة عنده من خلق قوى أدنى من القوة الالهية .

وهو يشبه فكرته فى الخلق وصلة الاله بالمادة ، بانبثاق نورانى يشع من الاله ، تمتد منه خيوط تأخذ فى الضعف والزوال عند بلوغها عالم المادة — فالله نور ، والمادة ظلام ، ولا علاقة فى رأيه بينهما .

* * *

لم تعن جامعة الاسكندرية فى عصرها الأول بدراسة الفلسفة

عنايتها بالعلوم والآداب اليونانية ، ولكن مما ليس فيه شك أن فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو كانت موضوعات للدراسة فى «المتحف الاسكندرى» وكذلك كانت فلسفة الرواقيين والأبيقوريين .

تناول الاسكندريون هذه الفلسفات تناول المعجب بها ، وقرروا مبادئها تقريراً ، من غير أن يقوموا بمجهود يذكر للانتفاع بهذه الفلسفات المختلفة فى ابداع نوع جديد . وهكذا كانت دراسة الاسكندرية لفلسفة اليونان مجرد تعلق بأهداب القديم .

° ° °

ثم جاءت المسيحية بتعاليمها الجديدة ، فوقفت وجهاً لوجه أمام كل شيء وثنى ، تصارعه فتصرعه أو تتأثر به وتتخذه سنداً لها وعوناً — هكذا كان شأنها مع جامعة الاسكندرية ، رفضت منها الجانب الفلسفى البحت الذى لا يظاهرها ، وقبلت الجانب الذى رأته لا يتعارض مع مبادىء الدين الجديد .

وهضمت المسيحية فيما هضمت من الفلسفة جانباً يهودياً لاهوتياً مختلطاً بشيء غير قليل من آراء الأغريق فيما وراء الطبيعة . رأت المسيحية وهى تحارب جامعة الاسكندرية الوثنية أن تقبل هذه العناصر مختلطة ، وأن تستعين بها جميعاً على الذيوع والانتشار ، متخذة لنفسها سنداً من الفكر القديم .

قبلت المسيحية بعض الآراء الفلسفية ، ولفظت بعضها الآخر ، وظهر من المتحمسين للمسيحية ، الذين رأوا ضرورة للتشبث بالفلسفة ، فريق خلطوا الدين بالفلسفة ، وأنتجوا نوعاً من «التصوف»

بنوه على أسس مشوهة من فلسفة أفلاطون .

الافلاطونية الحديثة NEO PLATONISM

الأفلاطونية الحديثة آخر مدرسة فلسفية عرفها العالم القديم ، سادت تعاليمها بين إغريق الاسكندرية ابتداء من القرن الثالث الميلادى ، وهى فى مجموعها نوع من المحاولة الفلسفية التصوفية لتفسير الكون ، كما أنها فى الواقع خاتمة نابية لفصول الفلسفة اليونانية القديمة .

حقرت هذه الفلسفة من شأن الحقائق العلمية البحتة ، وجعلت للتصوف والألهام المنزلة الأولى فى تفسير الظواهر الكونية .

وكل مظاهر هذا الضرب من التفكير روحية محضة ، لا تعنى بالجانب المادى من العالم ، وإنما تفرغ كل عنايتها للجانب المعنوى منه ، وهى تأخذ بنظرية «المثاليين» ولا تعترف بنظرية «الماديين» ، ترى أن الحقائق الانسانية وليدة الفكر نفسه من غير تدخل الحواس ، فهى لا تصل اليه من العالم الخارجى كما يرى الماديون ، وبعبارة أخرى يرى اتباع هذا المذهب أن «الفكر هو الحقيقة» .

° ° °

ومن هذا نرى أن فلاسفة الأفلاطونية الحديثة عاشوا على غذاء فكرى ضئيل — لأنهم أساءوا النقل عن «أفلاطون» ، حين تعلقوا بما أورده من التشبيهات التى لم يسقها إلا على سبيل التمثيل ، من غير أن يأخذوا عنه آراءه الحقيقية فى «المثل» .

وعاش الشعب الاسكندرى على ترهات وخرافات مجـــدتها هذه الفلسفة الجديدة بكل ما وسع الفكر الشرقى من تشبث، وما طبع عليه من استسلام للأوهام.

ونظراً لما كان للاسكندرية من مركز متوسط بين أجزاء العالم القديم، تلاقت فيها ألوان من الفلسفة اليونانية، فتناولتها بالدرس والشرح والتعليق زمناً فى جامعتها، ثم أنتجت فى عصر ضعف الجامعة نوعاً من الفلسفة عرفت به وعرف بها، هو فلسفة «الأفلاطونية الحديثة».

وقد أخذت فلسفة الاسكندرية من كل فلسفة سابقة بنصيب، ثم مزجت هذا الخليط الفلسفى بالدين وبالتصوف، فهى آخذة من أرسطو أسلوبه المنطقى، كما هى قائمة على طريقة «اختيار» ما يحلو لها من المذاهب المختلفة — ليس لها اعتماد ما على حقائق العلم المادى، وعن أفلاطون نقلت كل آرائها فى «الميتافيزيقا»، ومن «الرواقيين» استمدت تعاليمها الأخلاقية. وزادت على ما أخذت عن هؤلاء جميعاً ما ساغ لها من تصوف خاص أكسبها طبيعتها المعروفة.

ولقد فرقت الأفلاطونية الحديثة تفريقاً واضحاً بين الروح والمادة، على نحو ما فرق بينهما الفلاسـفة اليونانيون من قبل، وكما فرقت «الفيثاغورية» الحديثة نفسها، وهى تأخذ فى ذلك بالمذهب «الاثنينى(١)» الذى يفصل المادة عن الفكر ولا يعتقد بوجود اتصال بينهما. وهذا هو العنصر الفلسفى فى الأفلاطونية الحديثة.

(١) زعيم هذا المذهب «أفلاطون»، وقد حاول أرسطو أن يصحح من خطأ هذا الرأى - راجع فلسفتى أرسطو وأفلاطون

وأضافت هذه الفلسفة إلى ذلك أن هناك شيئاً أسمى من الفكر فى ادراك حقائق الأشياء هو البصيرة ، فعن طريق الكشف يمكن أن تدرك حقائق الاشياء ،وهذا تصوف لا صلة بينه وبين العقل البحت.

وإن عصراً تسود فيه مثل هذه الفلسفة ، لا بد أن يكون عصر إمحال على ، عجز العقل فيه عن الوصول إلى حقائق الأشياء بطريقة منطقية ، فترك للألهام والكشف امر الوصول اليها .

اكتسبت الفلسفة هذه الروح الغريبة من احتكاكها بالدين ، ورغبتها فى مناصرته ، وربما كانت هذه الفلسفة قد تعمدت التحقير من شأن العلم المدرك بالحواس ، لتكون إلى الدين أقرب ... ولا غرابة فقد كان معظم فلاسفة هذا العصر من رجال الدين — بل لقد كادت الأبحاث الفلسفية بجميع أنواعها تكون وقفاً على رجال الدين المسيحى أنفسهم ، وهم الذين تذرعوا بأساليبها فى الاقناع لنشر العقيدة المسيحية .

وأول مبشر بهذه الفلسفة الجديدة « أمونيوس سكاس » .

***

أمونيوس سكاس : أمونيوس سكاس هو مبتدع هذا الضرب من الفلسفة فى الاسكندرية ، وأول أستاذ له ، نصرانى النشأة ، درس أرسطو وأفلاطون ، وتشبع بآرائهما الفلسفية ، غير أنه رأى أن العالم فى عصره قد هوى إلى حضيض غلبت فيه نزعة الشر على نوازع الخير ، وانحدرت فيه النفس البشرية من سماء الطهر إلى وهدة من الأدران سحيقة ، فكان لا بد لها من نوع من الفلسفة يقنعها أن

سموها وتحررها إنما هو باتصالها بالخالق ، وابتعادها عن شرور المادة وآثامها .

وهكذا كانت الأفلاطونية الحديثة العلاج الروحى لتلك الحالة السيئة . ولم يخلف « سكاس » أثراً مكتوباً من فلسفته ، ومات فى منتصف القرن الثالث للميلاد .

° ° °

أفلوطين : أفلوطين تلميذ لأمونيوس سكاس . هضم تعاليمه لدرجة جعلته يعتبر فى نظر كثير من مؤرخى الفلسفة مؤسس «مذهب الاسكندرية» .

ولا يعرف التاريخ كثيراً عن حياته الخاصة ، لأنه أبى أن يدون شيئاً عن الجانب الجثمانى من نفسه مبالغة فى الزهادة واحتقار المادة .

ولد فى أسيوط فى أوائل القرن الثالث الميلادى ، وتلقى علومه الفلسفية فى جامعة الاسكندرية ، وشغف بدراسة فلسفة الهنود والفرس ، ودرسها فى فارس عن كثب . وحوالى منتصف القرن فى الوقت الذى مات فيه أستاذه «أمونيوس سكاس» رحل إلى روما وأسس هناك مدرسة أخذ يعلم فيها مذهبه فى مقاطعة (كمپانيا) مكرما من الامبراطور «جالينوس» ومن عظماء تلك المقاطعة الذين وكلوا اليه أمر تثقيف أبنائهم وتربيتهم على تعاليمه .

وحياته الخاصة نموذج للتقشف البالغ . كان يقل من الطعام ومن النوم ومن الشراب رجاء الاتصال الروحى بالخالق — ويزعم أنصار هذا المذهب أن زعيمهم استطاع بالتجرد أن يصل إلى

الله أكثر من مرة ، وأن يندمج معه اندماجا تاما .

ooo

ولأفلوطين أهميـة خاصة فى عالم الفلسفة ، فهو فى الواقع آخر فيلسوف فى العالم القديم ، كما أنه المبتدع الأول (للمتافيزيقا)(١) المسيحية، وأول مقرر فى تاريخ التوحيد المسيحى للعلاقة بين المتافيزيقا والاخلاق . وفلسفة أفلوطين قائمة على فكرة «أفلاطون» فى «المثل» مع شىء من التشويه . رفض من كل مادرس من فلسفة اليونان أية علاقة بين عالمى المادة والحس . ورأيه فى العالم أنه من خلق قوة خارقة تعجز العقول عن إدراك كنهها : أزلية غير متناهية . لا صلة للروح أو المادة بها . وهذه القوة مؤثرة فى الكون ، غير متأثرة به ، إرادتها مطلقة لا راد لها ، وذاتها منزهة عن كل وصف ، لأن الوصف من مستلزمات المادة ، وهى ليست منها بحال ، لا مكان لها تستقر فيه ولا زمان . وفى عبارة موجزة هى قوة تخالف ما فى الوجود من قوى ، ولا تتصل بالوجود بأى نوع من أنواع الاتصال، لما فى ذلك الاتصال من التدلى إلى حضيض المادة .

إذا كان هذا ، فكيف تفسر هـذه الفلسفة « نظرية الخلق » ؟ كيف نشأت الكائنات ، إذا كان الخالق منقطع الصلة بالكائنات ؟

يرى « أفلوطين » أن الكون نشأ عن الآله بطريق « الفيض » ، على نحو ما يفيض الضوء من اللهب ، والبرد من الثلج .

---

(١) ما وراء الطبيعة ، الخالق .

وأول شيء فاض عن الأله بهذه الطريقة هو العقل . وعن هذا العقل انبثقت « نفس كلية » وعن هذه النفس الكلية انبثقت « نفوس جزئية » هي نفوس البشر ، وهذه النفوس الجزئية أدنى مراتب العالم الروحاني الذي يبدأ بالاله . وشاء «أفلوطين» أن يخرج من النفس الكلية نفساً ثانية هي «الطبيعة» ، وهي التي تتصل وحدها بالعالم المادي .

والمادة عند أفلوطين أبعد الكائنات عن الكمال ، وهي مصدر الشرور لأنها عبارة عن العدم ، والعدم أشد درجات النقص ، وغاية الحياة التحرر من سلطان تلك المادة ، وما دامت المادة شراً ، فلا اتصال لها بالخالق ، لأنه خير مطلق ، ولا يمكن أن يكون للخير بالشر اتصال .

ويؤخذ على أفلوطين أنه استسلم للأوهام ، وجعلها أساساً لفلسفته ، وما الفيض الذي رآه الوسيلة الوحيدة للخلق إلا محض خيال ووهم كبير .

وأسمى ما تطلعت اليه الأفلاطونية الحديثة هو الوصول إلى حالة استقرار نفساني ، يخرج العالم من ظلام الحيرة والشك الذي انتابه في ذلك الوقت — إذ لم يكن بد في وقت ساد فيه مذهب الشك(١) (الذي يقرر أن العقل لا يستطيع الوصول إلى حقائق الأشياء بالفكر) من وجود فلسفة كهذه ، تقرر أن الكشف والالهام كفيلان بالوصول إلى « الحقائق » التي قرر « الشكاكون » عجز

(١) Scepticism

الفكر عن إدراكها ، وهذا هو التصوف الذى دارت حوله الأفلاطونية الحديثة .

ويصعب أن يقبل الفلاسفة هذا الضرب من التفكير على أنه فلسفة ، ولا حاجة بهم إلى اخضاعه لقوانين المنطق الصارمة اشفاقاً عليـــه منها .

ولأفلوطين فى الوصول إلى حالة التجرد والاتحاد مع ذات الله خطوات لا بد « للمريدين » من سلوكها :

الأولى : — التحلل من شرور المادة وسلطانها القاهر بالرياضة على شظف العيش والتقشف .

الثانية : — التأمل والتفكير للوصول إلى الحقيقة العليا .

الثالثة : — الوصول إلى حقائق الأشياء بطريقة لدنية بحتة سبيلها التحلل من شرور المادة بالزهادة فيها . والتفكير فى ادراك الحقيقة العليا بالتأمل العميق .

الرابعة : — الاتحاد مع الله والاندماج فى ذاته والتجلى الأعظم ،

فاذا نعمت النفس الانسانية بهذا الاتصال الالهى ، استقرت فى مقامها الأول ، وسعدت بذلك المقام زمناً .

ولا سبيل إلى التجرد والاتصال بالخالق إلا بترويض النفس على الزهادة والتقشف .

* * *

وقدر لمذهب الاسكندرية هذا أن يتشكل فى سوريا وروما وأثينا بعض التشكل ، مع محافظته على أساسه التصوفى فى كل مكان

— فى روما اتخذت الأفلاطونية الحديثة على يد زعيمها هناك «بروفيرى» (فورفيروس) شكلا قل فيه الاعتماد بعض الشىء على التصوف وامتاز بالوضوح لأنه كان منطقياً — وفى سوريا، زادت حدة النزعة الدينية فى الأفلاطونية الحديثة، وازدادت غموضاً هناك على يد ممثلها «جامبليكوس».

وبعد القرن الخامس الميلادى انزوت الأفلاطونية الحديثة فى وكر الفلسفة الأول، فى «أثينا» حيث علمها «بروكلوس» آخر معلم للفلسفة القديمة. وعلى يديه ناصبت الأفلاطونية الحديثة المسيحية العداء، واشتدت حماستها للموسوية والوثنية.

وفى سنة ٥٢٩ م أغلق «جستنيان» المدارس الفلسفية أنى وجدها، فى أثينا وسوريا وروما، ففر من وجهه «دماسكياس» الدمشقى إلى بلاط «كسرى» ملك الفرس ومعه عدد من أتباعه يبتغون عنده نصرة لمذهبهم الفلسفى، ولكنهم باءوا بالخيبة فيما هاجروا من أجله، وضمن لهم «كسرى» عند «جستنيان» بعد عودتهم من بلاد الفرس حياة وأمناً.

وفى القرن السادس الميلادى قضى على الفلسفة بكل أنواعها قضاء تاماً، فلم تعد تدرس هنا أو هناك، وحلت محلها آراء ومذاهب دينية مسيحية شغلت الأذهان فى القرون الوسطى، طرأ عليها ماطرأ من الفساد حتى أدركها الاصلاح على يد «كلفن» و«لوثر» وغيرهما.

وليس معنى هذا أن الآثار الفلسفية ذاتها أمحت من الوجود، بل كل ما حدث أنها فقدت الألسنة الناطقة بها والعقول الباحثة فيها

والقوة الناشرة لها ، واستكنت فى خزائن الأديرة والكنائس زمناً ، يقرؤها رجال الدين فى صمت عجيب ، ويفيدون منها ما يفيدون ، إلى أن جاء عصر احياء العلوم ، فقدر لآثار أرسطو وأفلاطون والاسكندريين وأشياع الاسكندريين أن ترى النور من جديد ، وأن تنال على ضوء العقل الحديث ما تستحق من تقدير ونقد .

* * *

ومال العرب فى العصر العباسى إلى دراسة الفلسفة اليونانية عامة ، فأخذوا عن اليونان أساليبهم فى الفكر وأقيستهم فى المنطق ، ومسلكهم فى الحوار ، وأدخلوا بذلك على الدين الاسلامى حركة تعقلية امتاز بها العصر العباسى الأول ، هى حركة « الاعتزال » ، ثم نقلوا عن فلسفة « الاسكندرانيين » روحها التصوفية . لأنهم وجدوا فيها ملاءمة تامة بين الدين والفلسفة ، فمالوا اليها وانتفعوا بها .

وإذا حق القول بأن هذه الفلسفة أنشأت التصوف المسيحى انشاء ، فلا يمكن الذهاب إلى أنها أنشأت التصوف الاسلامى ، إذ التصوف الاسلامى سابق فى وجوده على دراية العرب بهذه الفلسفة . ومن الانصاف أن نعيد القول هنا بأنها لم تخلق التصوف الاسلامى — وانما دخلت عليه فقط ، فلم ير فيها ما يخالف طبيعته ، فقبلها ، وأخذ منها ما يقوى هذه الطبيعة . كان ذلك فى العصر العباسى حين ذاعت فلسفة الاسكندريين بين العرب على يد السريان .

* * *

والمتأمل فى فلسفة « سپنوزا » و « ديكارت » يرى أنهما أخذا

أصولا لفلسفتهما من الأفلاطونية الحديثة، ويرجع الفضل فى ذلك إلى يهود العصور الوسطى، وما مذهب «فطرية الأفكار» عند «ديكارت» إلا رجوع إلى ما قرره أفلوطين من أن النفس كانت بادىء ذى بدء نقية تكدست حولها الأدران، فلو أنها استطاعت أن تنق ذاتها، لشعرت أنها لا تحتاج إلى مزيد من العلم يأتيها عن طريق الحواس — عندئذ تهتدى النفس إلى كل شىء بهدى إلهى هو الأفكار أو حقائق الأشياء الحالة فيها «بالفطرة».

وأشهر آثاره الفلسفية «التاسوعات» Enneads وتقع فى أربع وخمسين مقالة، طبعها تلميذه «فورفيروس»، ظهرت لها طبعة لاتينية عام ١٤٩٢م، ثم طبعت فى أواخر القرن التاسع عشر، طبعها «ملر» Müller ثم ترجمها إلى الانجليزية «ماك ـ كنا» سنة ١٩١٧م وخير من تناول أفلوطين وفلسفته بالكتابة «إنج» الذى وضع «فلسفة أفلوطين الدينية» (١٩١٤)، و«فلسفة أفلوطين» (١٩١٥).

وممن كتبوا عن فلسفة أفلوطين من العرب «الشهرستانى» وكان يسمى أفلوطين «الشيخ اليونانى»، ونحن نسوق مثالا من تناول الشهرستانى لفلسفة الاسكندرانيين، يقول فى علاقة الله والعقل بالمادة فى كتاب «الملل والنحل»:

«وقد ارتفع اليك خصمان منك يتنازعان، بك أحدهما محق والآخر مبطل، أحدهما العقل والثانى الطبيعة أى المادة».

ويقول فى الاله: «ليس للمبدع الأول تعالى صورة، ولا

حلية مثل صور الأشياء العالية ، ولا مثل صور الاشياء السافلة ، ولا قوة له مثل قواها ، لكنه فوق كل صورة وحلية وقوة ، لأنه مبدعها بتوسط العقل : المبدع الحق ليس شيئاً من الأشياء ، وهو جميع الأشياء ، لأن الأشياء منه . وقد صدق الأوائل الأفاضل فى قولهم : مالك الأشياء كلها هو الأشياء كلها ، أو هو علة كونها ، (والمقصود بالأفاضل الأوائل فلاسفة اليونان) وهو قديم دائم على حاله لا يتغير ، والعاشق يحرص على أن يصير اليه ويكون معه . وللمعشوق الأول (الاله) عشاق كثيرون ، وقد يفيض عليهم كلهم من نوره ، من غير أن ينقص منه شيء ، لأنه ثابت قائم بذاته لا يتحرك » .

هذا مثل من أمثلة أخذ العرب عن الاسكندريين ، وهو يطلعنا على أن الأفلاطونية الحديثة لا تجعل صلة بين الاله والمادة ، فان جعلت هناك صلة بينهما ، فبطريقة نابية عن المنطق كما ترى .

الفصل الثالث

تحقيق القول فى أمر المكتبة العامة

أبو الفرج بن العبرى يذيع الفرية — ملخص الفرية — الأدلة على أن العرب لم يقترفوا هذا الأثم — خلو الاسكندرية من مكتبة عامة عند فتح العرب لمصر — خلاصة آراء المؤرخين المحدثين .

نقل « أبو الفرج بن العبرى » Bar Hebraeus عن ابى الحسن على ابن يوسف القفطى (٥٦٨/٦٤٦هـ) رواية مؤداها أن « عمرو بن العاص » أحرق المكتبة الكبرى التى كانت بالاسكندرية عند فتح العرب لها ، ثم تداولها من بعده نفر من المؤرخين ، منهم عبد اللطيف البغدادى وتقى الدين المقريزى .

وتتلخص الفرية فى أن حنا الأجرومى Johannes Grammaticus شهد فتح العرب للمدينة ، ودخل مرة على عمرو بن العاص فأكرمه عمرو وافتتن به ، وقربه من نفسه — فطلب « حنا » إلى عمرو أن يهبه « كتب الحكمة فى الخزائن الملوكية » فاعتذر عمرو بأنه لا يستطيع أن يأمر فيها بأمر إلا بعد أن يستأذن أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » وكتب عمرو إلى الخليفة عمر فى شأن ذلك ، فجاءه كتاب الخليفة يقول : وأما الكتب التى ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ، فنى كتاب الله ما يغنى عنها ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله ، فلا حاجة اليها ... تقول الرواية ، فأخذ عمرو يوزع كتب المكتبة على

حمامات الاسكندرية لتحرق فى مواقدها ! !

«وحنا الأجرومى» هذا هو بعينه «حنا فلپونس» John Philoponus الذى عاش فى حكم چستنيان (٥٢٧/٥٦٤) وكتب مقالات عدة هاجم فيها رجال الدين المسيحيين — والمرجح أنه لم يكن على قيد الحياة عند فتح العرب للاسكندرية عام ٦٤٢م، ولو كان حيا حينذاك لنيف عمره على مائة وأربعين سنة(١)

° ° °

ذكر «پلوتارخ» ونفر من المؤرخين الذين أتوا من بعده أن حريق «البروكيوم» سنة ٤٨ ق.م أصاب المكتبة الملحقة بالمتحف الاسكندرى، وقضى على ما يقرب من أربعمائة ألف مجلد. ولا يحتمل أن يكون «سترابون» قد سكت عن حادث كبير كهذا، بل الأقرب إلى العقل أن يكون المؤرخ الكبير قد ذكر الحادث فى بعض تاريخه المفقود، لأن الرواية تواترت على ذكره، ولم يعد حريق «البروكيوم»، واحتراق المكتبة التى كانت به أمراً يقبل الشك.

على أن المعروف أن «مارك أنطوان» عوض المدينة عن الخسارة الفادحة التى حلت بها بأهدائها كتب مكتبة «برجاموس» كلها أو جلها، أما المكان الذى أودعت فيه هذه الكتب المهداة فمحل خلاف بين المؤرخين، فالبعض يرى أنها أودعت فى مكان ما بالقصور الملكية حتى تم تشييد معبد «القيصريون». ومهما يكن من الأمر، فقد كان فى هذه الهبة خير العوض عما فقدته مكتبة المتحف،

---

(١) راجع ترجمة حنا فلپونس فى الفصل الرابع من القسم الثالث

وظلت كتب هذه المكتبة مرجع العلماء والمتعلمين على طول العهد الروماني.

على أن الصراع العنيف الذى مر بنا ذكره بين المسيحيين والوثنيين، والذى قضى على كل الآثار الوثنية تقريباً مع خواتيم القرن الرابع الميلادى بتدمير «السرابيوم»، لا بد أن يكون قد قضى على ما كان فى المدينة من آثار الوثنية وأخصها الكتب، سواء كان ايداعها فى المتحف أم فى «القيصريون» أم فى «السربيوم».

على أنه لو كان ايداع هذه الكتب فى المتحف أو قريباً منه، فما لا شك فيه أن «أورليان» فى اخماده ثورة الاسكندرية عام ٢٧٣ م، قد قضى عليها فى مكانها، وإن كان قد نجا من هذه الكتب شىء نقل إلى السرابيوم، فلم ينقض القرن الرابع الميلادى حتى كانت كتب الوثنيين قد زالت من الوجود، إما بسبب هدم معبد القيصريون عام ٣٦٦ للميلاد، أو تدمير السرابيوم عام ٣٩١ م وانطفاء جذوة العلم فيه بسبب زوال هذه الثروة القيمة.

ويذكر «أفثونيوس» Aphthonius، وهو ممن عاصروا تدمير السرابيوم أن مكتبة كبرى كانت وثيقة الاتصال بأبنيته، ولا بد أن يكون التخريب التام الذى نال المعبد قد قضى على هذه المكتبة فيما قضى، وإن كانت مخازن الكتب قد بقى بعضها إلى أوائل القرن الخامس الميلادى، (على ما يقرر المؤرخ «أوروسيوس» Orosios)، فقد كانت خالية من الكتب — وعلى هذا يصعب أن يعتقد الانسان أنه قد بقيت بالاسكندرية مكتبة عامة: والحق أنه لم يكن بالمدينة عند فتح العرب لها عام ٦٤٢ للميلاد غير بعض المكتبات الخاصة يملكها

نفر من محبي العلم من أمثال العالم «كزماس» الذى كان يعير من كتبه فى كثير من الرغبة فى الأفادة ، ومكتبة مطران «آمد» وهو من كبار علماء السريان فى مصر ، ومكتبات الأديرة والكنائس ، وكانت كتبها فى الغالب مسيحيه .

وهكذا يتأكد القول بعدم وجود مكتبة عامة بالاسكندرية ، يمكن أن يضع العرب عليها أيديهم عند الفتح(١) .

٭٭٭

وفيما يلى اجمال لرأى الدكتور «بطلر» فى شأن هذه المكتبة — يقول فى آخر الفصل الذى عقده لهذا الغرض فى كتابه ، معرباً بقلم الأستاذ محمد فريد أبى حديد :

١ — أن قصة احراق العرب للمكتبة العامة لم تظهر إلا بعد نيف وخمسمائة عام من وقت الحادثة التى تذكرها القصة .

٢ — أننا فحصنا القصة وحللنا ما جاء فيها فألفيناه سخافات مستبعدة ينكرها العقل .

٣ - أن الرجل الذى تذكر القصة أنه كان أكبر عامل فيها وهو (حنا الأجرومى) مات قبل غزوة العرب بزمن طويل .

٤ — أن القصة قد تشير إلى واحدة من مكتبتين : الأولى مكتبة المتحف ، وهذه ضاعت فى الحريق الكبير الذى أحدثه «قيصر» ٤٨ ق.م — وأن لم تتلف عند ذلك ، كان ضياعها فيها بعد فى وقت لا يقل عن أربعمائة عام قبل الفتح(٢) — وأما الثانية وهى مكتبة «السرابيوم» فاما

(١) راجع الفصل الأول من الباب الخامس « نهاية الجامعة »

(٢) بسبب ثورات المسيحيين على الوثنيين .

أن تكون قد نقلت من المعبد قبل عام ٣٩١ للميلاد وقت ثورة تيوفيلوس، وإما أن تكون قد هلكت أو تفرقت كتبها وضاعت — فتكون على أى حال قد اختفت قبل فتح العرب بقرنين ونصف قرن من الزمان.

٥ — أن كتاب القرنين الخامس والسادس الميلاديين لا يذكرون شيئاً عن وجود مكتبة عامة، وكذلك كتاب أوائل القرن السابع.

٦ — أن هذه المكتبة لو كانت لا تزال باقية عندما عقد «قيرس» صلحه مع العرب على تسليم الاسكندرية، لكان من المؤكد أن تنقل هذه الكتب إلى خارج الاسكندرية، وقد أبيح ذلك فى شرط الصلح الذى كان يسمح بنقل المتاع والأموال فى مدة الهدنة، بين عقد الصلح ودخول العرب المدينة. وقدر ذلك بأحد عشر شهراً.

٧ — لو صح أن هذه المكتبة قد نقلت، أو لو كان العرب قد أتلفوها حقيقة، لما أغفل ذكر ذلك كاتب من أهل العلم كان قريب العهد من الفتح هو «حنا النقيوسى(١)»، ولما مر على ذلك بغير أن يكتب حرفاً عنه.

° ° °

ولا يمكن أن يبق شك فى الأمر بعد ذلك فان الأدلة قاطعة، وهى تبرر ما ذهب اليه «رينودو» من الشك فى قصة أبى الفرج، وما ذهب اليه «جبون» من عدم تصديقها، ولا بد لنا أن نقول

---

(١) مؤرخ قبطى مصرى كتب تاريخا فيها لحوادث عصره باللغة القبطية. والنسخة الخطية لكتابه موجودة فى المتحف البريطانى، نقلها الانجليز اتفاقا فيما نقلوا من كتب (مجدلة) إحدى بلاد الحبشة

أن رواية أبى الفرج لا تعدو أن تكون قصة من أقاصيص الخرافة ليس لها أساس من التاريخ .

* * *

وفيما يلى اجمال لرأى شارل ديل Ch. Diehl الأستاذ بالسربون ، فى كتاب « تاريخ الأمة المصرية » لهانوتو .

١ — لم يذكر حنا النقيوسى الذى يكاد يكون معاصراً للفتح العربى والذى كان رجلا عالماً شيئاً عن حريق المكتبة .

٢ — اختفت المكتبة التى كانت فخر المتحف منذ أمد بعيد قبل الفتح العربى بشهادة بلوتارخ وسنكا وديون كاسيوس و« أمين مرسلين » و « أوروز » فى الحريق الذى صحب ثورة الاسكندريين على قيصر .

٣ — أما تلك المكتبة الشهيرة التى أسست بعد سنوات فى بعض جهات « السرابيوم » ، فقد اختفت على الأرجح سنة ٣٩١ بعد الميلاد حينما خربه المسيحيون فى ثورتهم على الوثنيين — أو اغتصبت وتفرقت كتبها أيدى سبا .

٤ — لم يذكر واحد من كتاب القرن الخامس الذين زاروا الاسكندرية ، ولا سيما « حنا مسكوس » الذى كان مشغوفاً بالمسائل الفكرية شيئاً عن وجود مكتبة كبرى فى الاسكندرية .

* * *

وأنت ترى أنه لا يكاد يختلف « ديل » عن « بطلر » فى الرأى ، وبهذه التدليلات القاطعة انتفت تلك التهمة التى كان « ابن القفطى » أول من ذكرها ، والتى روجها « أبو الفرج بن العبرى » المؤرخ اليهودى .

الفصل الرابع

أشهر الأعـــلام

كاليماخوس العالم بالمكتبات — أقليدس أبو الهندسة — مانيتون المؤرخ — ثيوكريتس الشاعر — أراتوستنيز وأرستاركاس — كلوديوس بطليموس الجغرافى — ديوفانتس عالم الجبر — ثيون وهباشيا — جالينوس الطبيب — حنا الأجرومى — بولس الأجانيطى .

كليماخوس(١)

امتازت المدرسة الأدبية بأنها ناقلة فى مجموعها ، معلقة على هذا النقل ، ناقدة له ومصنفة فى الوقت نفسه أنواعاً من التصانيف كانت بدء العناية بالعلوم اللغوية — ولو لم يكن للاسكندرية غير هذا الفضل لكفى .

وأكثر الأسماء تداولا فى مضمار الأدب الاسكندرى كاليماخوس الأديب الشاعر ، وهو كبير الأثر فى الحركة الأدبية فى الاسكندرية ، عهد إليه بطليموس الاول أمر ترتيب مكتبة المتحف ، وبفضله غدت المكتبة بنظامها الدقيق تقدم أعظم التسهيلات لاســـاتذة جامعة الاسكندرية وطلابها .

وهو أول أمناء المكتبات فى الشرق فى نظر البعض ، وضع فهرسين لمكتبة المتحف الاسكندرى ، أحدهما بأسماء المؤلفين ، والآخر بأسماء الموضوعات .

---

(١) Callimachus ٢٨٥/٣٢٣ قبل الميلاد

وهو أول من فكر فى تقسيم الملفات البردية إلى أجزاء . ومن هنا كان تقسيم الأشعار الهومرية وتاريخ هيردوت وغير هذين من الآثار الأدبية القديمة إلى أجزاء أو مجلدات .

وبفضل هذا الترتيب أصبح لمكتبة الاسكندرية مركز ممتاز فى عالم التصنيف والبحث ، وغدت المرجع الوحيد الذى اعتمد عليه الناقلون ، وأصبح العالم كله لا يثق إلا فى مخطوطات الاسكندرية . وعن مخطوطات المكتبة الاولى التى نظمها كليماخوس والمكتبة التى كانت فى السرابيوم ، نقلت جميع النسخ الخطية وملفات البردى التى لم تعصف بها أحداث الزمن إلى المكتبات الأوروبية المختلفة . وبطريق هذا النقل شاعت فى أوربا آثار هومر وزنفون وأرسطو وأفلاطون وفيثاغورس وأقليدس وأفلوطين وغيرهم من العلماء والفلاسفة والأدباء من الأغارقة والاسكندريين .

إقليـــدس (1)

امتازت جهود الاسكندرية بأنها كانت فى مجموعها جهوداً أدبية ، غير أنه لم يكن هناك غير حاجز رقيق يفصل الأدب عن العلم ، وكثيراً ما كان يتلاشى ذلك الحاجز ، فلا يكاد الانسان يفرق بين ما هو أدب وما هو علم — ولا بين أديب وعالم ، إذ كان انتاج الفكر اليونانى الأول « كلا » متصلا يصعب أن يفصله الانسان إلى شعاب ، فنى تلك الحقب السحيقة امتزج الأدب بالعلم امتزاجاً

---

(1) Euclid ٣٠٦/٢٨٣ قبل الميلاد

شديداً — فكان الاديب عالماً والعالم أديباً والطبيب شاعراً وناقداً للأدب فى وقت واحد ، وهكذا كانت المعلومات الانسانية كماً واحداً لا سبيل إلى تفصيله ، ولكنه كان هناك من العلماء رغم ذلك من عكف على ناحية واحدة من نواحى العلم وأمعن فى مباحثها إمعانا كاقليدس .

ويختلط اسم «إقليدس» الاسكندرى باسم إقليدس الفيلسوف الميغارى . وإقليدس الميغارى هذا معاصر لأفلاطون . أما إقليدس الاسكندرى فقد جاء متأخراً عنه بزمن . ويحتمل أن يكون قد تلقى علومه الرياضية فى «أثينا» ، ثم رحل إلى الاسكندرية ، وأسس بها مدرسة رياضية فى عصر «بطليموس سوتر» (٣٠٥/٢٨٣ق.م) ؛ وفى شخصيته تتمثل أقوى نزعة علمية رياضية عرفت عن الاسكندرية ، وهو يلقب بأبى الهندسة . تتلمذ عليه العاهل بطليموس الذى يحكى عنه أنه سأل مرة أستاذه إقليدس عما إذا كان هناك طريق مختصر إلى الهندسة ، فأجابه إقليدس على الفور بقوله «يا مولاى : ليس هناك طريق ملكى إلى الهندسة» .

ويروى كذلك أن تلميذاً من تلاميذه سأله يوماً عن الفائدة التى يجنيها الانسان من دراسة الهندسة ، فما كان من إقليدس إلا أن استدعى رفيقاً له وأمره أن ينقد الطالب بعض النقود ، فكان ذلك نقدا لاذعا وتهكما بارعا على سؤاله .

وذلك واضح الدلالة على أن العلم كان فى الاسكندرية على يد إقليدس علماً قصد لذاته — لا للمادة . وقد ضرب إقليدس برده على بطليموس أول مثل على حرية الرأى الجامعى ، وأستن بذلك سنة

ما تزال مرعية فى الجامعات حتى الآن .

وينسب إلى إقليدس أنه غير وجه الهندسة تغييراً تاما وافترض لها فروضاً جديدة جعل بها الفروض القديمة بالية غير ممكنة التطبيق .

وأشهر مؤلفاته « الأصول » Elements وتكون من ثلاثة عشر جزءاً ، وأهم الموضوعات التى عالجها إقليدس :

١ — محاولة عنيفة لتربيع الدائرة . وقد ثبت أخيراً أن هذه المحاولة غير مجدية .

٢ — هندسة الأجسام المنتظمة الخمسة (ذو الثمانية أوجه — ذو العشرين وجها — ذو الاثنى عشر وجها — الهرم الثلاثى — المكعب)

٣ — طريقة « إيودوكسوس » فى « الاستنفاد »(١)

٤ — الهندسة الفيثاغورية، وهو الذى أخضعها إلى نظام البرهنة النظرية ، وكانت قبل ذلك هندسة تعتمد على القياس بآلة القياس ، لا على البرهنة النظرية التى عمادها المنطق .

٥ — هندسة القطاعات (من مباحث الهندسة الفراغية). ويعزى اليه أنه رتب النظريات وجعل أساس صحتها البراهين النظرية المعتمدة على استخدام المنطق ، وهو أول من اعتمد فى البرهنة على « البديهيات » وتعرف الهندسة التى هذبها إقليدس باسم « الهندسة الاقليدية » .

ولا تزال هندسة « إقليدس » تكون جزءاً من منهج الدراسة فى المدارس الانجليزية والمدارس المصرية وغيرهما بالاضافة إلى الهندسة الفيثاغورية التى يرجع اليه فضل تهذيبها .

---

(١) Eudoxus's Method of Exhaustion

ولا شك أن فن البناء الذى اشتهرت به الاسكندرية استفاد كثيراً من هندسة إقليدس ، حيث لا بد أن تكون قد طبقت فيها نظرياته تطبيقاً عملياً .

مانيتون (١)

« مانيتون » كاهن مصرى ـ أغريق ولد فى سبنيتس (سمنود) من أعمال الدلتا . عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد فى عصرى بطليموس الأول وبطليموس الثانى . شغف بدراسة التاريخ المصرى القديم ودونه فى عصر بطليموس فيلادلف وبأمر منه . وضع لمصر تاريخاً

---

(١) وعلى ذكر مانيتون Manethon المؤرخ المصرى ، نذكر « بروسس Berosus الكاهن الكلدانى الذى وضع لكلديا تاريخا له قيمته العلمية ، ولكنه كتاريخ مانيتون مفقود الآن . ويرجح أن يكون مانيتون قد حاكاه فى ذلك ، فوضع تاريخا مماثلا لمصر هو الذى نحن بصدده

ثم بوليبيوس Polybius ‏١٢١/٢٠٣ ق.م الذى وضع تاريخا مفصلا لفتوحات الرومان ، وتتلخص قيمة هذا المؤلف فى أن واضعه دون فيه حوادث كان فيها شاهد عيان لسطوة روما وعنفوانها .

ثم ديودور الصقلى الذى وضع تاريخا للعالم محوره تاريخ روما .

ثم هيرودوت المؤرخ الأغريقى الذى يلقب بأبى التاريخ ، وتاريخه خير ما كتب الأقدمون جميعا ، وقد جعل محوره تاريخ الفرس والأغريق .

ولا يفوتنا أن نذكر بلوتارخ Plutarch أمير كتاب التاريخ . كتب عن الشخصيات المعاصرة له من ساسة الأغريق والرومان ورجال الحرب . ولكتاباته نزعة خاصة القصد منها تمجيد أبطال (هلا) — ومؤلفه معروف فى الفرنسية باسم : Vie des hommes illustres

بالأغريقية حافلا بالحقائق ، مستمداً من أوثق المصادر التاريخية : من النقوش الهيروغليفية وأوراق البردى وسجلات المعابد ، وكان يقع فى ثلاثة أجزاء : الأول يتناول التاريخ من بدء الخليقة حتى الأسرة الثانية عشرة الفرعونية ، والثانى يتناول الفترة الواقعة بين الأسرة الثانية عشرة والأسرة التاسعة عشرة ، والثالث يتناول الفترة الواقعة فيما بين الأسرة العشرين والفتح الفارسى الثانى .

وتاريخ « مانيتون » مفقود لا أثر له الآن — إلا ما نقله عنه المؤرخ اليهودى « جوزيفس » ثم « يوزيب » بعده بزمن . وبقى ما نقل جوزيفس عن « مانيتو » الحجة التى اعتمد عليها كتاب التاريخ ، حتى عثر « شمبليون » على حجر رشيد وفك طلاسم الهيروغليفية ، وأمكن بذلك استقاء التاريخ من أوثق مصادره — ألا وهى النقوش المصرية القديمة .

ثيوكريتس (١)

من أشهر شعراء الاسكندرية « ثيوكريتس » الصقلى الأصل ، عاش فى عصر بطليموس فيلادلف (٢٨٥/٢٤٧ ق.م) مقرباً منه حتى قيل أنه كان شاعر البلاط . كتب أشعارا معظمها أغانى تصور الحياة الريفية فى صقلية أبدع التصوير . وظل اسم هذا الشاعر جارياً على الألسنة نحو ألفى عام فى عصور نضب فيها معين الأدب بعد سقوط الاسكندرية فى قبضة الرومان .

(١) Theocritus ٢٨٥/٢٤٧ قبل الميلاد

والأدب الإسكندرى المعروف لنا بعضه من نتاج الاسكندرية الخالص، وبعضه من نتاج عقول انتجعت الاسكندرية وكتبت فيها بوحى الطبيعة الأجنبية — ومن ثم لم يكن غريباً أن يكتب شاعر اسكندرى الموطن شعراً عن أرض «هلا» بلاد اليونان ، أو أن يتصوره اليإذة جديدة ، أو يصف روابى صقلية ووهادها ومنحدراتها ومروجها النضرة ، كما فعل « ثيوكريتس » .

والواقع أن البحر الأبيض برمته كان «موضوع العناية» ، فقد كان من الوجهة السياسية مطمح ساسة الاسكندرية الأكبر ، وظلت الرغبة فى السيادة عليه سبب التنازع بين ملوك اليونان وملوك مصر من البطالمة زمناً ، ومن الوجهة العلمية كان العلماء لا يؤثرون بعض جهاته على بعضها الآخر ، فكثيراً ما انتجعوا جزيرة ساموس ، وجزائر أيونيا ، وجزيرة رودس وجزيرة صقلية ، وكان لهم فى هدوئها جميعاً وانعزالها انتاج علمى وأدبى فائق نسب إلى أثينا وقت سيطرتها ، وإلى الاسكندرية فى عهد تقدمها السياسى والعلمى .

وأغلب الظن أن فروعاً تتبع جامعة الاسكندرية كانت منتشرة فى بعض جهات البحر الأبيض ، على النحو الذى نعرفه فى أوربا الآن من تبعية كلية «أكستر» Exeter فى جنوب غرب انجلترا لجامعة لندن ، فى العاصمة البريطانية .

إراتوسـثنيز (١)

ولد « إراتوسثنيز » فى اقليم برقه عام ١٧٦ قبل الميلاد ، وتتلمذ على « كاليماخوس » ، ودرس الفلسفة على أعلامها فى أثينا . استدعاه بطليموس الثالث ليكون أميناً للمكتبة ، وكانت أمانة المكتبة توكل عادة إلى ألمع شخصيات العصر .

وكان « أراتو » صديقاً للعلم على حد تسميته لنفسه . بلغ من سعة معارفه وعلو مداركه أن عرف باسم « أفلاطون الثانى » بسبب شدة اعتناقه لآراء أفلاطون ودفاعه عنها .

ألف فى الفلسفة وعلوم اللغة والهندسة والرياضيات والجغرافيا والتاريخ والفلك ، وله فى التاريخ كتاب مفقود عن الاسكندر الأكبر وتعليقات على تاريخ مانيتون .

وأبرز أعماله الباقيات قياسه لمحيط الأرض بطريقته الفلكية المعروفة، فقد رصد الزاوية المحصورة بين الشمس وهى عمودية على الجندل الأول عند « سيين » (أسوان) والاسكندرية ، فوجدها ٧½° ، ثم قاس المسافة الواقعة بين «سيين» والاسكندرية فوجدها ٥٠٠ (ميل) تقريباً ، فاذا كانت كل ٧½° من المحيط تعادل ٥٠٠ (ميل) ، فأن المحيط كله يعادل ٢٥٠٠٠ من الأميال — وعلى هذا التقدير يكون قطر الأرض ٧٨٥٠ (ميلا) ، وهو حساب لا يختلف عن الواقع إلا فى حوالى ٥٠ ميلا . ويعتبر اراتوسثنيز بحق مؤسس المذهب العلمى فى « الجغرافية » .

---

(١) Eratosthenes ٢٧٦/١٩٦ قبل الميلاد

و «اراتوستنيز» أول من وضع مصوراً علمياً ذا خطوط للطول وخطوط للعرض يشمل العالم المعروف حينذاك (أوربا وأفريقية وآسيا) ، ويمتاز مصوره بوضوح الأجزاء المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط وضوحاً تاماً .

وتعتمد جغرافية «اراتوستنيز» على حقائق اعتبرها الجغرافيون المحدثون صحيحة فى جملتها ، وقرروا أنها أقرب إلى العلم الصحيح من المعلومات التى وضعها سابقوه .

هباركاس[١]

عنى البطالمة بالفلك عنايتهم بالرياضيات ، وبنوا المراصد من أجل ذلك فى الاسكندرية وكانوب (أبى قير) .

والغالب أن تكون هذه المراصد الفلكيه قد حققت لهم بعض المشاهدات الفلكية الهامة ؛ ويرجح أن تكون عناية البطالمة بالفلك قد بدأت منذ اهتم به العالم «اراتوستنيز» ، ومنذ بذل محاولته الأولى لقياس محيط الأرض بطريقته المعروفة(٢) .

ويذكر اسم « هپاركاس » فى رأس المشتغلين بالفلك البحت . قضى حياته الأولى فى جزيرة «ساموس» ثم رحل إلى الاسكندرية ، وأهم أبحاثه نظريته فى النظام الشمسى التى قرر فيها لأول مرة فى التاريخ أن الأرض والكواكب تدور حول « الشمس » . ولم يصدق قوله

(١) Hipparchus ١٦١/١٢٧ ق.م

(٢) راجع « إراتوستنيز »

أحد من فلكي العصر الهليني والعصور التالية ، وظل مناقضوه فى الرأى على خطئهم يعتقدون أن «الأرض» هى المركز الذى تدور حوله الشمس والكواكب الاخرى ، وقد أثبت «كوبرنيق» البولندى صواب رأيه فى ذلك — ولهذا يعتبر «هاركاس» المبتدع الأول لنظرية «النظام الشمسى» Solar System التى تقرر أن «الشمس» هى المركز وأن الكواكب تدور حولها .

كلوديوس بطليموس[1]

ولد «كلوديوس بطليموس» فى بلوزيوم (الفرما) ، فهو مصرى المولد والحياة .

جاء بطليموس متأخراً فى القرن الثالث الميلادى ، فلخص كل ما كتب سابقوه ، واعتبر فى العصر الرومانى الحجة فى كل ما عرف من علمى الفلك والجغرافية .

ووقع بطليموس فى الخطأ الذى وقع فيه كثيرون غيره وبقى شائعاً قروناً عديدة ، ألا وهو الاعتقاد بدوران الشمس حول الأرض . ورغم ماوقع فيه من خطأ جسيم فى هذه الناحية ، فقد ظل رأى بطليموس متداولا فى القرون الوسطى ، وعرفت نظريته الخاطئة هذه باسم «النظرية البطليموسية» فى النظام الشمسى .

وقد فطن إلى خطأ نظرية بطليموس «كوبرنيق» البولندى ،

---

(١) Claudius Ptolemy عاش بالاسكندرية فى القرن الثالث الميلادى .

وشاد كوبرنيق بفكرة الفلكى الاسكندرى المتواضع «ارستاركاس» الذى وصل مبكراً إلى الحقيقة فى أمر دوران الأرض حول الشمس دون أن يعترف له بالفضل أحد .

وتدهور الفلك البحت بعد بطليموس تدهوراً عظيماً واختلط بالتنجيم ؛ ووضع بطليموس قبل وفاته كتاباً عن « التنجيم البابلى » يدل على أنه لم ينج من التأثر بروح العصر التى غلبت عليها الخرافة ، وكادت الروح العلمية البحتة على عهده تتلاشى من العالم حين دقت نواقيس الظلام ، وأسلم العلم زمامه نهائياً للجهالة التى خيمت على العالم فى عصور الصراع بين الوثنية والمسيحية . وهو معتمد فى كثير من آرائه على الفلكى القديم « هپاركاس » الذى اشتغل بالفلك فى الاسكندرية فى عصر بطليموس الرابع . واعتماده كذلك معروف على « مارينوس الصورى » الفلكى السورى الشهير .

وأشهر مؤلفاته « المجسطى » ، وهو عمل على جغرافى جليل ، شغل ثلاثة عشر مجلداً ، وفيه يقرر بطليموس نظامه الشمسى المعروف ، ويقسم العالم السماوى إلى أبراج يستقر فى كل منها عدد من الأجرام السماوية .

ولبطليموس خريطة للعالم من نوع خريطة « اراتوستنيز » تمتاز بكثير من الدقة واستفاضة المعلومات .

وكانت « كانوب » مسرح أعماله الفلكية ، وكان له بها مرصد خاص . ولم تقتصر جهود بطليموس على الفلك والجغرافية ، فله جهود مشكورة فى الرياضيات وعلى الأخص حساب المثلثات ، كما له مصنفات

فى الموسيق والفلسفة والتاريخ العام .

وترجم كتابه « المجسطى » Almagest إلى الفارسية والعبرية واللاتينية . وأقدم ترجمة له هى اللاتينية التى أمر بها « الفونس » ملك قشتالة ، وهى ترجمة مقرونة بالأصل العربى . وفى عصر « أبى جعفر المنصور » ترجم « المجسطى » إلى العربية ، ولكن مما يؤسف له أن الترجمة العربية ليست موجودة فى أية مكتبة من مكتبات الغرب أو الشرق . والمجسطى يحوى « زيجا » زمنياً وحساباً لحركات الشمس والقمر وجداول بأسماء النجوم الشمالية وحركات الكواكب ، وطريقته علمية منظمة ، وأراؤه قيمة ، وظلت كتابات بطليموس العماد الذى اعتمد عليه جغرافيو العصور الوسطى .

ديوفانتس[١]

ديوفانتس ، واضع علم الجبر ، أما يونانى أو مصرى — والذين يميلون إلى جعله يونانياً هم أنصار الفكرة القائلة بأن نشأة علم الجبر يونانية ، والذين يلحون فى جعله اسكندرياً عاش فى القرن الثالث أو فى القرن الخامس الميلادى ، يريدون بذلك نسبة هذا الفضل العلمى إلى الاسكندرية . وهؤلاء يؤكدون أن نشأة علم الجبر « اسكندرية » لا يونانية .

وعلى يدى « ديوفانتس » بدأ الجبر يتبوأ مكانة سامية بين فروع الرياضيات . يقال انه وضع كتاباً فى علم « العدد » يتكون من ثلاث

(١) Diophantes

عشرة مقالة ، وصل الينا منها ست وبضع مقالة . وهذا المؤلف يعتبر أساساً متيناً لتطور علم الجبر ، وهو خليط بين الجبر الصرف وبقية الفروع الرياضية .

ويميل مؤرخو الرياضة إلى الاعتقاد بأن ما كتب «ديوفانتس» كان معروفاً من قبل ، والحق أنه يصعب أن يصل الانسان إلى شيء قاطع فى أمر «ديوفانتس» — غير أن الشائع المعروف عنه أنه الواضع لعلم الجبر ، أو أنه على أقل تقدير أول من جعل أولياته علماً منظماً يتخذ لنفسه مكانة محترمة بين شعب الرياضة .

والشائع أن علم الجبر لم يتقدم خطوة عما تركه عليه «ديوفانتس» حتى أدركته النهضة الأوربية . فنقلت ما خلف «ديوفانتس» فى هذا العلم ، وأضافت اليه أبحاثاً جديدة — وقد عثر على كتابه بمكتبة «الڤاتيكان» فى القرن السادس عشر مكتوباً باليونانية .

ثيون وهيباشيا[1]

«ثيون» فيلسوف رياضى أدرك القرنين الرابع والخامس الميلاديين فعاش بينهما مشتغلا بمباحث الرياضة ، ولا سيما الهندسة والفلك والجبر .

وتقترن جهود «ثيون» عادة بجهود ابنته الفيلسوفة النابغة «هيپاشيا» التى ولدت بالاسكندرية ، ونشأت نشأة أبيها العلمية ، وعاونته كثيراً فى بحوثه الرياضية ، وتزعمت المدرسة الفلسفية الوثنية

(١) Theon, Hypatia

المعروفة باسم الأفلاطونية الحديثة Neo Platonism

وعلقت « هپاشيا » على ما كتب ديوفانتس فى الجبر ، ولكن تعليقها هذا مفقود الآن ، كما علقت على كتاب « أپولونيوس » فى القطاعات المخروطية Conic Sections

« وهپاشيا » عالمة فذة ، راحت ضحية التعصب الدينى حيث مثل بها المسيحيون فى أوائل القرن الخامس الميلادى أبشع تمثيل حين قتلوها وهى تدافع عن عقيدتها .

وموضوع جهادها ومقتلها يكون قصة رائعة للكاتب الانجليزى الأشهر « تشارلز كنجزلى » Charles Cingslay عنوانها Hypatia

هذا وقد عرفت مبادىء « التحليل الجبرى » إلى حد ما على يد «ثيون» وابنته « هپاشيا » — وكان القدماء لا يعرفونه ، وإن كانوا قد عرفوا « التحليل الهندسى » على وجه التأكيد .

وفى مأساة هپاشيا يتمثل الصراع بين الوثنيه والمسيحية بأجلى مظاهر القسوة المعروفة عن ذلك العصر المضطرب ، كما يتمثل فى شخصها الجمع بين الفلسفة بمباحثها المختلفة والاشتغال بالعلوم الرياضية .

جالينوس الطبيب(١)

يمثل « جالين » أو جالينوس الطبيب البرجامى الأصل آخر عهد الاسكندرية بالروح العلمية فى الطب . وهو صاحب المقالات الستة عشر الشهيرة فى المباحث الطبية . وهو أستاذ الاواخر

(١) Claud Galien المولود فى برجاموس ، والمتوفى سنة ٢٥ م

من علماء الطب الاسكندرى — له من المؤلفات الطبية كثير، لكن علماء المدرسة الطبية المتأخرة فى الاسكندرية، الذين أدركهم الفتح العربى، كانوا قد اختاروا من بين مقالاته ست عشرة مقالة ترجموها وجعلوها برنامج الدراسة الطبية فى المدينة. وعلى مر الزمن شاهت هذه المقالات وأختصرت واختلطت بالتنجيم، وأدرك العرب الاسكندرية وهى على هذه الحال، فانتقل منها الطب إلى الشرق الادنى مختلطاً بالشوائب التى طالما نسبت ظلماً إلى العقل العربى — نسب المتعصبون اليه ميلا إلى التنجيم والشعوذة مرجعه فى الحقيقة جمود الاسكندرية آخر عهدها بالحياة العلمية الصحيحة.

وجالينوس الاسكندرى أستاذ الاساتذة فى الطب، ولا يقل أثره فيه عن أثر « أبقراط » اليونانى — ومن مجموع تعاليمهما معاً تكونت برامج الدراسة فى مدارس الاسكندرية الطبية — وتأثرت هذه التعاليم بروح الجهالة أحيانا، وفقدت قيمتها وشاهت، واقتصرت فى العصور المتأخرة على رءوس موضوعات كان لا بد لدارس الطب من الالمام بها والاجتهاد على أساسها. ويعزى إلى هذا النقص الذى أعتور الحركة الطبية حين بلغت هذا الدرك، اجتهاد الاسكندريين وانصرافهم إلى الابتكار فى الطب والكيمياء والعلوم الطبيعية، ومن ثم كان ازدهار المدرسة الطبية النسبى فى الاسكندرية عند الفتح العربى وقبله بزمن.

حنا فلبونس(١)

من علماء القرن السادس الميلادى، وهو المعروف عند العرب باسم «حنا الاجرومى» (جراماتيكوس Grammaticus). علق على أرسطو ودرس الطب الاسكندرى، وذاع صيته فى الوقت الذى أغلق فيه الامبراطور جستنيان مدارس «أثينا» الوثنية عام ٥٢٩ م.

ويزعم أبو الفرج بن العبرى (المتوفى ١٢٨٦م) أن حنا هذا هو الذى طلب إلى «عمرو بن العاص» أن يعطيه من كتب «الخزائن الملوكية» قبل احراقها، لانه كان من هواة الكتب. وقد برهنا بالادلة التى سقناها عن «بطلر» و «هانوتو» على سقم هذه الرواية وعدم استقامتها.

ولا يمكن عقلا أن يكون «حنا» هذا قد أدرك الفتح العربى، حيث ثبت الآن أنه كان يدرس ويكتب فى الاسكندرية منذ أوائل القرن السادس، ولو أدرك القرن السابع لبلغ من الكبر عتيا وقعد عن الكتابة وطلب الكتب. وتحقيق تاريخ حياته مرتبط بمسألة اتهام العرب باحراق مكتبة الاسكندرية ارتباطاً وثيقاً(٢) — وقد أدى بحث الدكتور

---

(١) ٤٩٧ / ؟ ميلادية

(٢) ثبت أن فلبونس هـــذا نزح إلى الاسكندرية فى أوائل القرن السادس الميلادى، وأنه كتب أول تعليقاته على أرسطو بتاريخ ١٠ باخون من عصر الشهداء، الموافق ٥ مايو ٥١٧ ميلادية، وأن مؤلفه عن «خلود العالم» الذى حارب فيه الأفلاطونية الحديثة وضع عام ٥٢٩ للميلاد، وأنه كتب إلى الأمبراطور جستنيان =

بطلان هذه المسألة إلى كذب رواية أبى الفرج التى أوردها فى كتابه «نظم الجوهر»، وهى الرواية التى لا تعتمد على سند معلوم من التاريخ فى اتهام العرب باحراق مكتبة الاسكندرية.

وحنا فلپونس هذا من أفذاذ علماء الاسكندرية، ومن المشتغلين فيها بالفلسفة والطب ومن محبى القراءة والاطلاع فى عصر من أشد عصور الاسكندرية غموضاً من الناحية العلمية هو القرن السادس الميلادى.

ولحنا فلپونس تعليقات على تدريس علم المنطق وعلى فلسفة أرسطو. وكان من شيوخ اليعاقبة المنتقضين على الكنيسة الرسمية. وجد فيه اليعقوبيون زعيما لهم، وكان من المنتظر أن يأخذوا بتعاليمه فى المنطق، ولكنهم بالاشتراك مع النساطرة آثروا مختصر فورفيروس الصورى المعروف باسم «ايساغوجى» واتخذوه مدخلا لهذا العلم.

وله تصانيف فى قواعد اللغة الاغريقية والعلوم الرياضية، ومن المحتمل أنه كان أستاذاً يدرس فى الجامعة، ما لبث تحوله من

= كتاباً دافع فيه عن فكرة الطبيعة الواحدة للمسيح عام ٥٥١ للميلاد (تحقيق ماير هوف فى عجالته: نهاية مدرسة الاسكندرية)

— وإذا كان فلپونس قد اشتغل بوضع أول تعليق له على أرسطو عام ٥١٧م، فانه كان لا بد يبلغ من العمر إذ ذاك عشرين عاما على أقل تقدير، وعلى هذا الاعتبار يكون قد ولد عام ٤٩٧م، فليس معقولا إذن أن يكون قد عاش حتى أدرك الفتح العربى عام ٦٤٢م، إذ لو عاش حتى ذلك العهد، لبلغ عمره ١٤٥ سنة!!

الوثنية إلى المسيحية ووضعه كتاباً هاماً ضد التعاليم الوثنية أن أكسباه مكانة ممتازة . ومؤلفه « خلود العالم » : Sur L'Éternité du Monde حرب شعواء شنها على فلاسفة الأفلاطونية الحديثة. وله مؤلف دافع فيه دفاعاً مجيداً عن المسيحية ، وكان فى كل ما كتب يتبع أسلوب أرسطو فى الاقناع ، وهو من أوائل من أخضعوا الدين للقوانين المنطقية اخضاعاً صارما. ومن بعده لعب المنطق دورا هاما بين اليهود والعرب المسلمين والمسيحيين اللاتينيين فى العصور الوسطى . وقد دافع فليوبنس عن فكرة الطبيعة الواحدة للمسيح Monophysism دفاعاً مجيداً .

وهو يعتبر بحق أصدق ممثل للحركة العلمية فى الاسكندرية فى القرن السادس الميلادى — وآخر رجالها .

بولس الاجانيطى[١]

أدرك العرب الاسكندرية وبولس الأجانيطى يدرس بها تعاليم جالينوس وأبقراط فى الطب على شكل متون لا سبيل إلى التحوير فيها — كأنما هى منهاج من السماء !

وبولس الأجانيطى هذا أستاذ العرب والسريان فى الطب ، وبفضله ذاعت تعاليم « جالينوس » من الاسكندرية آخر عهدها بالدراسة الطبية ، وكونت نواة المدارس الطبية فى انطاكية وحران وجنديسابور وغيرها من مراكز العلم فى الشرق الأدنى عامة .

والمعروف عن الطب الاسكندرى فى ذلك الوقت ، رغم رواج

---

(١) Paul of Aeginae

دراسته على يد «بولس الأجانيطى» وزملائه ، أنه اختلط بالتنجيم ، فى وقت فسدت فيه مذاهب العلم اجمالا ، وتسلط الجمود على العقول ، وأتيح للطلاسم والأحاجى أن تعمل عملها فى تشويه الحركة العلمية عامة — والطبية خاصة .

واسم هذا الطبيب أكثر الأسماء تداولا فيما نقل السريان والعرب من طب الاسكندرية . وهو معاصر للفتح العربى وآخر ممثل للحركة العلمية الاسكندرية على الاطلاق .

ولبولس الأجانيطى مقالات فى « فن التوليد » ، عرفها العرب ونقلوها فيما نقلوا غداة الفتح .

وظلت كتبه إلى جانب غيرها مادة للدراسة الطبية فى القرون الوسطى ، فى العربية واللاتينية على السواء .

الحمد لله فى البداية والنهاية



، الميدالية ، التذكارية لإنشاء جامعة فاروق الأول بالاسكندرية

(الصورة المبعوثة للجامعة القديمة)

فهرست الموضوعات

القسم الاول

في أمر الجامعة

صفحة

المصـــادر

(١) ابن أبي أصيبعة . . . . طبقات الأطباء

(٢) ابن خلدون . . . . المقـدمة

(٣) ابن خلكان . . . . وفيات الأعيان

(٤) ابن قتيبة . . . . . كتاب المعارف (وستنفلد ١٨٥٠ م)

(٥) البلاذرى . . . . فتوح البلدان

(٦) أبو الفرج بن العبرى . . مختصر الدول

(٧) الشهرستانى . . . . الملل والنحل

(٨) المسعودى . . . . مروج الذهب

(٩) المقريزى . . . . . الخطط ، كتاب المواعظ والاعتبار ،

(١٠) احمد امين وزكى نجيب محمود قصة الفلسفة اليونانية

(١١) احمد امين . . . . فجر الأسلام وضحى الاسلام

(١٢) اسماعيل مظهر . . . . تاريخ الفكر العربى

(١٣) حافظ عفيفى باشا . . . الانجليز فى بلادهم

(١٤) لجنة التاريخ القبطى . . تاريخ الأمة القبطية

(١٥) سعيد بن بطريق . . . نظم الجوهر

(١٦) محمد احمد حسين . . . مكتبة الاسكندرية فى العالم القديم

(١٧) محمد كرد على . . . . الاسلام والحضارة العربية

(١٨) مصطفى امين . . . . تاريخ التربية

(١٩) ياقــوت . . . . . معجم البلدان

1) Bax (B). . . . . . A Handbook to the History of Philosophy.
2) Bevan (Ed.) . . A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty.
3) Breasted . . . . . Ancient Times.
4) » » . . . . . Ancient Coptic Churches of Egypt.
5) Breccia . . . . . A Guide to the Ancient and Modern Town of Alexandria (1922).
6) Bury (J B) . . . Gibbon's Decline and Fall of the Roman Empire.
7) Casanova . . . . L'Incendie de la Bibliothèque à Alexandrie, (1923).
8) Champolleon L'Egypte sous les Pharaons.
9) Hammerton. . . Concise Universal Biography.
10) Hanouteaux . . Histoire de la Nation Egyptienne.
11) Heath . . . . . . History of Mathematics
12) Holm . . . . . . History of Greece.
13) Jondet (G) . . . Atlas Historique de la Ville d'Alexandrie, (1921).
14) Kilppel . . . . . Uber das Alexandrinische Museum, (1828).
15) Mahaffy . . . . . The Empire of the Ptolemies.
16) » . . . . . Greek Life and Thought.
17) Maspero (G) . . Comment Alexander devint dieu en Egypte.
18) Matter . . . . . . Essai Historique sur l'Ecole d'Alexandrie, (1820).
19) Mayerhoff (M) La Fin de l'Ecole d'Alexandrie d'apres quelques auteurs Arabes.
20) Milne . . . . . . Egypt under the Roman Rule.
21) Parthey . . . . . Das Alexandrinische Museum, (1838).
22) Ritschel . . . . . Die Alexandrinischen Bibliotheken, (1888).
23) Smith . . . . . . Introduction to the History of Science.
24) Susemihl (F) . . Geschichte der Griechischen Litteratur in der Alexandriner Zeit, (1891).

* * *

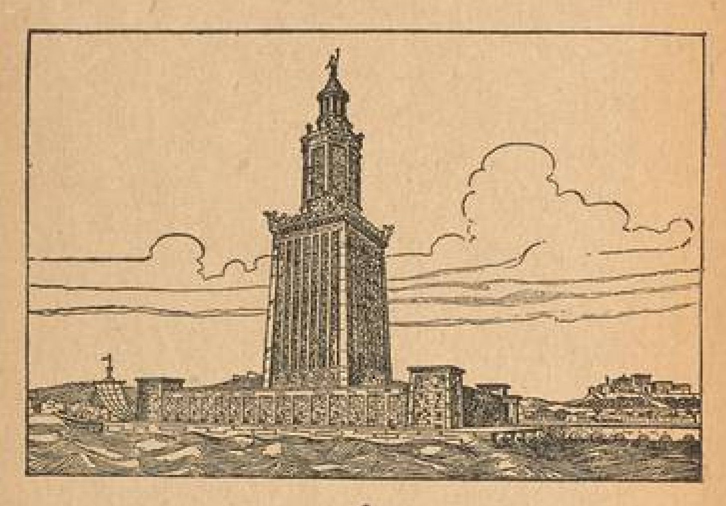
25) Encyclopedia Britannica (14th Edition).
26) Encyclopedia Halensis (Vol. 23).



بطليموس الأول « سوتر »
مؤسس المتحف الاسكندرى
(٣٠٥ — ٢٨٥ ق.م)

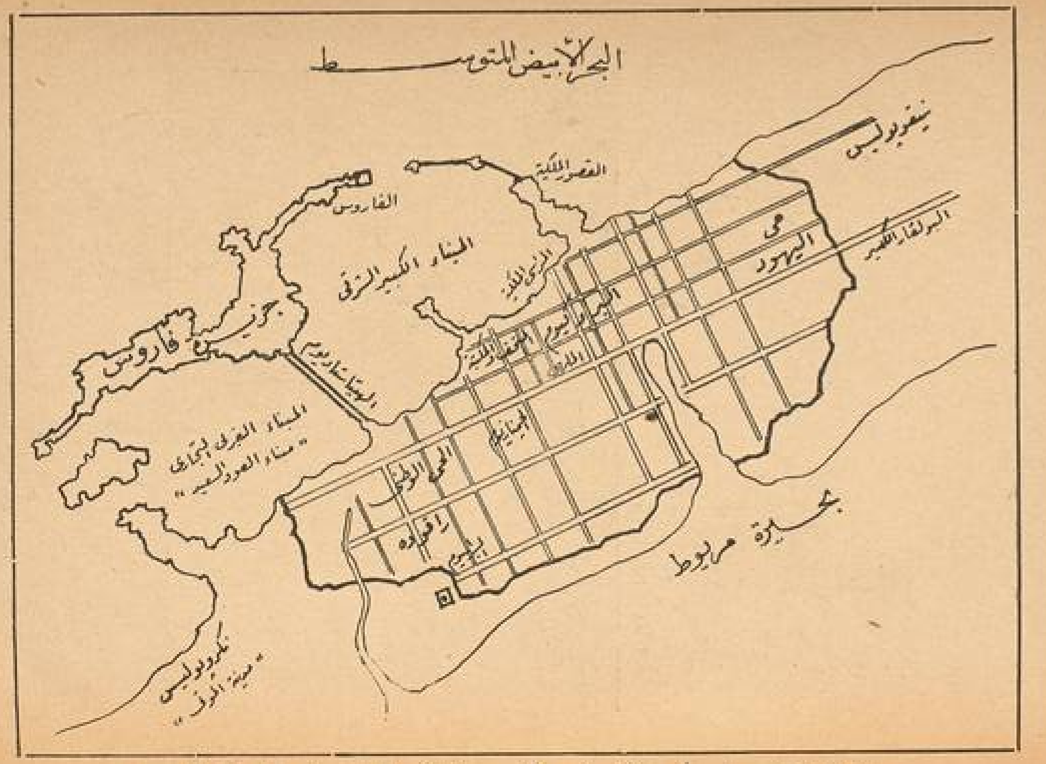


الدلتا : أشهر المدن التاريخية التى يتردد ذكرها فى الموضوع

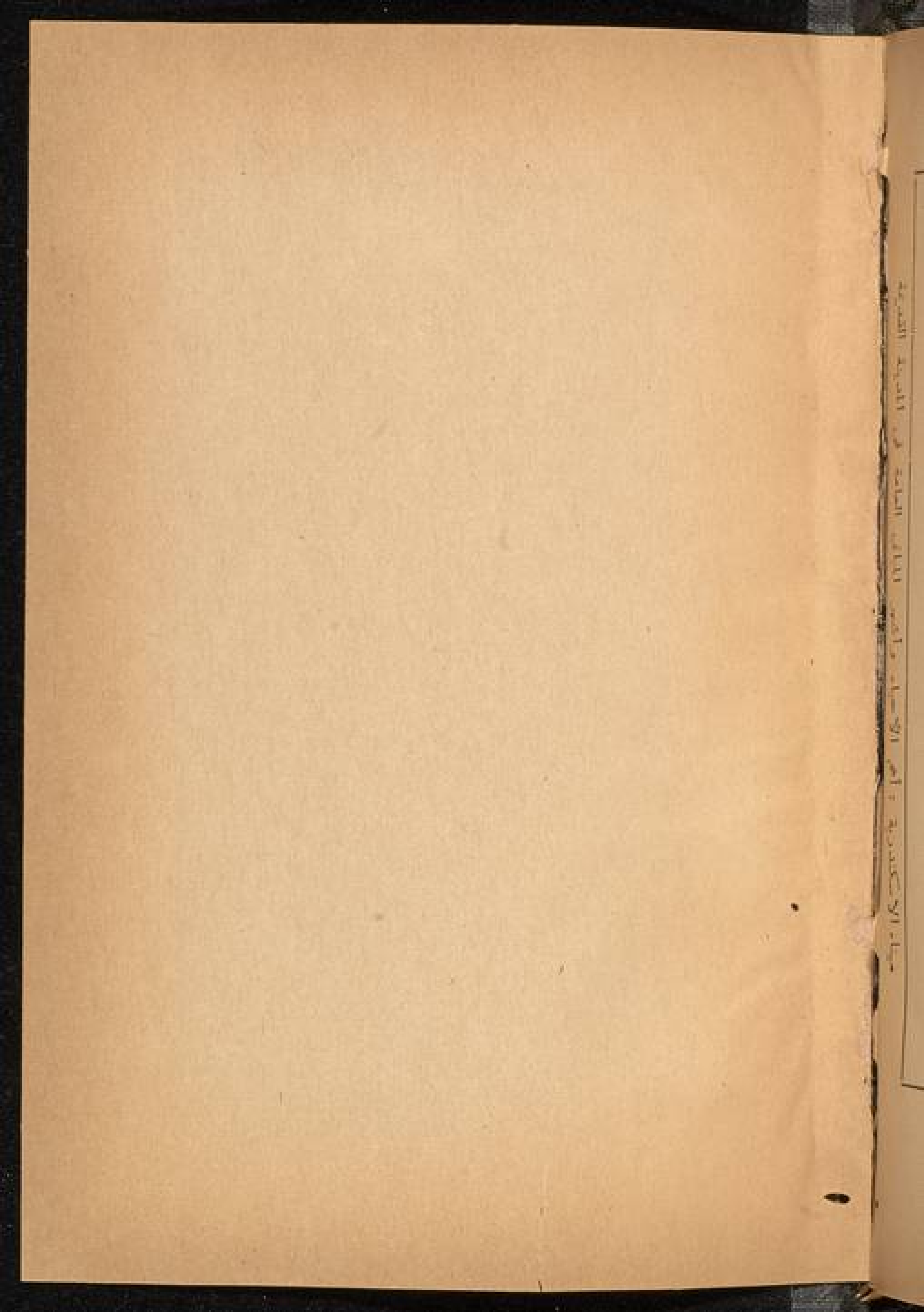


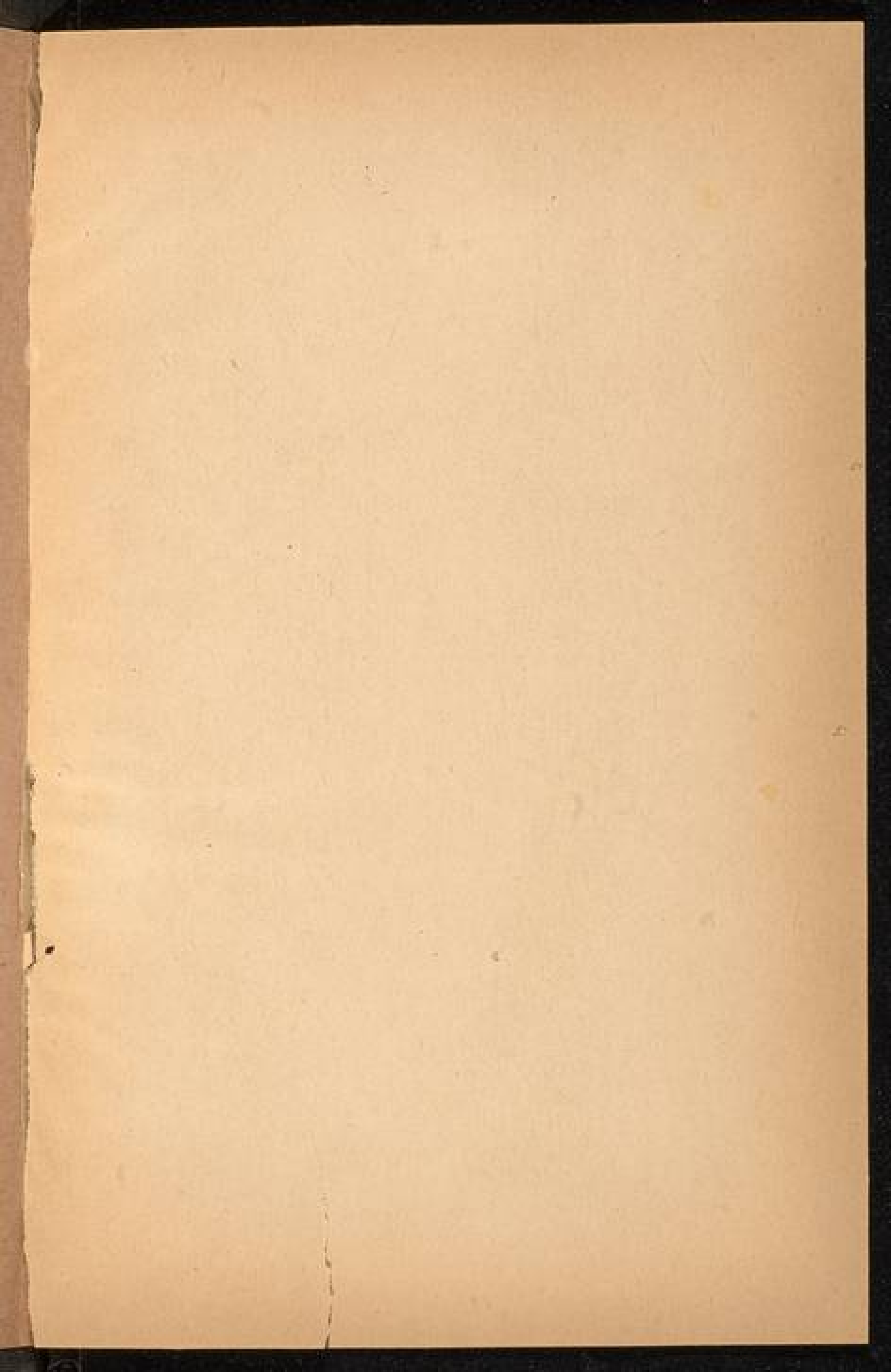
الفاروس : فنار الاسكندرية الأعظم — أسسه بطليموس فيلادلف
فى الطرف الشمالى لجزيرة فاروس حوالى ٢٩٠ قبل الميلاد ،
وبقى قائماً فى مدخل الميناء حتى عام ١٣٢٦ للميلاد .

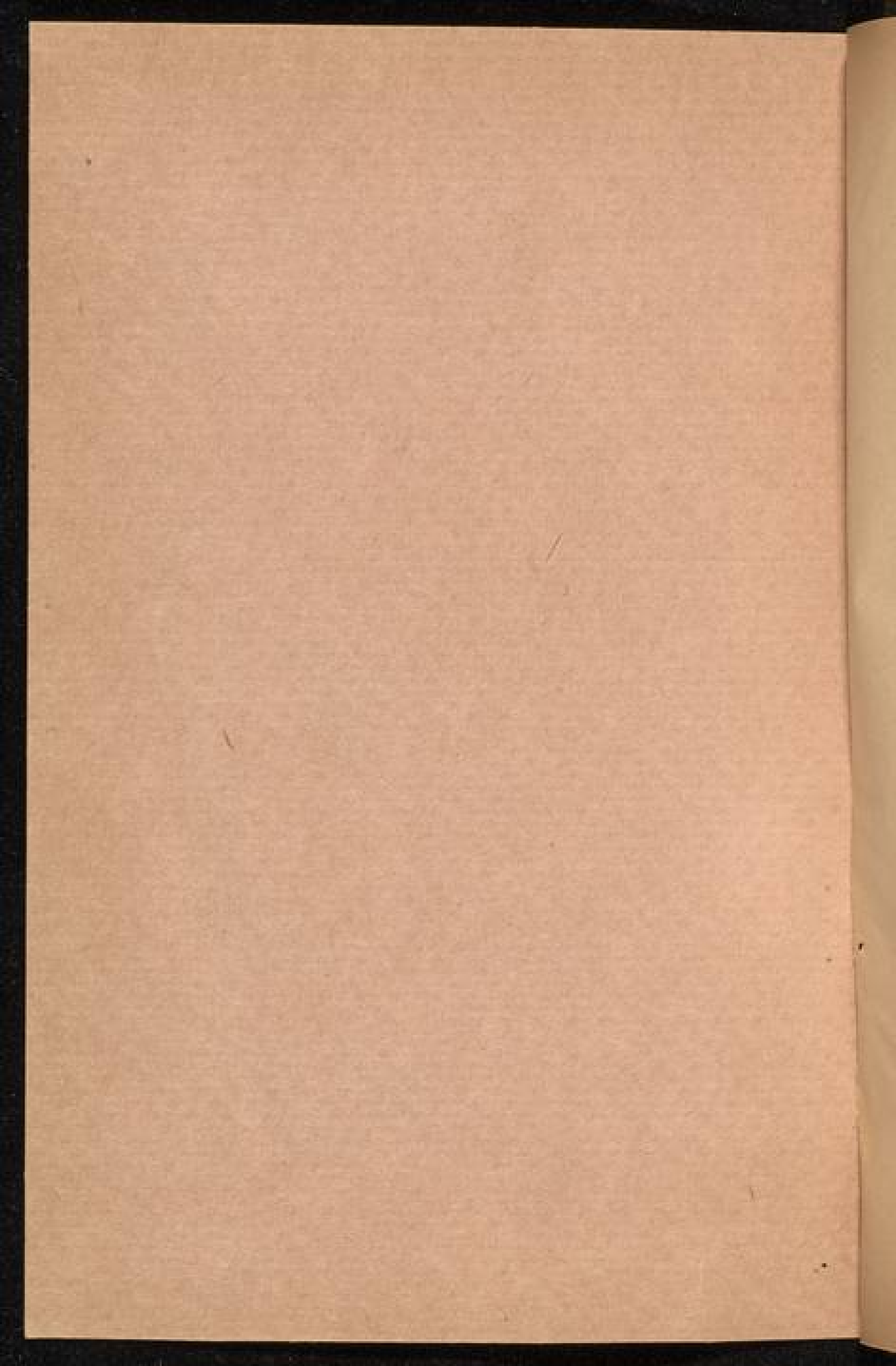
(عن برستد : الأزمنة القديمة)

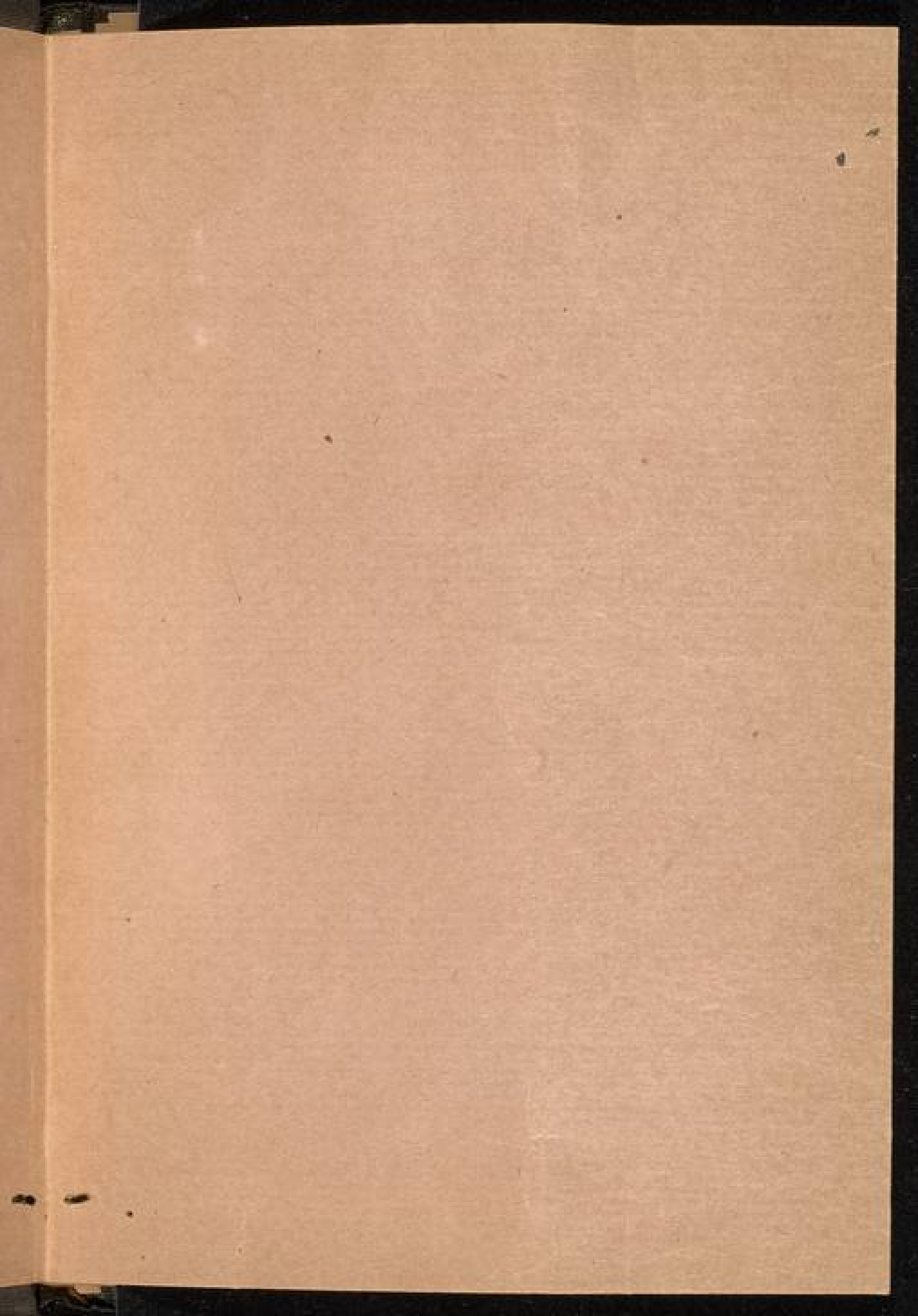


ميناء الاسكندرية : أهم الأحياء وأشهر المبانى العامة فى المدينة القديمة










SIGILLVM · COLLEGII · COLVMBIAE · NOVI · EBORACI

